صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز

المسماة

تاريخ المستبصر

لابن المجاور

راجعه ووضع هوامشه

ممدوح حسن محمد

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - ٩٣٦٢٢٧٧

تاريخ المستبصر

لابن المجاور

صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز

المسماة

تأريخ المستبصر

لابن المجاور

راجعه ووضع هوامشه

ممدوح حسن محمد

١٩٩٦

الناشر

مكتبة الثقافة الدينيه

٥٢٦ شاع بور سعيد القاهرة

ت : ٩٢٢٦٦٢٠ ــ ٩٣٦٢٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشـــــر

الحمد لله رب العالمين، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، شهادة نلقى بها ربنا يوم العرض عليه...

وبعـــــــد ،،،

فيسر «مكتبة الثقافة الدينية» أن تقدم للمكتبة الإسلامية هذا السفر الجليل من كنوز تراثنا الإسلامي، وهو كتاب: «تاريخ المستبصر» لمؤلفه: «ابن المجاور» وهو كتاب في تاريخ مكة والحجاز وبلاد اليمن، لم تعرف وفاة مؤلفه.

ولنا هنا وقفة، حيث اختلفت المراجع في نسبة ابن المجاور، ولم تتفق له على اسم واحد، فغالبية المراجع تذكره على أنه: «أبو الفتح، يوسف بن يعقوب بن محمد بن المجاور الشيباني» وهكذا أورده الزركلي في «الأعلام» وأيضاً ورد بنفس الصورة في «موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين» وهكذا ورد على غلافة الكتاب ـ ط . ليدن سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ وهي نسبة خاطئة.

فقـد أورد المؤلـف في ص: ٢٨١ من هـذه الطبعة الجديدة، التي بين أيدينا ما نصه:

«وكتب والدى محمد بن مسعود بن على بن أحمد بن المجاور البغدادى النيسابورى ...» .

وهكذا نجد أن المؤلف قد ذكر اسم والده بالكامل، إلا أنه لم يذكر اسمه هو أو كنيته.

وقد ذكرت صاحبة «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» تحت عنوان: «تاريخ المستبصر» ما يلى:

لمحمد بن مسعود بن ... الذى كان حيا سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م.

مخطوط رقم ٤٦٣ مكتبة المتحف العراقى.

وهو كتاب فى تاريخ مكة والحجاز وبلاد اليمن، لم تعرف وفاة مؤلفه، وقد ذكر المؤلف اسمه فى الورقة ١٥٨ من هذه النسخة وهو: ...

ويلاحظ أن المؤلفة هنا اعتبرت أن النسبة الواردة فى المخطوط فى الورقة ١٥٨ أو فى ص ٢٨١ من الطبعة التى بين أيدينا هى للمؤلف نفسه، بينما نجد عبارة المؤلف صريحة فى قوله: « وكتب والدى ...» .

من هنا كان حرصنا على عرض كل هذه الاختلافات ووضعها بين يدى القراء الأعزاء والباحثين المتخصصين سائلين الله تعالى أن يهدينا إلى سواء السبيل...

إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير

الناشـــــر

القسم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى رفع السماء عبرة للناظرين وبسط الأرض وجعل فيها آيات للموقنين وأودع فى اختلاف الألسن والألوان باختلاف الأقاليم والبلدان بصائر المستبصرين وشواهد عموم رحمته وسبوغ نعمته للعالمين، وصلي الله على سيدنا محمد المصطفى من خلقه فى السموات والأرضين وعلى آله الطيبين وأصحابه أجمعين، وبعد.

فإن فن التاريخ ولا سيما ما يتعلق بمعمورة الأرض وعُروض بلادها وأطوالها وأوضاع مبانيها ومسافات مغانيها وتصوير أقطارها وتبيين أحوال أمصارها من أبدع الفنون وأغربها وأبعدها غوراً وأعجبها، تجدد لك أوراقه البالية المدائن الدارسة برصاصها وقصورها ويحيى مواتُ فصولِها وأبوابِها القرونَ الطامسة فى طى حروفها وسطورها.

هذا ولا مرية لذوى العقول والأديان فى أن مكة ـ زادها الله شرفًا ـ أم القرى وسرة الأرض المعمورة، وأحب بلاد الله إلى الله ورسوله فى السنن المشهورة[1]، ثم

(١) ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال عند خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة: «والله =

إن أيمن ما حولها من البلدان وأبركها مملكة اليمن المخصوص بالبركات الثلاث النبوية في جواهر السنن منبع الحكمة ومعدن الفقه والإيمان من سالف الزمن، فخصصت هذين القطرين في هذا الكتاب بذكر ما يتعلق بهما في هذا الفن من بيان البقاع والبلاد والمدن والجبال والبحار وشرح المنازل والمغاني ومقادير المسافات في المفاوز والمقار ثم تصوير كل بقعة منه حتى كأنك تراها رأى العين وتوقف بها على أرجائها فيغنيك ذلك عن الأين في البين، ولا يعدم كل بقعة من نادرة جرت فيها من الأخبار وشعر نظم في سلكها قديماً من الأشعار.

وهذا أوان الشروع في مقصود الكتاب، وتسهيل الحجاب، وفتح الباب، والله ميسر الأسباب، إنه كريم وهاب.

= إنـك لأحـب أرض الله إلى الله، وأحـب أرض الله إليّ، ولولا أن قـومـك أخـرجـوني منك ما خرجت».

ذكر أسماء مكة وصفاتها

سماها الله تعالى بأربعة أسماء: مكة والبلد والقرية وأم القرى.

قال الله تعالى: ﴿وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة﴾[1] فإذاً الكلام على هذا الاسم.

قال الزجاج: مكة لا تنصرف لأنها مؤنثة، وهي معرفة، ويصلح أن يكون اشتقاقها بكة لأن الميم تبدل من الباء، كما يقال: ضربة لازب ولازم، ويصلح أن يكون اشتقاقها من قولهم مككت العظم إذا مصصته مصا شديداً حتى لا يبقى فيه شيء، شبهت بذلك لشدة ازدحام الناس فيها.

وقال ابن فارس: مككت العظم إذا أخرجت مخه، والمك الاستقصاء، وفى الحديث: «لا تمككوا على غرمائكم».

وفى تسمية مكة بهذا الاسم أربعة أقوال:

أحدها: أنها مسافة يأتيها الناس من كل فج عميق، فكأنها هى التى تجذبهم إليها، من قول العرب امتك الفصيل ما فى ضرع أمه.

الثاني: من قولهم: مككت الرجل إذا أردت تُخَوِّفُه، فكأنها تمكك من ظلم فيها، أى تهلكه، كما قال:

يا مكة الفاجر مُكِّي مكا ولا تمكى مَذْحِجًا وعكا

(١) الآية: ٢٤ من سورة الفتح.

والثالث: أنها سميت بذلك لجهد أهلها.

والرابع: لقلة الماء بها.

وقد اتفق العلماء أن مكة اسم لجميع البلدة، واختلفوا فى بكة على أربعة أقوال:

أحدها: أنه اسم للبقعة التى فيها الكعبة، قاله ابن عباس رضى الله عنهما.

والثاني: أنها ما حول البيت، ومكة ما وراء ذلك، قاله عكرمة.

والثالث: انها اسم للمسجد والبيت، ومكة اسم للحرم، كما قاله الهروى.

والرابع: أن بكة هى مكة قاله الضحاك واحتج لتصحيحه ابن قتيبة وقال بأن الباء تبدل من الميم ويقال ضربة لازم ولازب.

وأما اشتقاق بكة فمن البك، يقال: بكّ الناس بعضهم بعضاً أى دفعه.

وفى تسميتها بكة ثلاثة أقوال[1]:

أحدها: لازدحام الناس بها، قاله ابن عباس.

والثاني: تبك أعناق الجبابرة، أى تدقها، فما قصدها جبار إلا أهلكه الله، قاله ابن الزبير.

وأما تسميتها بالبلد فقد قال الله عز وجل ﴿ **لا أقسم بهذا البلد** ﴾[2] يعنى مكة والبلد فى اللغة صدر القرى.

(١) المذكور هنا قولان فقط.

(٢) الآية الأولى من سورة البلد.

وأما تسميتها بالقرية فقال الله عز وجل: ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة** ﴾ أى ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى انتقال عنها لخوف أو ضيق ﴿ **يأتيها رزقها رغداً من كل مكان** ﴾ الرزق الواسع الكثير، يقال: أرغد فلان إذا أصاب خصباً وسَعَة ﴿ **فكفرت بأنعم الله** ﴾ أى كذبت محمداً ﷺ ﴿ **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾[1] وأصل الرزق بالنعم وأكثر اشتقاقه منه وذلك أن الله تعالى عذب كفار مكة بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة وكانوا يخافون من رسول الله ﷺ ومن سراياه.

والقرية اسم لما يجمع فيها جماعة كثيرة من الناس، وهذا اسم مأخوذ من الجمع يقال: قريت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه، ويسمى ذلك الحوض مقراة.

وأما تسميتها بأم القرى فقد قال الله عز وجل: ﴿ **ولتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾[2] يعنى مكة.

وفى تسميتها بذلك أربعة أقوال:

أحدها: أن الأرض دحيت من تحتها، قاله ابن عباس، وقال ابن قتيبة: لأنها أقدمها.

والثانى: لأنها قبلة يزوها الناس.

والثالث: لأنها أعظم القرى شأناً.

والرابع: لأن فيها بيت الله عز وجل.

(١) الآية: ١١٢ من سورة النحل.

(٢) الآية: ٩٢ من سورة الأنعام.

قال ابن المجاور[١]: ومما قرأت في كتاب الفاكهي قال: قال لي رجل من أهل مكة قال أعطاه كتاباً بعضُ أشياخه فإذا فيه أسماء مكة فإذا فيه مكتوب: مكة وبرة وبسّاسة وأم القرى والحرم والمسجد الحرام والبلد الأمين.

وقالوا: ومن أسمائها صلاح، وقال القائل في ذلك: ... صلاح وقال كانت تسمى في الجاهلية النشاشة لأنها تنش من فيها، أي تخرجه منها.

قال ابن المجاور: وحدثني هندي بالهند أنها تسمى عند الهنود مكي مسير.

وقال بعض الفضلاء: اسمها كوسا، واحتج بقول الشاعر:

سألت عَمْراً عن فتى اسمه ... يحيى وثانٍ اسمه عيسى
فقال: يحيى أبصرته جالساً ... بالفجّ يحلق رأسه موسى
وأبصرتُ عيسى داخلاً قرية ... هي التي قد سميت كوسا

ويسمونها التجار عروق الذهب، ويسمونها البغاددة مربية الأيتام.

وقد ذكر المسعودي في كتاب مروج الذهب أن مكة من الإقليم الثاني تنسب إلى المريخ، وبناها إبراهيم الخليل عليه السلام، وهواها صحيح وجوها طيب وليلها أطيب من نهارها لأنها تنزل في لياليها الرحمة على من بها، وماؤها من الآبار وأطيبها ماء الشُّبيكة والوردية والواسعة، وهي بئر وراء جبل أبي قبيس، فيها يربح الفقير، وجميع ذلك بنته أم العزيز زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور.

---

(١) هو مؤلف الكتاب، وسبق التعريف به في المقدمة، وسيتكرر كثيراً في الكتاب.

وأهلها عرب وأشراف من نسل الحسن بن على بن أبى طالب، وما بقى من أهلها قرشيين على مذهب الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وهم رجال سمر، لأن جلة مناكحهم الجوارى السود من الحبش والنوبة، طوال الجثث صحيحين اللغة قليلين المال كثيرين العشائر والقبائل ذوو قناعة، وقد قال النبى ﷺ «القناعة غنى» وقال ﷺ: «القناعة كنز لا ينفد».

وكان أحدهم يبقى على قرص وقليل سمن ثلاثة أيام بلياليها، وفى ذلك أنشد الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى يقول:

أَمَتُّ مطامعى وأرحت نفسى	فإن النفس ما طمعت تهونُ
وأحييتُ القنوع وكان مَيْتًا	وفى إحيائه عِرْضى مصونُ
إذا طَمَعٌ أحلّ بقلب عبدٍ	علته مذلةٌ وعلاه هُونُ

وملبسهم النصافى النيسابورى الرفيع ويتحزم بنصفه الثانى ويرمى بما فضل منها، ولبس نسائهم القنوع (وسيأتى[1] ذكر القنوع فى أعمال صنعاء) والبراقع، ومأكولهم اللحم والسمن والخبز، وأساميهم سالم ومسلم وغانم وغنام وفراح وفارح وقاسم وهياب ونهاب ووثاب ومطاعم ومطاعن ومفرج وفارج وقاسم وقائم وضاحك وضحكان وسلال وفلال وسيار وهبار وراشد ورشاد ورشد وشاكر ومشكر وفاضل وفضائل وطالب وظالب وواصل وحاصل وراجى ومرتجى وراجح وناجح وفاتك ومالك ومهيوب وهياب ووهّاس ورعاش وحواس وكناس وقادم ومقدم ومشمر وهانى

(١) فى الأصل: «وقد تقدم» والصواب ما أثبتناه، وانظر ص: ٢١٤ وما بعدها.

ومهنا وزاكي وطائب وظافر وناجي ومنجي وجابر ولاحق وسيار وصابر وجابر وعارس.

ذكر زواج أهل مكة

في العاشر من ذى الحجة يخطب زيدٌ بنتَ عمرو وفى العاشر من المحرم يدخل كل واحد منهم على عرسه بالنظرة والتطهير، قلنا: ولم ذاك؟ قالوا: لأن كلا منا يعيش مع الحاج في كل فن من الفنون من حرام وحلال، فإذا رحل الحاج دار الخطب والنكاح والأفراح والأعراس بين الناس.

فإذا تزوج رجل من أهل مكة وقطع المهر وأراد الدخول على المرأة يخضب الرجال أيديهم وأرجلهم تزينا، وكذلك جميع أهل اليمن وحضرموت، ويحضر كل أصدقائه من الأهل والأقارب وبيده قرطاس مشرور مكتوب عليه اسم الآتى مع وزن المبلغ وعدده يقدمه قدام العروس كلٌ على قدر حاله وسعة ماله، وكذلك تفعل النساء، ويخرج العريس إلى الحرم ويطوف سبعا ويصلى في مقام إبراهيم ركعتين ويُقَبِّلُ الحجر الأسود، ويخرج بالشمع إلى بيت العروس فتُجلّى عليه ويدخل عليها ويبقى عندها سبعة أيام، ففى اليوم السابع يخرج يضم الطرح الذى طُرح له ويديره رأس مال في يده، وعند ذلك يفتح له دكانا يعيش به، ويكون ذلك الطرح ديّناً عليه.

وكل من تزوج من القوم الذين حضروا العرس يرجع يرد إليهم الذى أخذ إلى كل واحد من القوم مثل الذى جاء به إليه أو أزيد منه، وكذلك يفعلون فى سائر أقاليم اليمن.

وكانت أهل مكة في سالف الدهر يشترون العبيد ويقطعون عليهم قطعة تعطى لسيده كل يوم بيومه، وكذلك النساء تقطع المرأة قطعة على جواريها في تحصيل الذهب فترجع الجارية ترجو الفرج أو تبذل الفرج للرجل والحرج في هرج ومرج، وإلى الآن هذا موجود في عدن من الغريب وأهلها، وليس هذا الفن عندهم عار بل تفتخر النساء بذلك، وكذلك كان في أيام الجاهلية كل جارية لا تبذل فرجها يُنْكَر عليها إلى أن نزلت هذه الآية: ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا** ﴾[1] فهي من ذلك العهد وهم على ذلك العهد باقون.

وإذا خرج السيد والعبد والجارية إلى أشغالهم خليت المرأة في الدار وحدها حتى إنها تبرك على أربع إذ ليس لها شغل تشتغل به فيرجع بروكها على وركها عادة وألفوه إلفًا.

ويقال: إذا تخاصم رجل وامرأته واغتاظت المرأة منه غاية الغيظ تقول المرأة لزوجها: لا شك أنك على أني أكسره، والمعنى أنك تريد أن أقعد على عجزي، فيقول لها زوجها: بالله عليك لا تفعلي ذلك.

فصل: دخل سيف الدولة بن عبد الله بن حمدان على بنت عمه، ويقال: بنت خاله وهي باركة على أربع، وهي تنظم لها حب عقد لؤلؤ فقال لها سيف الدولة: بكم هكذا؟ قالت له: بالموصل، قال لها: اشتريت، فقالت له: وأنا بعتك،

(1) الآية: ٣٣ من سورة النور، وانظر في ذلك باب: «الإكراه على البغاء» في كتاب: «سورة النور ومشكلاتنا الاجتماعية» إعداد/ ممدوح حسن محمد، ص: ١٢٥ وما بعدها، من إصدارات دار الأمين بالقاهرة.

وقضى منها شغله... فلما أصبح من الغد جاء الخادم يتقاضى ثمن ما اشتراه فقال سيف الدولة للوزير: اكتب لها منشوراً بتسليم الموصل، فما أعجب الوزير هذا القول وأمسك عن الكتب، فقال له سيف الدولة: اكتب لها، فوالله لقد أخذت منها فرداً يسوى جملا أحمر، أو يقال: جمل عراقي، كما قال:

نعم أقـول لَوَ ان القـول مـقـبـولٌ		ظَل الهوى وتمادى القال والقيلُ
ليس السلام بشافي القلب من دَنَفٍ		ما لم يكن فيـه تخميش وتقبيلُ
وليس يرضى مـحب عن أحـبـتـه		حـتى يفـوز بمـا ضم السـراويلُ

ولأجل ذلك تكبر أعجاز نساء الحجاز لأنهم يربونه قصداً.

ويطلع بها من جميع الخضر مثل البطيخ والخيار والقثاء والباذنجان والكراث ويأكلونه بالتمر والفجل وما أشبه ذلك وبها الرطب الطيب من البرني والمكتوم.

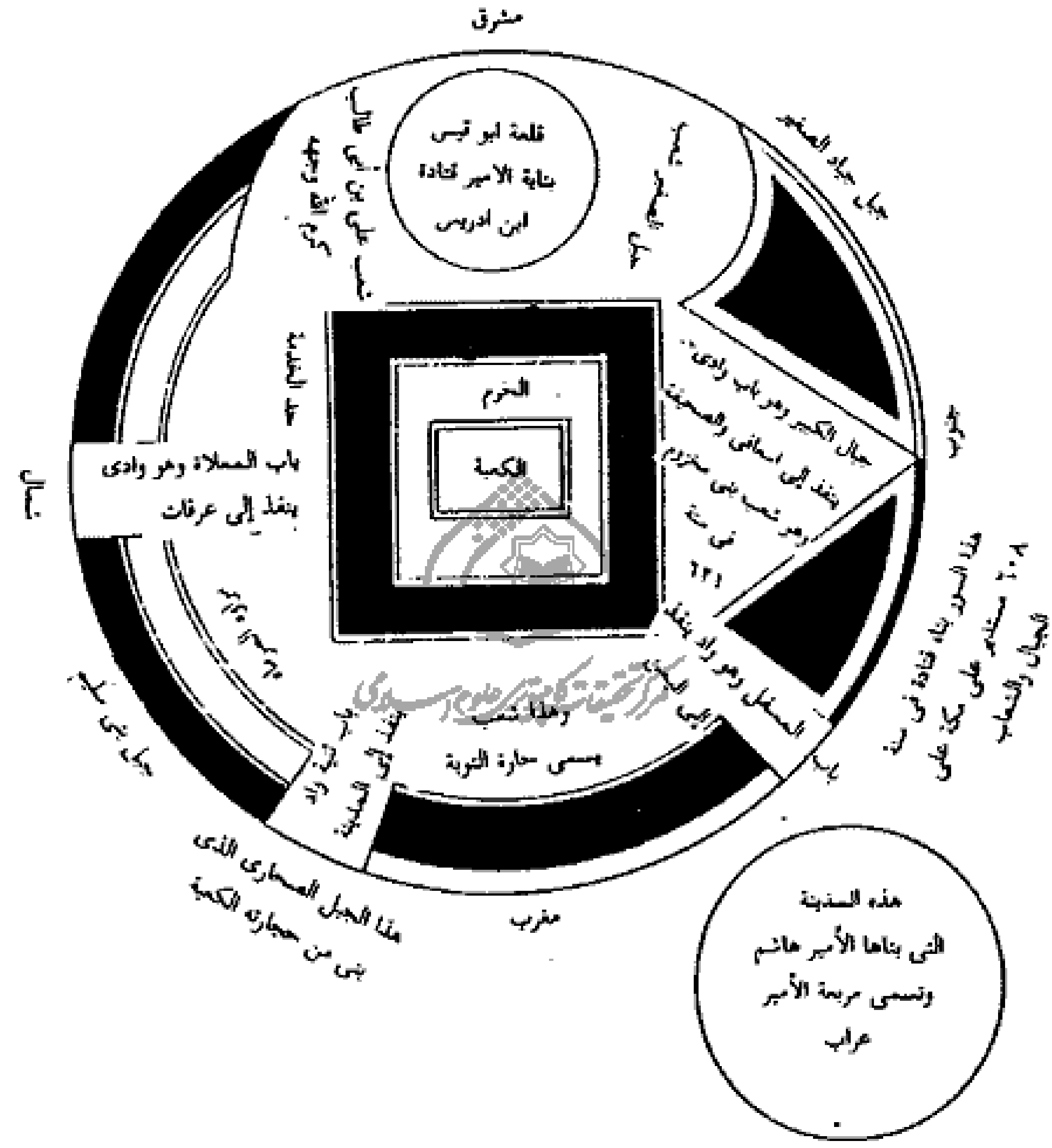
ويقال: إنه كان في قديم الأيام يجتمع بها من جميع الأزهار والفواكه والثمار والرياحين، ومن جملة ذلك أنه كان يزرع في زهران الزعفران، وكان يُرفع إلى بغداد كل عام بعد الخرج والمُؤن ثمانون ألف دينار، وقيل: ثمانية عشر ألف دينار، وهو الأصح، وجميع ذلك كان من الزرع والضرع ودخل الأشجار وجنى الثمار وسقي الأنهار ومراعي الإبل ودخل النخيل.

فلما دار الدهر نقص جميع ما ذكرناه لاختلاف النيات مع قلة الأمانات، وكل من بها يستعمل الطيب من الرجل والمرأة، وفي يد كل واحد من القوم سيف ولم يرموا العدة من أيديهم إلا في شهر الله الأصم رجب، عظَّم الله حرمته.

وبناء البلد بالحجر والجص وبناء الطبقة الثانية بالشكل، وهذا في زمان معاوية بن أبي سفيان، وصارت بعده في أيام أبي عبد الله محمد المهدى بالله أمير المؤمنين لما بني الحرم الشريف كل دار تشابه حصناً من الحصون لأجل إحكامها، وبنى الأمير هاشم مدينة ظاهر مكة ما بين درب الثنية والمَسْفَل تسمى مربعة الأمير، فكان يسكن بها جنده وخدمه وحشمه وبقى البلد عامراً، وخربت في دولة الأمير عيسى ابن فليتة وبقيت خراباً إلى دولة الأمير قتادة بن إدريس بن مطاعم بن عبد الكريم وجدّد فيها آثاراً ومواضع شتى وأراد أن يسكن فيه الغرباء وقريش ويسكن هو وجميع أهل الشرف مكة فمات على غفلة وبطل جميع العمل من طول الأمل.

وأدار الأمير قتادة بن إدريس على مكة سوراً من الحجر والطين، وذلك على رءوس الجبال وبطون الأودية، وركب عليه أربعة أبواب: باب درب المعلى ينفذ إلى عرفات، وباب درب الثنية ينفذ إلى مدينة الرسول ﷺ ويسمى باب جدة، وباب العمرة، وباب المَسْفَلَة ينفذ إلى اليمن، وباب الصغير ينفذ إلى الصفا المصافى والصحيفة وهو وادٍ ليس عليه طريق ـ على هذا الوضع والترتيب ـ والله تعالى أعلم بالصواب.

وصورة مكة شرفها الله تعالى على هذا الوضع والترتيب:



ذكر ولاة مكة من آل الحسن بن على بن ابى طالب كـــرم اللـــــه وجهــــــه

الأمير منصور بن مكثر بن عيس بن مكثر بن قاسم بن محمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبى هاشم بن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله ديباجة بنى هاشم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، والأمير حسن بن قتادة بن إدريس بن مطاعم بن عبد الكريم ابن عيسى بن الحسين بن سليمان بن على بن عبد الله بن موسى الجون، وهاهنا يرجع النسبين [كذا] إلى فرد نسب.

فهؤلاء الذين نزلوا مكة من أيام دولة الإمام عبد الله الخليفة أبى جعفر بن هارون الرشيد إلى سنة تسع عشرة وستمائة.

وفى هذا التاريخ ملكها السلطان الملك المسعود صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن محمد ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى بن مروان بن محمد.

ذكــر المعـامـلات

ونقد البلد ذهب مصرى وبها يضرب على عيار المصرى يسوى الدينار أربعة وعشرين علويا، ويحسب كل علوى أربعة دراهم كل درهم ستة فلوس، فلما رجعت الدولة لآل أيوب ضربوا الدراهم الكبار، ويقال: أول من ضرب هذا الدرهم الكبير بها المعز إسماعيل بن طغتكين فى اليمن، وأول من ضرب الدراهم الكبار بمكة الملك المسعود يوسف بن محمد على قوانين اليمن، يسوى الدينار المصرى أربعة دنانير ونصف ملكى يصح ثمانية عشر درهمًا يحسب كل أربعة [دراهم] دنانير دينار مكى وكل درهم ثلاث جوز كل جوزة ثمانية فلوس وكل فلس أربع دُرّس.

قال ابن المجاور: وكل ما كان يصح فى أول العهد بعلوى رجع ذلك الشيء بدرهم كبير.

والرطل مائة وثلاثون درهما وهو ست أواقٍ يحسب كل أوقية أحد وعشرون درهمًا وثلث وبه يُباع جميع الحوائج والعطر، ومن اليمن ثلاثمائة وعشرين درهمًا، وبه يُباع الثياب والسكر والعسل وجميع الحوائج الحلوة، ومن اللحم أربعمائة درهم، وبه يُباع اللحم والشحم والهريسة والمجبنة والألية، ومن السمن ثمانمائة درهم، وبه يُباع السمن والزيت والخل والشيرج، والذراع اليد فى أيام الموسم وأيام الصدقة وإذا كان بعد الموسم بمدة شهر كامل زيد فى الذراع، وفى سنة اثنتين وعشرين وستمائة زيد فى الذراع ورجع الذراع على ذراع مصر، وكانت صنجة مكة فى بغداد تصح المائة خمسة وتسعين دينارًا.

فلما تولى ملك الحجاز طغتكين الكاملي نقص المائة الدينار فصار الآن تصح المائة المكية ببغداد أربعة وتسعين ديناراً، وجميع ما يباع بمكة مقايضة كج بكج، ويباع الحنطة وسائر الحبوب بالصاع ويحسب الصاع أربعة أمداد وكل مد أربعة أرباع رطل، ويباع الأُدُم بالبيعة كل بيعة مائة مَنّ يصح الحمل بيعتين ونصف، ويحسب العوار ثلاثة أصناف: عوار الذي يكون في أوسط الطاق خدش بسكين في رقبة الطاق، والثاني الشعراني، وهو الذي يكون في الشعر، والمقفع يكون قد تقفع الكيمُخْت من على الجلد، وكذلك اليابس من الدهن والخفيف والأسود، والأديم الجيد وهو الثقيل النقي الطاهر عنابي الوجه مشتبك بعضه ببعض مبرأ من العيوب التي ذكرناها.

قال ابن المجاور: هذا في اليمن ونواحيها يكون يسوى كل مائة مَنّ بخوارزم على الصفة التي ذكرنا سبعين ديناراً.

ويدبغ الأديم في جميع إقليم اليمن والحجاز ونواحيها ويبيعونه طاقات بالعدد، وكذلك الحبشة وأعمالها، ويسميه العجم أديم خوش وفي كشك من أعمال الهند كذلك، وما تدبغ الأدم إلا بالقرظ، ويدبغ في مكة جلود الجمال والبقر والغزلان، وكان مسافرو خراسان يشترون جلود البغال الفحولة من رستاق الموصل وسواد إربل وتدبغ في مكة، وقد بطل جميع ذلك من سنة عشر وستمائة لظهور الكافر بخراسان والري.

والأديم الخفيف يصلح للعراق والشام لأنهم ينشرون الطاق حتى يجعلوه على الكيمخت، وما يريدون في خوارزم وخراسان إلا الأديم الثقيل لأنهم يبطنون به الخف، ويقال في الأثمان: يسوى الخوارزمي والفنا أربعة دوانيق ربكية وخفة عشرة دنانير وكذلك الروم.

ويقال: إن الصديق بمنزلة الرأس والعدو بمنزلة الرجل، ولأجل ذلك لبست أهل هذه النواحي أرجلهم أجود ما يكون من الملابس.

حدثني محمد بن رزق الله قال لي: هل ترون في خراسان كوكب سهيل؟ قلت: لا والله، قال: لهذا لم يصح لهم دباغة الأدم، قلت: وكيف ذاك؟ قال: كل إقليم يطلع عليه وفيه سهيل يصح فيه دباغة الأديم لأنه يحمره ويصيره إلى ما ترى من الليونة والنعومة.

من مكة إلى المدينة

على طريق بني عصبة وهم السرو، من مكة إلى بطن مر أربعة فراسخ وهو وادٍ طيب، وبنى فيه بعض أمراء مكة من الشرق قصراً، وهو الآن خراب، وإلى الهدى أربع فراسخ، وإلى برزة أربع فراسخ، وإلى شابة أربع فراسخ، وإلى المدينة قدر أربع فراسخ، وإلى هَجَر قدر سبع فراسخ، أرض عزة، وهي أرض بني سليم التي فتحها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه.

ذكر فتح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هذه الجبال

حدثني عيسى بن أبي البركات بن مظفر البغدادي بمكة قال: إني قرأت في بعض الكتب أنه كان لبني سليم في الجاهلية نحل عظيم فكان إذا جاءهم عدو دخّنوا في الأكوارات ــ يعني النحل ــ فكان يطير ويعلو الجو فيبان لناظره شبه غمامة

من كثرته، فإذا تعلّى انحدر ونزل على خيل العدو ونكد عليهم فعند ذلك تنهزم خيل العدو من بين أيديهم، وكان بنو سليم قد قهروا جميع أعدائهم بهذا الفن وبقوا على حالهم إلى أن أظهر الله عز وجل الإسلام وخرج النبي ﷺ ومن معه من الصحابة إلى هذه الأعمال، ففعلت بنو سليم ما تقدم ذكره، فلما صعد النحل الجو وانحدر على عساكر الإسلام نادى النبي ﷺ فقال: أين يعسوب الدين؟ فلم يجبه أحد، فقال: أين أمير النحل؟ فلم يجبه أحد، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فلما سمع علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ ذلك من لفظ النبي ﷺ جذب ذا الفقار[1] وحمل على النحل، فأدبرت النحل على أثرها راجعين على بني سليم ولدغتهم، فهربت بنو سليم بين أيدي النحل إلى رءوس الجبال وبطون الأودية وفتح الله جبال بني سليم على يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

فلما استتم الفتح واستقام النصر قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: يا رسول الله شبهت علي بن أبي طالب باليعسوب وهو النحلة؟ فقال النبي ﷺ: «المؤمن كالنحلة لا تأكل إلا طيبًا ولا يخرج منها إلا طيب» فمن ذلك الحين و [تلك] الواقعة لُقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بيعسوب الدين أمير النحل.

وإلى الآن يُجلب من هذه الجبال نحل، أي عسل يشترى منه الحاج والحجاز وبعض أهل اليمن.

(١) اسم سيف رسول الله ﷺ.

ذكــر وادى انظــر

قال ابن المجاور: رأيت في المنام ليلة السبت سادس شعبان سنة أربع وعشرين وستمائة كأن إنسانًا يقول لي: إن في أعمال المدينة يثرب وادٍ مسروق وجبال وشعاب لم يفهم أحد كيف دخوله، قلت له: ما يُسمي؟ قال: وادى انظر، قلت: وما المعنى فيه؟ قال: إنه سأل إنسانٌ شيخًا من أهل هذا الوادى فقال له: من أين الشيخ؟ فقال: من وادى انظر، قلت: وما المعنى في هذا الاسم؟ قال: لأنه وادٍ للإسلام به عز، قلت: ومن أين سكانه؟ قال: هم قوم من أولاد حام بن نوح، عليه السلام، وهم مع ذلك قوم لا عرب ولا عجم ولا هند ولا حبش ولا ترك ولا نبط بل لهم لغة منهم وفيهم، قلت: فكم يصح دوره؟ قال: فرسخين أو مسيرة يومين، ولا يزال الأمير قاسم بن المهنا بن جماز الحسيني يرعى إبله ونعمه فيه، وأرضه ذات مزارع وعيــون وأمن وسكون، وقد خلت من الناس، فسألت عن زمان فقلت: ما السبب في خلوها؟ قال: إن الله عز وجل قلب عاليها سافلها.

قال ابن المجاور: وفي هذه الأيام قتل الأمير قاسم بن المهنا بن جماز ابن عمه شيحة وتولى بعد قتله الأمير هاشم بن قاسم على ملك مكة، ومع ذلك يمكن أن يكون هذا الوادى في هذه الأودية والجبال والشعاب مسروق لم يعلمه أحد من الأعراب سوى سكانه، والعلم عند الله.

وإلى الخضراء من يثرب أربع فراسخ وبه أعين ونخيل ويسكن أهلها في أخدار الشعر إلى الآن وإلى عين النبي ﷺ أربع فراسخ وهي عين جارية وعليها نخيل وهي

أواخر الجبال والأودية وأول الفلاة والرمال، وإلى عمق أربع فراسخ وبه أعين ونخيل، وأحرق نخلها الأمير عز الدين أبو عزيز قتادة بن إدريس سنة خمس عشرة وستمائة.

وإلى نجد أربع فراسخ وتسمى مبرك وهى أرض قفر وبها بركة عظيمة خلقها الرحمن، ويقال: اغتسل بها ومن مائها النبى ﷺ فلا يزال بها الماء طول الدهر من بركات النبى ﷺ.

وتمر على ثلاثة جبال تسمى البرانين فإذا كنت طالبًا المدينة فاترك جبلين منها على يسارك، وإن كنت طالبًا مكة فاتركهما عن يمينك وامش بالقرب من الجبال لكى لا تضل، لأنه وادٍ فيه رمل أبيض يشابه دقيق السويق، ولا شك أنه لا ممر إليه إلا فى هذا المكان.

وإلى بئر على بن أبى طالب رضى الله عنه أربع فراسخ، وهى بئر عظيمة البناء يروى الحاج منها ومن حولها من الأعراب ما عندهم من المواشى وغيرهم.

وإلى قباء أربع فراسخ، وكانت مدينة قبل المدينة، وقيل: بُنيت فى زمن النبى ﷺ وفى مسجدها قبلتان: إحداهما إلى المشرق والثانية إلى الكعبة، لما أمر الله سبحانه النبى ﷺ أن يوجه وجهه نحو الكعبة [حيث] قال: ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾[1] ثم إلى المدينة فرسخ بين نخل باسقات شامخات.

---

(١) الآية: ١٤٤ من سورة البقرة.

ومن مكة إلى الطائف

من مكة إلى مِنًى فرسخ، وإلى المشعر الحرام فرسخ، وإلى جبل عرفات فرسخ، مبتدى وادى نعمان، وفيه أراك ونخل.

ألا هل لأيام المحصب أوبة وهل لى بهاتيك القباب حُلولُ
وهل لليالي الخيف بالخيف مرجعٌ وهل لمبيتٍ بالجمار سبيلُ
وهل لى بأعلام المُعَرّف وقفةٌ وبالسرح من وادى الأراك مقيلُ

وإلى برقة ثلاثة فراسخ، وبه قبر الأمير شكر بن أبى الفتوح الذى استفتح جدة، وإلى المرزة أربع فراسخ، والأصح ستة فراسخ، وإلى الحجر فرسخين [كذا] ويكون جوازك على جبل عالٍ يسمى عفر.

قال ابن المجاور: ولا شك أنه يسمى غزوان، وبه قال الشاعر:

إذا خفتُ يومًا من أمير عقوبةً فلى باللوى من رأس غزوان منزلُ

بناء الطائف

قرأت فى كتاب الفاكهى قال: حدثنى الحسين قال: حدثنى على بن الصباح قال: حدثنى ابن الكلبى، عن إياد بن نزار، ويقال: عن أبيه، عن أبى صالح، عن ابن عباس قال: كان بالنخع وثقيف رجلان من إياد بن نزار يقال لأحدهما: ثقيف، وهو قسى بن منبه ابن بنت أفصى بن دعمى بن إياد بن نزار، والآخر: النخع بن

عمرو بن طهمان بن عبد مناة بن يقدم بن أفصى بن دُعميّ بن إياد بن نزار، فخرجا ومعهما غُنيمات لهما فيها عنز لَبون وهما يشربان من لبنها، فعرض لهما مصدّق ملك من ملوك اليمن فأراد أن يأخذ من غنمهما الصدقة، فقالا: خذ منه أيتهن شئت، فقال: آخذ صاحبة اللبن، فقالوا: إنما معيشتنا ومعيشة هذا الجدى من لبنها، فأبى إلا أخذها فقتله أحدهما، فقال له صاحبه: لا يجمعنى وإياك بلد ولا تحوينا أرض، فإما أن تصعد وأنحدر، وإما أن تنحدر وأصعد، فقال النخع: أنا أصعد.

فأتى النخع بيشة فنزلها، ومضى ثقيف إلى وادى القرى فكان يأوى إلى عجوز يهودية يكمن عندها بالليل ويعمل بالنهار، فعند ذلك اتخذته ولداً واتخذها أماً، فلما حضرها الموت قالت: يا بنى، إذا أنا مت فخذ هذه الدنانير وهذه القضبان من الكرم فإذا نزلت بلداً فاغرس هذه القضبان فإنك لا تعدم منها رزقاً.

ففعل ثقيف ذلك ثم أقبل حتى نزل موضعاً قريباً من الطائف، فإذا هو بجارية حبشية على ظهرٍ ترعى مائة شاة لمولاها، فأسرّ طمعًا فيها وقال: أقتلها وآخذ الغنم، فأُلْقى فى نفسها ما أراد بها، فقالت له: يا هذا، كأنك طمعت نفسك أن تقتلنى وتأخذ غنمى؟ قال: نعم، قالت له: لقد عدلتَ[1] ولو قتلتنى وأخذت الغنم ما نجوتَ، فأنا جارية عامر بن الظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر، وهو سيد أهل الوادى وأنا أظنك غريباً خائفاً، قال: نعم، قالت: أفلا أدلك على خير مما أردت؟ قال: بلى.

(١) أى: ابتعدت عن الصواب.

قالت: إن مولاى إذا طلعت الشمس يأتى إلى هذه الصخرة فيضع ثيابه وقوسه وجفيرته عندها وينحدر فى هذا الوادى يقضى حاجته ويتوضأ من العين التى فى الوادى ثم يرجع ويأخذ ما ترك وينصرف إلى رحله ويأمر مناديا ينادى: ألا من أراد العيش والتجمع فليأت دار عامر بن الظرب، فيقبل جميع من أراد ذلك، فاكمن له تحت الصخرة وخذ ثوبه وقوسه وجفيرته فإذا رآك وقال: من أنت؟ فقل: غريب فأنزلنى، وخائف فأجرنى، وعَزَبٌ فزوجنى، إن كنت برا شريفا.

فقال: أنا أفعل جميع ما ذكرت، قال: فخرج عامر بن الظرب كعادته فاستخفى له ثقيف، فلما دخل الوادى فعل ثقيف ما أمرته به الجارية، فقال عامر بن الظرب: انطلق، فانطلق معه فانحدر إلى قومه، ونادى مناديه فأقبلت الناس يهرعون إليه، فأكلوا وتجمعوا، فقال لهم عامر: ألست سيدكم؟ قالوا: بلى! قال: وقد أجرتم من أجرتُ وأمنتم من آمنتُ وزوجتم من زوجتُ؟ قالوا: بلى! فقال عامر: هذا قسى بن منبه، فزوجه فى الحال ابنته، فولدت لثقيف عوف ودارس وسلامه، ثم تزوج بأختها بعدها فولدت له قاسم، وأقام بالطائف وغرس تلك القضبان من الكروم فنبتت وأطعمت، وبنى المكان فسمي الطائف لأنه طاف البلاد وسكن بها.

وقيل: ما سمى ثقيفًا [إلا] لأن أباه ما ثقف حتى ثقف عامرا حين آمنه وزوجه، وثقف الكرم حين غرسه فسمى ثقيفا.

حدثنا محمد بن أبى عمرو قال: حدثنا شعبان بن جريج عن مجاهد فى قوله عز وجل: ﴿لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم﴾(1) قيل:

(1) الآية: 31 من سورة الزخرف.

القريتان مكة والطائف، وأما الرجل فقيل: هو عتبة بن ربيعة، وكان ريحانة قريش يومئذ، وقالوا: بل هو مسعود بن معتب.

ذكر حصن الهجوم

حدثني أبو على أحمد بن على بن آدم اليزني قال: كان حصن الهجوم جبلا مدوراً في وسط قاع صفصف فجاء الأنباط، وهم من نسل اليونانيين النصارى، ويقال: الروم، وقد بقي من تذاكيرهم طي القنوات ومجارى الأعين وحجر الطواحين التى يطحن عليها القرظ لأجل دباغة الأدم.

قال الراوى: ودور كل حجر منها ثمانية أذرع فى الارتفاع إلى سبعة أذرع، وليس هذا من عمل العرب لأنه لا يقدر لهم فيه عمل ولا يستدير لهم فى أيديهم ولا يتصور فى خواطرهم بل هذا وما أشبهه من عمل الجبابرة وحكمة الأوائل.

وما ذكرت تلك الأحكام إلا لما نذكره من بناء الحصن وذلك أن الأنباط جاءوا وبنوا حول الجبل الحجر المنقوش المربع طول كل حجر منه سبعة أذرع فى عرض ثلاثة أذرع وما زال القوم فى بنائه إلى أن حاذى البناء ذروة الجبل، فلما استتم البناء به على حسب المراد بما أراد الفكر بنوا بعده الأسوار والأبراج، وهو على وضع ما تقدم ذكره، وركب عليه باب واحد وحفر فى داخل القلعة بئر عظيم عميق فظهر فى البئر مع تمام الحصن الوافر ماء يحاكى الشهد فى حلاوته والماورد فى رائحته وعين الحياة فى صفائه.

فلما دار الدهر بالسنين والشهور ارتدم ما بين الأمة من التقارب والاتصال وتقاربت بهم الآجال وتباعدت عنهم الأحوال إلى أن أظهر الله عز وجل الإسلام ففتحها النبي ﷺ بالسيف، وبقي الحصن على حاله إلى أن وصل ملك الحجاز إلى الأمير عز الدين أبي عزيز قتادة بن إدريس فأمر بهدم الحصن فهُدم خوف أن لا يعصيه فيه أحد من الأعراب، وبقي الحصن خراباً إلى الآن، ويسمى عند أهله حصن الغراب.

ذكـــر الوهـــط

حدثنا معبد بن عبد الرحمن المخزومي قال: حدثنا شعيب عن عمرو بن دينار قال: كتب عمرو بن العاص في وصيته وذلك في الوهط وجعلها صدقة لا تُباع ولا توهب ولا تورث: وهي للأكبر من أولادي والمتبع فيها عهدي وأمري، فإن لم يقم بعهدي ولا أمري فليس له ولاء، يعني بذلك الوهط، حتى يرثه الله تعالى قائماً على أصوله.

حدثنا محمد بن منصور قال: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار قال: عرش عمرو بن العاص في الوهط مائة ألف عود كل عود بدرهم.

والوهط قرية من أعمال الطائف بينهما ثلاثة أميال فكان كل فاكهة الطائف ومكة من ذلك الوهط.

حدثنا محمد بن موسى القطان قال: حدثنا محمد بن الحجاج الثقفي قال:

حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد عن عطاء عن ابن عباس قال: كان الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم [كما حكى القرآن الكريم]: ﴿ **ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم** ﴾[1] قال: فرفع الله تعالى له موضعها إلى الطائف في موضعها.

قال حدثني محمد بن فارس القرشي قال لي: ما بقي في الوهط من الشجر سوى شجرة توت وهي إلى الآن وقف عليهم.

ذكر سليمان بن عبد الملك
ابن مروان وخروجه إلى الطائف

حدثني محمد بن صالح البلخي قال: حدثنا محمد بن إبراهيم قال: كنا مع عبد العزيز بن أبي رواد في المسجد الحرام فأصابنا مطر شديد وريح شديدة فقال عبد العزيز: خرج سليمان بن عبد الملك إلى الطائف فأصابهم نحو من هذا يبعض الطريق فهالهم ذلك وخافوا فأرسل إلى عمر بن عبد العزيز، وكانوا إذا خافوا شيئاً أرسلوا إلى عمر، فقال له سليمان بن عبد الملك: ألا ترى ما نحن فيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هذا صوت رحمته، فكيف بصوت عذابه!.

وخرج سليمان إلى الطائف، قال: فلما قدم إليها لقيه أبو زهير، أحد بني ثقيف، فقال: يا أمير المؤمنين اجعل منزلك عندي، فقال: إني أخاف من الصداع،

(١) الآية: ٣٧ من سورة إبراهيم.

فقال: كلا، إن الله قد رزقني خيراً كثيراً، قال: فنزل ورمى بنفسه على البطحاء فقيل له: الوطاء، فقال: لا، البطحاء أحب إليّ، فلزمه بطنه فأُتي بخمس رمانات فأكلهن، وأتوه بخمس أخر فأكلهن، ثم قال: أعندكم غيرها؟ قالوا: نعم، فجعلوا يأتون بخمسة خمسة حتى أكل سبعين رمانة، ثم أُتي بخروف وست دجاجات فأكلهن، وآتوه نصيباً من الزبيب يكون فيه قدر مكوك على نطع فأكله جميعاً ثم نام، وانتبه فدعا بالغداء فأكل مع أصحابه.

فلما فرغ دعا بالمناديل فكان فيها قلة من كثرة الناس فلم يكن عندهم من المناديل ما يسعهم، فقال: كيف الحيلة يا أبا زهير؟ فقال أبو زهير: أنا أحتال، فأمر بالصرح والخزامى وما أشبههما من الشجر فأُتي له بما يمسح به سليمان يده، ثم شمه فقال: يا أبا زهير دعنا وهذا الشجر وخذ هذه المناديل فأعطها العامة، ثم قال سليمان: يا أبا زهير هذا الشجر الذي ينبت عندكم أشجر الكافور هو؟ قال: لا، فأخبره بخبره فأعجب سليمان، وقد قال امرؤ القيس الكندي:

كأن المدام وصوب الغمام ... وريح الخُزامى ونشر القُطُرْ
يُعَلُّ به برد أنيابها ... إذا طرّب الطائر المُستَحِرْ

فلما فرغ قال أبو زهير: افتحوا الأبواب، ففُتحت ودخل سليمان مع الناس فأصابوا بستاناً ذات أكمام وأثمام من الخير والفواكه فأصابوا الفاكهة، فأقام سليمان يومه ومن الغد ثم قال لعمر: ألا ترى أنّا قد أضرينا بهذا الرجل؟ فرحل ونظر إلى الوادي وخضرته مع طيب رائحته فقال: لله در قيس، أي وادٍ نزل! ونظر إلى عناقيد عنب يظنها الحِرار فقال له عمر: يا أمير المؤمنين، هذه عناقيد العنب، فأقام سبعاً ثم رجع إلى مكة.

ووصف بعضهم النارنج فأنشأ يقول:

وروضـــةٍ يتـــركني زهرُها		بالحسن والنضرة مبهوتا
أنعت منه حسن نارنجها		ولم يكن من قبل منعوتا
وصحتُ في الناس: ألا من يرى		زبرجدًا يحمل ياقوتا

وقال في السوسن:

سُقْيًا لأرض إذا ما نمتُ ينبهني		قبل الهجوع بها صوتُ النواقيسِ
كأن سوسنها في كل ساقية		على الميادين أذنابُ الطواويسِ

وقال في المنثور:

ومنثور حططت إليه رحلي		وقد طلعت لنا شمس النهار
كشبه دراهم من كل فن		يخالطه كبار مع صغار

وقال في الياسمين:

وياسمين آتاك في طبقه		قد أسكر الناس (..) من عبقه
قد نفض العاشقون ما صنع الـ		ـبين بألوانهم على ورقه

وقال في اللينوفر:

ولازورديةٍ تاهت بزرقتها		بين الرياض على زرق اليواقيتِ
كأنها فوق طاقات لها صُبغت		ذبائل النار في أطراف كبريتِ

وقال في النرجس:

وأحداق مسهدة عوانيَ		سرقن السحر من حدق الغواني
على قضب الزبرجد شاخصات		حوين صفات نور الأقحوانِ
بأحداق من الكافور صيغتْ		مكحلة الجفون بزعفرانِ

صفة الطائف

الطائف سامية باردة الماء صحيحة الهوى كثيرة الفواكه، زراعتهم الحنطة اللقمية التى تشابه اللؤلؤ، وأهلها من ثقيف وقريش على زى أهل مكة فى الأكل واللبس، وأهلها يرثون البنت عند الموت ولم تورث بنت أحدهم الدراهم، وكذلك بنو هذيل ومضر وبجيلة وجميع أهل السراة وجميع العرب الذين هم سكان بأرض الحجاز وما حول مكة.

وللقوم عصبية عظيمة، إذا مات بها أحد لم يحمل جنازته إلا الشبان ومع ذلك يقولون: سلم سلمك الله، هذا ما وعد الله نعم القاضى، وهم يتداولون النعش إلى الجبانة، وهم الذين يحفرون القبر.

حدثنا الزبير بن أبى بكر قال: حدثنا عمر بن أبى بكر الرملى قال: أخبرنى بعض أهل العلم من قريش قال: ما استنّ للنوائح واحرباه إلا من بعد موت حرب بن أمية فناحت نوائحه واحرباه، فجعلن النوائح للناس كلهم يقلن: واحرباه من ذلك العهد.

وبه قبر عبد الله بن العباس رضى الله عنهما.

وجميع عملهم دباغ الأدم ويدبغ بها الأديم المليح الثقيل المعروف بها وهو الذى يصلح لخوارزم، وكل نبق يغرس فى هذه البلاد يطلع مكتسبى [كذا] وبه يطحن السدر وهو سويق النبق من نبق العراق ليس له شوك وكذلك شجرة فى زبيد مما يلى القُرْتب.

من الطائف إلى جبل بدر

من الطائف إلى المعدى ستة فراسخ وبه تنحت قدور البِرَم التي يفخر حجرُها على سائر الأحجار.

حدثني شيخ قدوري بهذا قال: إن الحجر الأملس لا يعمل فيه الحديد إلا الفولاذ.

وإلى خبت عنتر خمس فراسخ وهو عنتر بن زبيبة العبسى، وهي أرض ذات شعاب ومكسرات وبها بئر عذب فرات، وإلى حدان ستة فراسخ، وإلى بحرى خمس فراسخ، وبه تزرع الحنطة فى العام مرتين، بعد كل ستة أشهر مرة، وهذا خلاف كل العالم فى الزروع.

وإلى الدرب فرسخين [كذا] وإلى أرض ليلى العامرية وقيس بن الملوح، ويقال: إن ليلي العامرية وقيس بن الملوح كانوا فى هذه الأرض وماتوا بها، وفي قبيلتها يقول الشاعر:

ألا ليت أمي بالمنا عامرية   إذا صابها ضيم دعت يالعامر

وإلى نوا فرسخ، أول معاملة بجيلة، وهم الذين يسمون السرو.

ذكـــر الســـرو

فأما السرو فإنهم قبائل وفخوذ من العرب ليس يحكم عليهم سلطان بل مشائخ منهم وفيهم، وهم بطون متفرقون، فإذا خرج أحدهم إلى سفر أتت المرأة الى عند المخلف، أى عشيق تلك المرأة، يحاضنها إلى أن يرجع زوجها، فإذا قرب المسافر من منزله نادى بأعلى صوته: أيها المخلف اللجوج، قد حان وقت الخروج، ويدخل المسكن غفلة فإن وجده فى المسكن قتله، وإن كان قد خرج فقد عفا الله عما سلف.

وسألت رجلا منهم فى مكة فقلت له: أيها الرجل والنزيل ماذا يصنع المخلف؟ فردّ أسوأ الجواب فقال: يسحق الخبز ويمحق المرأة.

وغاية حج القوم عمرة أول رجب وقد ضمن لهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ تلك العمرة بحجة كاملة مقبولة[1] فإذا دخلوا مكة ملأوها خزا من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيب وما يشابه ذلك، ولذلك يقول أهل مكة: حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب، والسرو أمنا نكسب منهم القوت.

يقال: إن معامله يوازى مائتى قرية أو أكثر، ومن جملة القرى المائتين المسلم

(١) لم نجد ما يؤكد صحة ذلك فيما بين أيدينا من مراجع، والثابت فى ذلك فى عمرة رمضان لقوله ﷺ: «... ومن أدى فيه نافلة كان كمن أدى فريضة فيما سواه» وذلك من ناحية الأجر والثواب فقط، لأن عمرة رمضان لا تسقط فريضة الحج عن صاحبها أصلا، والله أعلم.

وعقدة والفرع وحدا والراهن وسحموم ونزيف، وبها وقعة أمير المؤمنين على بن أبي طالب مع الأفعى فقتله.

وبه جبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ومنهور والفروات والشعبين واللقاع وحرف والرجعين وهى قرى جماعة، وبهذه الأعمال كانت وقعة بنى تميم وبكر ابن وائل وفى حرب منها هلك لقيط بن زرارة أخو حاجب بن زرارة وحسن.

وإلى الفرداء ستة فراسخ، والى الملحاء ستة فراسخ، وهو جبل عظيم والله أعلم.

ذكر جبل الملحاء

حدثنى أبو على أحمد بن محمد بن آدم اليزنى قال: لما ملك تبع جزيرة اليمن وأرض حضرموت وبلاد الأحقاف والحجاز وأراد أن يخرج إلى ناحية العراق فجاء إلى هذا الجبل وأراد أن يحفر فيه سرباً عظيماً فجهز تحت الأرض مسيرة ثلاثة فراسخ أو أكثر من ذلك مستفلا منحدراً، فلما حفر هذا القدر أمر أن يحفر فى أواخر السرب بلداً عظيماً، والأصح سوقًا عظيمًا، بدكاكين متقابلة مصطفة على خيط واحد ما مقداره ألف دكان ونقر من وراء الدكاكين الدور والأملاك.

فلما تم عمله ملأ كل دكان من الدكاكين صنفًا من الأمتعة والأطعمة ومن الحوائج والعقاقير وما يحتاج إليه من ثقيل وخفيف ذخيرة له، وحفر فى وسط السوق بئراً واسعًا عميقاً[1] فى الطول والعرض، وجمع جميع الأموال التى كانت معه

(١) هكذا فى الأصول، وقد ورد لفظ البئر فى القرآن الكريم بصيغة التأنيث فى قوله تعالى: ﴿ وبئر معطلة ﴾ [الحج: ٤٥] والله تعالى أعلم.

وكنزها في البئر وجعل الذهب بيان لأنه قد نصب على خرزة البئر عوداً معرضاً وفيه طلسم إذا أنزل إنسان رجله على العود المعارض دار العود، وفي العود سيف مصنوع قاطع يضرب الإنسان نصفين يرميه في البئر.

قال ابن المجاور: وما أظن السيف أصله إلا من الصاعقة التي ضربها يافث بن نوح، عليه السلام.

ذكر سيوف الصواعق

حدثني عيسى بن أبي البركات بن مظفر البغدادي قال: أما سيوف الصواعق فثلاثة، وقيل: سبعة، وقال آخرون: بل أربعة عشر سيفًا، ضُربت في أيام يافث بن نوح، عليه السلام، وذلك أنه لما مات نوح، عليه السلام، وقع الخُلف بين أولاده في طلب الرئاسة فتفرقوا، فطلب يافث المغرب وبنى بها مدينة جابلقاه، وطلب أخوه حام المشرق وبنى بها مدينة جابرسا، وأما ما كان من أمر يافث فإنه جمع الأموال أموال الربع المسكون وعباها خزين وعمل عليها طلسما وركب السيوف على الطلسمات، وبقيت الكنوز على حالها إلى أيام ذي القرنين، فحينئذ أبطل الخضر عمل الطلسمات وأخذ ذو القرنين تلك الكنوز.

قال ابن المجاور: وإحدى تلك السيوف في جبل الملحاء في البئر التي فيها الكنز الذي أودعه تُبع.

ويقال: إنه يسبك من الصاعقة وزن حبة خردل على الفولاذ ويضرب منه سيف

لم يحمل لغمد بل يوضع في جراب خزف، وقيل: إذا وقعت الصاعقة لم تسكن إلا إذا أقلت عليها الخل وإنها إذا وصلت الماء وقفت وإذا لم يفلت الخل عليه فإنه يخرق تخوم الأرض، والأصل فيه أنه عمود من حديد جهنم، نعوذ بالله منها.

فصل: قال الله عز وجل: ﴿**لابثين فيها أحقابا**﴾[1] قال بعضهم: الحُقب أربعة آلاف سنة، والسنة أربعة عشر ألف شهر، والشهر أربعة آلاف يوم، واليوم أربعة آلاف ساعة، والساعة مقدار سبعين ألف سنة من سني الدنيا.

قال ابن سلام: مساكين أهلها، نسأل الله أن يعيذنا من شرها، ويؤخذ قياس نارها وحديدها من قياس أيامها وساعاتها.

ويقال: إن السيوف المذكورة أربعة أصناف:

الصنعاني: يُضرب في صنعاء، متقدم قصير، لأنه سيف الرجالة، يقطع اليابس سوى الرطب، وعلامته أن يكون في وسطه مرازب، ويقال: مرازب واحد، وكثير ما توجد هذه السيوف في جبال اليمن عند العرب.

والكرماني: قديم ضُرب في أيام دولة ملوك العجم بكرمان، وهو قضيب مادّ، ما بين القصير والطويل، وأصل هذه السيوف من الفولاذ، وبلد هراة مخصوص به.

وقيل: بل كان عندهم معدن يستخرج منه الحديد، وغاية ما توجد هذه السيوف عند الأكراد الشارونية والبلوج والكوشان والأوغان والسرهدية من أعمال غزنة.

والإفرنجي: سيف طويل ماد بالمرة وما يطولونه إلا لأجل الفرسان، وأصله من

(١) الآية: ٢٣ من سورة النبأ.

تكاسير نعال الخيل ويسقى من نداوة زرع بلادهم، لين بالمرة ويقطع في اللين دون اليابس ولربما قطع اللحم في البدن وسلم العظم، وغاية ما تجلب هذه السيوف المعروفة عندهم في علب الخشب، وعلامته أن يكون به كف إنسان فهو الجيد، ويقال: إن الذى نقش على سيوفه ذلك ضرب أربعمائة سيف لم يضرب مثلها في الربع المسكون.

فلما رأى ملك الروم هذه الصنعة الشريفة أمر بقطع يده اليمنى، فلما فعل به ذلك ارتحل من المدينة التي كان يسكنها ونزل بمدينة أخرى فضرب بيده اليسرى أربعمائة سيف آخر ونقش عليها الكفوف، فما جرب سيف من تلك السيوف إلا تراه وهو حديد أبيض وفي وسطه مرازب.

والهندى: أصناف شتى، فمن جملتها الباخرى، يضرب في السند وأصله من حديد وفولاذ هراة وعلامته أخضر اللون كأنه السلق، وشيء منه أحمر يشبه لون النار يرفع الدرهم ويبرى مرسغ الجمل، وصنف يأتي من الروهينيا يضرب في بعض الأقاليم يتلوى وهو قضيب ماد فيه جوهر شبه الغبار وهو ما بين ذلك قوامًا، والصنف الثالث فيه أهلة يضرب في خور فوفل ويقال: بحار يديها سيوف طوال عراض بالمرة ذات جوهر عالٍ لا غليظ ولا دقيق إلا وسط وهو يقطع في اللين لا غير، ومنه فلالك الشاهي يضرب في الكوز، ويقال في مرهب سيوف طوال عراض بالمرة، الواحد خفيف مرهف وعلامته أن يكون جوهره أربع أصابع وهو غليظ خشن كخشونة خضرة الكراث اول ما ينبت قد اشتبك بعضه في بعض شبه ثعابين ملتفين، وأربع اصابع منه شبه جمع الذر[1] على الشيء حلو، وبيان الجوهر في

(١) صغار النمل.

أرض السيف شبه فضة شُبكت مع الحديد، يبان جوهره أبيض صافٍ والأرض منه زرقاء سماوي.

ويقال: إنه أهدى إلى الملك قطب الدين أيبك الأبثل من هذه السيوف سبعين بندا إلى سبعين سلسلة.

ويرى فيها مائية ونداوة شبه ماء الزلال، إذا رفعته انحدر وإذا حططته صعد، يابس يقطع فيما يرطب، وبه يضرب أعناق الجواميس قدّام البيوت في يوم عيد لهم، وخاصيته إذا معص فؤاد إنسان يغسل سيفًا من هذه السيوف ويشرب ماءه يزول عنه ما يشتكي من المعص.

وأما السيوف في العالم فكثيرة الأصناف وتضرب في كل بلد وإقليم إلا هذه الأربعة الأصناف الذين ارتفعوا دون غيرهم وعرفوا من بين جنسهم ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ[1].

ولنرجع إلى الحديث الأول

فصار أهل هذا الزمان يدخلون كبب غزل الوبر ويصطحبون معهم سراجًا ومقدحة وخطافًا وفتل وبر يشد خيط الوبر في رأس باب الغار، وكلما مشى أحدهم نشر الغزل والخطاف، فإذا وصلوا الى الدكاكين رأوا فيها من جميع الأمتعة والأقمشة وقد تهرت من طول المدى والحديد قد علاه الصدأ، والصفر قد تزنجر، فيأخذ جميع ما يرى له فيه رمق، ويجد بعض القوم ذهبا وفضة ودراهم.

(١) هكذا في الأصل الخطاب للعاقل.

وإذا رجع القوم لا يزالون يكببون غزل الوبر وهم راجعون إلى فم السرب، فذلك العمل دأب القوم.

ويقال: إن بها ثلاث طرق إحداها تنفذ إلى سوق عكاظ، والثانية إلى جبل الملحاء، والثالثة تنفذ إلى برية فيد، وهى أقربهن مسافة.

حدثني أبو على بن آدم اليزنى قال: كثير من الرعاة ممن يحمل الذئب على غنمه فيقوم الراعي يطارد الذئب يريد يقتله فيقع على المطلب، وهو طريق تنفذ إلى وسط البئر التي تقدم ذكرها، وطريق وسطى وهى التي بجبل الملحاء، والبعيدة التي تلي سوق عكاظ، والمكان الى الآن باقٍ ينزله من أراد على ما تقدم ذكره.

وإلى أبيدة فرسخ وهى قرية حصينة فى واد نزه، وإلى العقيق ستة فراسخ، وهو بلد يدبغ فيه الأدم ومنه يجلب القرض إلى مكة، وبها الأمير أبو الحسن بن المعلم يقول:

قل يا رفيقُ .. المستهام .. متى يفيقُ المستهامْ
هذى المنازل والعقيقُ فأين ليلى والخيامْ؟

وقال أيضا:

قف بالخيام المشرفات على الحِما وامزج دموعك في مغانيها دما
وإذا مررتَ على العذيب فقل له هل شربة تروى الصدى من الظما
إني ندمتُ على الذين ترحلوا يوم الغوير وحُق لي أن أندما
فوددتُ لو سمحوا عليّ بعودة يرا بها الطرف القريح من العما
يا عينُ لا يذهب بناظرك العما فلربما دنت الديار وربما
إن بات جسمي في سهام فإن لي قلبًا يتيمًا بالعقيق مُتَيّما

وإلى تبالة ثمان فراسخ، وإلى الجبل ثمان فراسخ، وهو جبل بنى بدر وجميع من بها يهود، والحصن حصن مكين فى طرف جبل عالٍ، والله أعلم.

ذكــر نهــر الســبت

قالت أهل الذمة: إنه فى أرض التيه، وحدثنى يهودى صائغ بعدن قال: إن نهر السبت فى أرض يقال لها: صيون والأصح أنه فى الحجاز ظهر، وهو نهر رمل سيال يجرى من ليلة الجمعة إلى غداة يوم السبت لم يقدر الإنسان يعبره من شدة جريانه فى ذلك اليوم ويسكن باقى الأسبوع، ووراء هذا النهر من اليهود مائة ألف ألف رجل وامرأة وهم زائدون على العدّ خارجون عن الحد، والقوم عرب يعقدون القاف الألف فى لغتهم، وفى جملة القوم أولاد موسى بن عمران عليه السلام، ويقال: إنما حصلوا هؤلاء اليهود فى هذه الأرض والأعمال إلا من غزوة بختنصر البابلى لليهود بأرض الشام وديار مصر والأصح لإظهار الله عز وجل محمداً ﷺ فخرجوا هاربين من خيبر ووادى القرى وسكنوا هذه الأراضى، وإلى الآن إذا تاه بعض الحجاج بطريق مكة ووصل إلى القوم فبعضهم يقتله وآخرون يقبلونه ويردونه على أحسن حال.

فصل: مما ذكره الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازى فى كتاب معرفة الأديان: مسألة شرعية، قال:

إن لليهود يومًا إذا عمل فيه إنسان شغلا حل دمه، فإن لم يعمل فيه الشغل حل دمه، قلنا: وما ذاك ؟ قال: إذا وُلد لليهودى طفل ففى سابع يوم الطفل يطهر ـ أى

يختن ـ فإذا اتفق سابع الطفل يوم السبت وخُتِن الطفل حل دمه لكسر ستته، وإن لم يُختن حل سفك دم والده لمخالفة والده الشرع، وذلك شرعهم لأنه قال بترك الأوامر.

فصل: قال بعض النصارى: إن الإسلام عجيب! قلت: وما رأيت من العجب؟ قال: إن تنصر الإنسان حل قتله يعنى لامتناعه(١) فى دخول الدين الحنيفى وإن أسلم قطع ـ أى ختن ـ فجريان الدم فى الحالتين حاصل، وكذلك اليهودى قتله فى الحالتين حاصل على الخبر الأول، والله أعلم.

ذكر شهور اليهود

قمرية وأوسط المسير تشرى ومرحشون وكسليو وطيبث وشفط وآذار ونيسن وإير وسيون وتمُز وأوب وإيلل(١)، ويعمل على هذه الشهور جميع يهود الربع المسكون.

ما الفسح؟ فى أعياد اليهود خرج فيه بنو إسرائيل من مصر هاربين من بعد

(١) الصواب أن يقال: لارتداده عن الدين الحنيفى، لأن المرتد هو الذى يحل دمه، وقد كان مسلما، فكيف يمتنع عن دخول شيء كان فيه أصلا.
أما النصارى واليهود الباقون على ديانتهم فهم أهل كتاب، ولهم أحكامهم الخاصة بهم، وليس منها سفك دمهم لامتناعهم عن الدخول فى الإسلام، والله تعالى أعلم.

(٢) أسماء الشهور هنا قريبة من أسماء الشهور المعروفة لنا الآن، مثل شباط لفبراير، ونيسان لأبريل، وتموز ليولية، وآب لأغسطس، وأيلول لسبتمبر، وهكذا ...

أن تخلصوا من العبودية وقربوا القرابين كما مُثّل لهم، وهى سبعة أيام تسمى الفطير لا يجوز لهم أكل اللحم ولا إمساكه فى الرحل، وفى اليوم الآخر منها غرق فرعون فى بحر سوف، وهو القلزم ويعرف هذا اليوم بالكبس[1].

ما العنصرة؟ هو السادس من سيون يسمى عشر مشتق من الاجتماع وهو حج من الخجوج لإدراك الغلال.

ما الكفور؟ هو اليوم العاشر من تشرى وهذا ربما يسمى العاشوراء، وأما الكفور فهو من تكفير الذنوب، وهذا اليوم فقط هو الذى فُرض على اليهود صومه والقتل على من لا يصومه، ومدة الصوم خمس وعشرون ساعة يبتدى بها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع ويختم بمضى ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر، ولا يجوز أن يقع الكفور فى يوم الأحد ولا فى يوم الثلاثاء أو فى يوم الجمعة.

ما المظلة؟ هى بلغتهم مصلى وهى سبعة أيام، أولها الخامس عشر من تشرى، وكلها أعياد يجلسون فيها تحت الظلال من الأغصان والخلاف والعنب والزيتون، وقد أمروا أن يسكنوا فيها تذكاراً لإظلال الله إياهم فى أرض التيه بالغمام.

ما العربا؟ تفسيره ما الخلاف؟ وهو آخر عيد المصلى أعنى بذلك الحادى والعشرين من تشرى، وهو أيضا حج لهم.

ما التبريك؟ هو عيد مشتق من البركة، وهو بعد عرابا بيومين.

ما الحنكة؟ هو عيد مشتق الاسم من التنظيف، وهو ثمانية أيام، أولها الخامس والعشرين من كسليو، يُسرجون فيها على أبواب دورهم فى الليلة الأولى سراجًا

---

(١) ويعرف الآن بالبحر الأحمر، والقلزم هو الاسم القديم لمدينة السويس الحالية.

واحداً، وفي الثانية اثنين، إلى أن تتم الثمانية الأيام ثمانية سرج، وذلك تذكار لهم من أصغر ثمانية إخوة قتل بعض ملوك اليونان، فإنه كان قد تغلب عليهم، كان يفترع من عذاريهم ويطوف ببيت المقدس على بغلة.

ما البوري؟ هو اسم مشق من الاقتراع والفأل، وهو الرابع والعشرين من آذار يتلوه نيسن، ويعرف أيضا بعيد المجلة، أي مغلا، وسببه أن هيمون وزير احشويرش أي أبرويز بن أنوشروان كان يكايدهم أيام كانوا ببابل فدبر عليهم واستأذن في صلبهم فانقلب الأمر عليه في هذا اليوم فصُلب، ولهذا يعملون تماثيل مصلوبة ويحرقونها ويفرحون بذلك، ولليهود في شهره صيام ونوافل وأسبابها أمور حدثت فحرّمته وأوجبت الامتناع عن الطعام.

وكذلك إذا حاضت المرأة عندهم يسكنونها وحدها وتعزل لها آنية تأكل فيها وتشرب منها ولا يقربها أحد حتى تخرج من طمثها، أي حيضها، فإذا خرجت منه غدت إلى الحمام فغسلت وامتشطت وتجيء بعد ذلك إلى بيت بئر تسمى طومي.

قال ابن المجاور: ولهم ببغداد بئر تسمى بئر طومي في محلة خرابة بين خرزة، وهو بئر مدرج، وقد عرض في وسط البئر عود على خرزة البئر، وقد ضرب في الخشبة سلسلة طويلة إلى أن يصل إلى آخر السلسلة ثم إلى قرار الماء، فتخلع المرأة ما عليها من الأثواب وتلزم السلسلة، ولا تزال تسقط في الماء، أي تغوص، وتنبع إلى أن تقول لها امرأة من أعلى البئر: نظفتِ، أي تطهرت، فإذا سمعت المرأة ذلك علمت أنها طهرت من نجس الحيض، فحينئذ تلبس جميع ثيابها وجميع اليهوديات يلقينها حين تطهر المرأة.

ويقال في الأمثال: شاور المسلمين، ونم عند النصارى، وتعشّ عند اليهود، ويقال: إن للمسلم فرجه، وللنصراني ماله، وللمجوسي رأاسته، ولليهودي بطنه.

من الطائف إلى صعدة

حدثني محمد بن زنكل بن الحسين الكرماني قال: إن من الطائف إلى المعدن أربع فراسخ، وإلى الران ثمان فراسخ، وإلى محرى ثمان فراسخ، وإلى الدروب أربع فراسخ، وإلى يافع ثمان فراسخ، وإلى عدا ثمان فراسخ، وإلى ران كيسه أربع فراسخ، وهو جبل ذو طول وعرض وعليه مجاز الخلق، وإلى صفي أربع فراسخ، وهو سوق يقوم يوم الجمعة، وإلى خفن أربع فراسخ، وإلى مدر أربع فراسخ، وإلى بلاد بني قرن أربع فراسخ، وإلى بلاد بني عبد الدار عشرون فرسخاً، وإلى ذهبان سبع فراسخ.

صفة هذه الأعمال

وحدثني الراوي قال: جميع هذه الأعمال قرى متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر كل قرية منها مقيمة بأهلها، كل فخذ من فخوذ العرب وبطن من بطون البدو في قرية، ومن جاورهم لا يشاركهم في نزلها وسكنها أحد سواهم، وقد بُني في كل قرية قصر من حجر وجص وكل من هؤلاء ساكن في القرية له مخزن في القصر يخزن في المخزن جميع ما يكون له من حوزه وملكه وما يؤخذ منه إلا قوت يوم بيوم، ويكون أهل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيعه.

ويحكم على كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن، ذو عقل وفطنة، فإذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشيره عليهم ويحكمه فيهم.

وجميع من في هـذه الأعمال لم يحكم عليــهم سلطان ولا يؤدون خراجًا ولا يسلمون قطعة إلا كل واحد منهم مع هوى نفسه، فلهذا لا يزال القتال دأبهم، ويتغلب بعضهم على مال بعض ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو وهم طول الدهر على هذا الفن، وجميع زرعهم الحنطة والشعير وشجرهم الكروم والرمان واللوز، ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيرات وأكلهم السمن والعسل، وهم في دعة الله وأمانه، وهم فخوذ يرجعون إلى قحطان وغيرهم من الأنساب.

وامـــا ذهبـــان

فهي أم القرى بلاد عز، ويقال: إن دور أعمالها أربعون فرسخًا، وهي نجد اليمن، والأصح أطراف أعمال نجد اليمن من شرقي تهامة، وهي قليلة الجبال مستوية البقاع.

ونَجْدُ اليمن غير نجد الحجاز، غير أن جنوب نجد الحجاز يتصل بشمال نجد اليمن.

وإلى بلاد قحطان أربع فراسخ، وإلى راحة بني شريف فرسخان وادٍ فيه وضعت مدينة البصرة ويسمى درب العقيق، وإلى صعدة عشرون فرسخًا وهي مدينة ذات عمارة وأرض نزه ودرب أمن.

قال ابن المجاور: وفي هذا الطريق من الأمم والبلاد والمدن والقرى ما لا يعد ولا يحصى ولا تحويه أقلام الدواوين، أي في صنعة الحساب.

وشرب أهل البلاد من أنهر سائحة، وبعضهم يشرب من آبارٍ ماؤها خفيف على الفؤاد ذات هضم ولذة.

من الطائف إلى مكة

راجعًا من الطائف إلى حدب الرنج فرسخان، وهو كهف جبل، وإلى الطود الأعظم ثلاث فراسخ جبل طويل وهو الذي يسمى الحجاز.

ذكر الحجاز

قال الأصمعي: سميت بذلك الحجاز لأنها احتجزت بالحِرار الخمس، منها حرة بني سليم وحرة واقم، ويقال: احتجز الرجل بإزار أي شده على وسطه، ومنه قيل: حُجزة السراويل، وقول العامة حُزّة خطأ.

وقال الخليل: لأنه فصل ما بين الغور والشأم وبين البادية.

وقال الجوهري: إنها حجزت بين نجد والغور.

وقال أهل اليمن: مكة يمانية، والدليل على برهانه قول النبي ﷺ [وقد] وقف على المتكأ وقال: «هذا شأم وهذا يمن».

وقال أهل الطائف: مكة تهامية لأن ما بين نجد وتهامة جبل يسمى الطود الأعظم، فكل ما غرّب منه فهو تهامة، وما شرّق منه فهو نجد.

وقال أهل العراق: مكة أرض الحجاز.

قال ابن المجاور: إن الطود الأعظم على هذا الوجه هو الحجاز بعينه لأنه حجز ما بين نجد وتهامة، ويقال: إنه جبل متصل إلى اليمن، وديار العرب هي الحجاز التي تشتمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها ونجد الحجاز المتصل بالبحرين، وليس في سائر الأقاليم أطيب منه لا أصح من جوه وهواه، كما قال:

اسكندرية داري لو قر فيها قراري
لكنّ ليلي بنجد وبالحجاز نهاري

وبادية الشأم واليمن المشتملة على تهامة ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن.

فما كان من حد السرين فهي تنتهي إلى ناحية يلملم حتى تنتهي إلى ظهر الطائف ممتدا إلى بحر اليمن إلى بحر فارس شرقًا من اليمن فيكون ذلك نحو من ثلثي بلاد العرب، وما كان من السرين على بحر فارس إلى قرب مدين راجعًا إلى حد الشرق على هجر إلى جبل طيئ ممتداً على ظهر اليمامة إلى بحر فارس من الحجاز ومدين.

وما كان من حد اليمامة إلى قرب المدينة راجعًا على بادية البصرة حتى يمتد على البحرين إلى البحر فمن نجد.

وما كان من عبادان إلى الأنبار ونواحيها لنجد والحجاز على طيئ وأسد وتميم وسائر قبائل مضر بادية العراق.

وما كان من حد الأنبار إلى بالس ونواحيها لبادية الشأم على أرض تسمى برية حسان إلى قرب وادى القرى والحجر من بادية الجزيرة.

وما كان من بالس إلى أيلة موجها للحجاز على بحر فارس إلى ناحية مدين معارضاً لأرض تبوك حتى يتصل بديار طيئ من بادية الشأم.

وعلى أن من العلماء من يقسم هذه الديار وزعم أن المدينة من نجد لقربها منها وأن مكة من تهامة اليمن لقربها منها.

من مكة إلى جدة

من مكة إلى عين أبى سليمان فرسخ، وهى عين جارية وقد غرس عليها نخل وشجر السدر، وإلى مقتلة الكلاب فرسخ، وكان السبب فيه أن لرجل من الأعراب كلبًا فحمل الكلب على رجل من أهل الحلة فنيبه وعوره فقتل المنيوب الكلب، فجمع صاحب الكلب بنى عمه وجمع المنيوب أهله وقامت الحرب بين الفريقين، وما زالوا على قتالهم إلى أن قُتل الجميع فعُرف المكان بمقتلة الكلاب.

وإلى الركابية فرسخ، وهى بئر حول جبلين على يسار الدرب تسمى رشان، وفيه بعض الأعراب يقول:

أيا جَبَلَىْ رشان بالله خَبِّرا ... متى جازكم بدر الحجاز مُعرِّضا

وإلى حدة فرسخ، وكانت أرضًا مودعة لبنى البدرية فباعوها فاشتراها منهم سليمان بن على بن عبد الله بن موسى واستخرج العين، وقيل: كانت العين على حالها فبقيت فى أيدى القوم مدة زمان يستعملونها فى إدراك الغلال، فاشتراها منهم الشريف الحسين بن ثابت السديدى وغرس فى جميع البلاد نخلا مقدار عشرين الف نخلة والقوم ملاكها إلى سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

وفى هذا التأريخ ملك الأمير طنبغا الملك الكامل ولاية الحجاز وملك نخل الأشراف مستهلكا لها وأخذ هذا النخل فى جملة ما أخذه، والنخل رجع الآن سلطانى.

ويقال: إنما عرف حدة بهذا الاسم لأنه آخر حدود وادى نخلة والأصح أنه من وادى الصفراء إلى القرين فرسخ، بناية الأمير هاشم، وكان يوقف فى الموضع رتبة خيل يجيرون القوافل فى الطرق وكان لهم على كل جمل دينار علوية، وهو حصن صغير مربع مبنى على أكمة بالحجر والجص، وقد بنى على دوره ثلاثة عشر برجًا صغارًا تحتها بئر طيبة الماء عذبة، وإذا قل الماء فى حدة فمنها يستقى الماء أهل حدة.

ويقال: إنما سمى القرين قرينًا إلا لأنه أقرن نصف الطريق ما بين مكة وجدة، ويقال: أقرن بينائه العدل والأمن.

وإلى كتانة فرسخ، يقال: إن الله عز وجل أهلك أهلك الحبشة الواردين بالفيل من صنعاء بهذا المكان.

وإلى الثديين ميل وهو بين جبال عوالٍ آخر الوطأة وأول الأودية وقد كان قصراً بُني بالجص والحجر والآن خراب.

وإلى وادى السدرة فرسخ وهي شجرة سدر صغيرة على أيمن المحجة ومنها رجع النبي ﷺ، وكل من يجوز الوادى يأخذ من أوراقها لأجل البركة ولم تبرح السدرة على حالها لم ينقص منها شيء إلى الآن.

وإلى الغار نصف فرسخ، وإلى الفج الأخضر نصف فرسخ، وإلى الفرع نصف فرسخ، وإلى مثوب نصف فرسخ، وإلى أبو[1] الرحم ميل وهو جبل صغير على أيسر الدرب، وإلى النهود ميل وهم اثنا عشر جبلا متفرقين شبه النهود، وإلى المينة نصف فرسخ، وتسمى الحديبية، ويقال: إن النبي ﷺ وصل إلى هذا فصار كلما سار تبعد عليه الطريق فرجع منها وقال: ما أبعدك لا قربك الله، والموضع سبخة طويلة في أرض وطيئة مثل الكف، وإلى جدة نصف فرسخ.

بنــــاء جـــدة

حدثني موسى بن مسعود النساج الشيرازي قال: لما أسلم سلمان الفارسي، رضي الله عنه، تسامعت أهلوه بالخبر فقصدوه وأسلموا على يد رسول الله ﷺ وسكنوا جدة لأنهم كانوا تجاراً.

وقال بعضهم: بل هي بناء خسرو بن فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن بهرام.

---

(١) اسم مقصود لذاته، كما تقول: قرأت من سورة المؤمنون.

ومما ذكره أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن عباس فى كتاب الفاكهى قال: أول من اتخذ جدة ساحلاً عثمان بن عفان وكان قبل ذلك بموضع يسمى الشعيبة.

قال ابن المجاور: والشعيبة هو خور عظيم ومرسى قديم مقابل وادى المحرم، لا شك أنه كان قبل جدة لأن ما فى تلك النواحي مرسى أدنى منه ولا آمن عاقبة.

قالت العجم: فلما خربت سيراف انتقلت أهل سيراف إلى سائر سواحل البحر [كما تقدم ذكره] فوصل قوم منهم وفيهم اثنان: أحدهما يسمى سيار والثاني مياس فسكنوا جدة وأداروا على البلد سوراً من الحجر الصم بالجص، فلما ابتدأوا فى المُقام بها بنوا هذا السور وجعلوا عرض الحائط عشرة أشبار فبقى السور على حاله حتى تمكنوا من المقام فبنوا على وجه السور سوراً ثانياً من الحجر الكاشور منقوش، أي منحوت مربع، بالجص وجعلوا عرض الحائط خمسة أشبار فصار عرض الحائطين الملتزقين بعضهما إلى بعض خمسة عشر شبراً.

وركب عليه أربعة أبواب: باب الرومة وباب المدبغة، وكان عليه حجر حفر فيه طلسم إذا سرق فى البلد سارق وُجد بالغداة اسم السارق مكتوباً فى الحجر، وباب مكة، وباب الفرضة مما يلى البحر، وحفر حوله خندق عظيم فى الوسع والعمق، فكان يدور ماء البحر حول البلد ويرجع ما فضل منه إلى البحر، والبلد يصير شبه جزيرة(١) فى وسط لجج البحر.

---

(١) الصواب أن يقال: جزيرة، لأنها المكان الذى تحيطه المياه من جميع النواحى، كما هو الحال هنا، أما شبه الجزيرة فيحيط بها الماء من ثلاث نواحٍ فقط.

فلما حصن الفرس البلد غاية التحصين خاف القوم من ضيعة الماء فبنوا ثمانية وستين صهريجًا داخل البلد وبنوا ظاهر البلد مثلها، والأصح أنه بُنِي بباطن البلد خمسمائة صهريج وبظاهر البلد مثلها، والله أعلم.

وصورتها على هذا الوضع والترتيب:



ذكر بعض الصهاريج

ابو الطين عامر والمريابني والحفيرة والنخيلات وصهريج أبي بكر والحجرى والصرحى وصهريج السدرة والحوار والفرحي وصهريج يحيى الشريف والودية والمبادر وصهريج البيضة والبركة وصهريج أم ضرار وصهريج بركات وصهريج سليمان العطار والطولانى والعرضانى، فكان إذا وقع الغيث وامتلأت منه الصهاريج التى بظاهر البلد كانت العبيد تنقل ماء الصهاريج على الدواب فتقلبه فى الصهاريج التى عندهم فى الدور، وكذلك صهريج الأخميمى وصهريج مسجد الأبنوس وصهريج الجامع وصهريج ردرية وصهريج محمد بن القاسم، وكان يبقى الماء عندهم من العام إلى العام وهم فى أكل وشرب وغسل وهزل وجد وهرج ومرج.

ذكر خراب جدة

أنفذ صاحب مكة إلى شيخ التجار بجدة وطلب منه حملا حديداً، فقال الشيخ للغلام وهو واقف عنده: أعطه حملا حديداً، فجاء الغلام فأعطى الرسول حملا حديداً، فلما فتح الحمل الحديد قدام الأمير بمكة وجده قضبان ذهب، فرد الرسول راجعاً وقال: قل للشيخ يتفضل وينعم وينفذ إليّ بحمل ثان من حديد هذا العين.

فلما علم التاجر بقصة الحال نادى الغلام وقال له: ما أعطيت الرجل؟ قال: حمل حديد أصفر من طول الخبا وقد علاه الصدى من طول المدى، فتحقق

الشيخ عند ذلك أن الحمل كان قضبان ذهب وعرف أنه قد طُمع فيهم، فقصد الشيخ إلى شيخ كبير كان عندهم في السن فشاوره في أمره وما يصنع، فقال له الشيخ: الذى عندى أنكم قوم موسرون فخذوا جميع ما تحتاجون إليه ويركب كلٌ مركبَه وينطلق في هذا البحر الواسع، وأى موضع أعجب الرجل منكم نزله وسكنه بعد أن تخلوا البلد كجوف حمار أو كرأس ليس فيه خمار، فعند ذلك عبوا أمتعتهم في المراكب ورفع كلٌ قلعه ودخلوا البحر وذلك في سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة.

ويقال في رواية أخرى: إن العرب جاءوا وحاصروا القوم فلما قل عليهم الماء ركبوا مراكبهم وعدوا في البحر فسكن قوم منهم السرين والراحة وعثر والجرعة والدرعة ودهلك وبيلول وجدة من جزيرة فرسان والمخاء وغلافقة والأهواب والثميد وجزيرة ذهبان وكسران وبندر موسى وباب موسى.

فلما خلت الأرض من الأحباب ملكها الأعراب في دولة الأمير داود بن هاشم.

قال ابن المجاور: ورأيت في المنام كأن قائلا يقول لي: ما استفتح جدة من الفرس إلا مضر بن هاشم، والأصح شكر بن أبي الفتوح، ومن عهدهم خربت واندرست وبقيت الآثار خاوية على عروشها كما قال الشاعر:

لا بلّغ الله نفسي فيك منيتها	إن كان بعدَك بُعْدُ الدار غيّرني
جعلت دمعي على ذكراك محتسبًا	والدمع عنوان ما يَخْفَى من الحَزَنِ
وأقسمتْ مقلتي ما لا تظن به	فالذكر يجرى ويجرى الدمع في سنني
وقائلٍ لي قد بانوا فقلت له	قد فرّق الله بين الجفن والوسنِ

ولأبي بكر أحمد العبدي:

يا راقد الليل بالإسكندرية لي	مَنْ يسهر الليل وجداً ثم أسهرهُ
ألاحظ النجم تذكاراً لرؤيته	وإن جرى دمع أجفاني تُذكّرهُ
وأنظرُ البدر مرتاحًا لرؤيته	لعل عين الذي أهواه تنظرهُ

وقال ابن الدمينة :

ألا يا صبا نجدٍ متى هِجْتَ من نجدِ	لقد زادني مَسْراك وجداً على وجدي
لئن هتفتْ ورقاء في رونق الضحى	على فَنَنٍ غصن من البان والرنْدِ
بكيت كما يبكي الوليدُ ولم يكن	جليداً وأبديتُ الذي لم يكن يبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا	يمل وأن النأيَ يَشفي من البُعدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا	على أن قُربَ الدار خيرٌ من البُعْدِ

وقال آخر:

ليالينا بذي الأثلاث عودي	لورق في ربا الأثلاث عودي
فإن حديثكم في القلب أحلى	وأطيبُ نغمةً من صوت عودِ

ذكر فضيلة جدة

مما ذكره أبو عبد الله بن محمد بن إسحاق بن عباس في كتاب الفاكهي قال: حدثنا محمد بن علي الصائغ، قال: حدثنا خليل بن رجاء قال: حدثنا مسلم ابن يونس، قال: حدثنا محمد بن عمرو، عن ضوء بن فخر قال:

كنتُ جالساً مع عباد بن كثير في المسجد الحرام فقلت له: الحمد لله الذي

جعلنا في أفضل المجالس وأشرفها، فقال: أنت في جدة الصلاة فيها بتسعة عشر ألف صلاة والدرهم فيها بمائة ألف وأعمالها بقدر ذلك يغفر الله للناظر فيها مد بصره.

قال ابن المجاور: وما أظن هذه البركة إلا من جهة أم البشر حوّى صلوات الله عليها لأنها مدفونة بظاهر جدة.

وكان الفرس قد بنوا عليها ضريحا بالآجر والجص محكماً بقي إلى سنة إحدى وعشرين وستمائة فعند هذا التأريخ تهدم وارتدم بعضها على بعض ولم يُعَدْ بناءه، ورأيته عامراً قائماً، وقد رأيته خراباً وقد ارتدم بعضه على بعض، وهو موضع مبارك مستجاب فيه الدعوة.

ذكر اخذ الجزية من المغاربة

حدثني إسماعيل بن عبد السيد بن البيع البغدادي قال: إن الأمير على بن فليتة ابن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم كان يأخذ من المغاربة جزية في جدة إذا قدموا للحج، كان يأخذ من كل رأس سبعة يوسفية وزن كل يوسفي ثلاثة عشر قيراطا وحبة بوزن مكة، وكان القواد يوزنون المغاربة أيضاً على كل رأس يوسفي في دية الكلب.

والموجب لذلك أنه جاء في جدة كلب فأخذ رغيف خبز فالتامت المغاربة فقتلوه فقامت القواد ليقتلوا المغاربة، فلما رأت المغاربة عين الهلاك أقروا على

أنفسهم أن يزن كل واحد منهم يوسفى فى دية الكلب، فتقرر ذلك عليهم فكانوا يزنون للأمير سبعة يوسفية ويوسفى للقواد وصار المبلغ ثمانية يوسفية على كل رأس.

ومن لم يزن كانوا يأخذونه ويدلونه فى صهريج من صهاريج جدة، والأصح فى صهريج مسجد الأبنوس، ويقال: إنهم كانوا يصيرونهم إلى جزيرة صندلة، وقيل: إلى جزيرة أبى سعيد ويعلقون أحدهم بحقوه وقد عُرِش بها أخشاب لهذا الفن.

فإذا حج الناس وقضوا مناسكهم وأفاض كلٌ راجعاً إلى مقصده فحينئذ يخرجون المغاربة من الصهاريج والجور وقسطوهم على المراكب الراجعة إلى مصر والراجعة إلى عيذاب والقلزم.

فصل: سئل قائد من القواد: لِمَ تأخذون منهم هذا اليوسفى وهم أشد الناس بخلا وأنزق الناس فى الخلق؟ قال: لقول الشاعر:

**وخذ القليل من البخيل وذمه		إن القليل من البخيل كثير**

قال الحسن بن محمد بن الحوت: ليس هو كذلك وإنما كان يزن أحدهم سبعة يوسفية ونصف كل يوسفى ستة وعشرون قيراطا وحبتين بوزن مكة، وفى دية الكلب نصف يوسفى فصار المبلغ ثمانية يعقوبية، أسس ذلك فى دولة الأمير عيسى ابن فليتة وبقى يحيى على حاله إلى أواخر دولة الأمير مكثر، فلما كثرت الأقاويل ووصل هذا الخبر إلى مسامع العالم أنفذ صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب إلى الأمير مكثر بأربعة آلاف أردب حنطة، والأصح ستة آلاف أردب، إلى جدة وإلى مكة وقال له: خذ هذا القدر واترك عن المغاربة الجزية مع دية الكلب، فأزال الأمير

مكثر ذلك كله في سنة ست وثمانين وخمسمائة، وبقي الأمر على حاله في أيام الأمير قتادة بن إدريس بن مطاعم بن عبد الكريم وأراد ان يرد الشيء إلى أصله، يعنى أخذ الجزية من المغاربة فأدركه الموت وارتفع عنهم.

حدثني أبو الربيع سليمان بن الربيع الطرابلسي قال: وكان ملوك الفاطميين يوزنون المغاربة جزية على كل رأس دينارين وقيراطين.

فصل: قال ابن المجاور: رأيت في المنام ليلة الثلاثاء ثالث عشر ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة كأني حدثني الأمير ناصر الدين فاروت والي عدن، وفي هذا التأريخ تولى إمرة الحاج إضافة إلى ولايته الأولى، وكان الحاج قد رجع من مكة إلى اليمن، وكأنه يقول: كل من حج ورجع إلى الهند يوزنه عبد الغفور بن أحمد ابن محمد بن محمد الصناديقي البصري جزية عن كل رأس اثنين وتسعين قلي، ولو أن الحاج عقّال لما سافروا إلى الهند إلا في مركبي حتى كنت أعطيهم مقرعتي فيأمن القوم من شر عبد الغفور في أخذ الجزية منهم، وبنو مهدي ولاة زبيد ما كانوا يستحلون أخذ المكوسات من أحد ما خلا الحاج، وإنهم كانوا يأخذون منهم مقام الدرهم ثلاثة دراهم.

ذكر الجار

وهو مرسًى قريب من جدة ترسي فيه المراكب الواردة من الديار المصرية وهو بحر أسود جيفه وموج هائل تبطل فيه حيلة السابح.

فصل: سمعت من ألفاظ جماعة بمكة وغيرها أنه وقع من يد بعض السراملة

قدوم بهذا المكان فشد فى وسطه جراب ونزل ليأخذ الفاس فلما غور فى النزول سمع هاتفاً يقول له: إلى أين أنت نازل يا عبد الله؟ فقال: نزلت لآخذ ما انفلت من يدى، فرد عليه الهاتف: انفلت من مركب بهذا المكان أنجر فهو فى النزول إلى قيام الساعة، والله أعلم وأحكم.

ذكر جزر مطارد الخيل

يقال إنه فى قديم العهد لم يكن هذا بحراً وإنما كان عرصة إلا أنه لا فرق بين بر العرب وبر السودان، فلأجل ذلك أن السودان كانت تملك إقليم اليمن جميعاً دائماً فى زمن الجاهلية والإسلام، ولما كثر الماء فى البحر وظهرت صعوبته من قريب صاروا يعدونه فى المراكب، فلما غرّق البحر هذه الأراضى وكل موضع كان عاليا رجع جزيرة فى البحر يقال لها جزر المطارد، أى مطارد الخيل، ويقال: ان العرب فى قديم الزمان كانوا يطاردون الخيل فى قعر هذا البحر لما كان ناشفاً، ويقال: مرابط الخيل بهذه الأمكنة والعلف والشجر موجود.

صفة جدة

هى مدينة صغيرة على ساحل البحر وهى فرضة مكة، وليس يمكن بها السكون لازدحام الخلق بها فى أيام الموسم الحاج لأنه يلتام إليها من جميع أطراف بلاد العالم والربع المسكون والبحر المعمور من ديار مصر والمغرب والهند واليمن، وإذا قل الماء على أهلها نقلوه من القرين من نصف الطريق ما بين مكة وجدة،

وأهلها من نسل العجم وبناؤهم من الحجر الكاشور وخوص وكلها خانات، والخان المعروف بها خان البصر، وهما خانان متقابلان بمخازن كبار، ويقال: إنه بنى بظاهرها الأمير شمس الدين طنبغا خان كبير عظيم سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وكل من بنى بها بيت خوص يزن للسلطان في كل بيت في السنة ثلاثة دراهم ملكية، وأما الدور التي هي بالحجر والجص فليس عليها شيء لأنها ملك لأصحابها وفي تصرف أربابها.

ويقال: إنما سميت جدة جدة لأنها دفن بها أم البشر حوّى، عليها السلام، فهي جدة جميع العالم، فلما بنى هذا البلد عرف باسم جدة، أي حوى زوج أبي البشر عليه السلام.

ويقال: إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة البحار والأنهار من أقطارها وأرجائها فصارت بلاد العرب جزيرة من جزائر العرب.

ومن مكة إلى المحالب

من مكة إلى القرين فرسخ، بناه الأمير هاشم، وإلى البيضاء فرسخين [كذا] وإلى ايدام ثلاثة فراسخ، بئر حفره أمير المؤمنين على بن طالب وجدده القائد الحسين بن سلامة.

وإلى وادى المحرم ثلاثة فراسخ ومنه يحرم حاج اليمن، وإلى فرع خمس فراسخ، أرض بنى شعبة، ليس يلبس نساؤهم إلا الأدم، وذلك أن المرأة تأخذ طاقين من الأدم تخيط بعضه إلى بعض وتقور فيه قوارة وتكتسيه، فإذا مشت بان جميع

بدنها من فوق ومن تحت، وإذا رأى غريب المرأة على ذلك الزى يقول لها: استرى فيقول له زوجها: اكسها، وإن كانت امرأة عريانة وهى لابسة فيقول له زوجها: اكسها، فإن كساها وإلا قتله لأنهم يقولون: من ستر غيّر.

ولم يكن فى جميع العالم أضل من هؤلاء القوم ولا أسرف ولا أجرم ولا أخسر منهم فى أخذ مال الحاج لأنهم يسمون الحاج جفنة الله، فإذا قيل لهم فى ذلك يقولون: إذا حضر جفنة الله لخلقه أكل منه الصادر والوارد.

وإذا قلت لأحدهم: قطع الله رزقك من الحرام! يقول: لا، بل قطع الله رزقك من الحلال، ما ترى عندنا من الخير سوى هذه الجبال السود لا لنا زرع ولا ضرع ولا أخذ ولا عطا، وجميع ما تعملونه أنتم مع حاج آخر جاء مقابل الكعبة من الفضائح والغنائم فسلطنا الله عليكم حتى نستقضى للحاج منكم الحق وثلث الباطل، ولذلك تقول العجم فى أشعارها:

ازسيم قوافل انه بل آيدنه رباطى زيراكه همه توشه حجاج ربايند

وإلى السرين ثلاث فراسخ، بناية الفرس على ساحل البحر، وإلى وادى الأثلاث ثلاث فراسخ، وإلى حصارة خمس فراسخ، وإلى حلى سبع فراسخ، بلد فيه جامع ومنارة، وأول من أخربها غازى بن متكلان من بنى حارث الكردى فى أيام دولة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، وبقى المكان على حال إلى أن أعاد بناءه موسى ابن على بن عطية، وهو إلى الآن مالكها، وجميع هذه الأعمال لبنى كنانة، وإنما اشتق اسم حلّى من الحلى الذى جمعه السامرى من بنى اسرائيل فى أيام هارون بن

عمران عليهما السلام وجعل منه صورة عجل، كما قال الله تعالى: ﴿فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار﴾[1].

وفي مشارق هذه الأعمال قوم يقال لهم البهيمية وهم يرجعون في الأصل إلى آل عامر، ويرجع آل عامر إلى سِنحان، فإذا نزل بهم ضيف يقول له: بم تعشّى؟ يقول: بكذا، وبم تغدّى؟ وما يقدم له إلا ما طلب واشتهى عليهم، فإذا تعشى يقول الرجل لزوجته: روحي أكرمي الضيف! فتجيء المرأة فتنام في حضن الضيف إلى الصباح، بلا خوف ولا حذر، ويقوم الصبح كلٌ يغدو إلى شغله.

فإذا خطب زيد بنت عمر وأنعم له عمرو بإيجاب القول دخل زيد إلى بنت عمرو واستفضها وبات معها طول ليلته، فإذا أصبح خرج وترك نعليه في بيت بنت عمرو فيعلم عمرو أنه رضي بها، فحينئذ يعقد له عقد النكاح، وإن لبس حذاءه وغدا علم عمرو أن زيداً لم يرض ببنته، وهذا في أجاويد هؤلاء القوم.

ومصاغهم الصُّفْر والحديد والرصاص، ولباسهم الجلود المدبوغة، وجواهرهم الوَدَع، ومِهرهم قطع الطريق ومنع السبل.

وإلى الدبساء خمس فراسخ، وثغر وادي عمق وهو سخل ويُعرف بشرم الجارية، خَور من البحر، يُخاض فيه مخاضة، وما عُرف بها إلا أنه خاضته الحجاج، فلما توسطوه زلق جمل وعليه جارية فوقعت الجارية في البحر فأخذها المد وراحت فعُرف الشرم، أي الخَور، بالجارية.

(١) الآية: ٨٨ من سورة طه.

وإلى ذَهبان أربع فراسخ، وسكانه عرب مجمّعة من بنى أسد وبنى ربح وبنى عاصم وبني رفدة، إذا نزل بهم نزيل يقولون له: بوّس وساحق وعض وعانق، يعنى صاحبة البيت، ولا تُدخل معها، أي لا تطأها، فإذا أدخلت معها أدخلنا معك هذا الخنجر.

ويسمى وادى الدّوم، وما سمى بذلك إلا لكثرة نخل الدوم بها، وهو شجر المُقْل، وفى وادى الدوم يقول الشاعر:

وآخر عهدى منك يوم لقيتنى		بأسفل وادى الدّوْم والثوبُ يُغسَلُ

ويُرى جبل كُدُمُل مما يلى البحر.

ذكر جبل كدمل

وهو نصف الطريق ما بين الحجاز واليمن وأول بطن عثر، ويقال: خبت عثر ويقال: كامل وامرأته وحماره، وهم ثلاثة أجبال: جبل كدمل فى البحر وفى لحفه جبل صغير يسمى الحمار، ويقابله في البر جبل يسمى الكليتان، والكليتان هى التى تسمى المرأة، فيقال: كدمل وزوجته وحماره، ولا شك أن هؤلاء كانوا جنًا أو بنى آدم مسخوا جبالاً وأحجاراً، وجبل كدمل هو فى الأصل معدن الحديد.

قال ابن المجاور: وكم سألتُ على أن أقع لهم على علم تحقيق فلم يحصل ذلك.

وإلى بيض أربع فراسخ، وهو وادٍ، وإلى الراحة أربع فراسخ، وتسمى محل

أبي تراب، وتسمى راحة المؤيد، وهو المؤيد أحمد بن غانم بن قاسم بن غانم، وهي قديمة بنتها الأشراف.

فصل: قال ابن المجاور: رأيت في المنام ليلة الخميس غرة رمضان سنة عشرين وستمائة كأني أقرأ كتابة على حجر منقوش، وكان الحجر بُني في جملة أحجار محراب الجامع وإذا فيه مكتوب: إن الراحة والحوى بناه العجم.

حدثني عبد الله بن محمد الراحي بزبيد سنة تسع عشرة وستمائة أنه وجد على باب الراحة مكتوب: ﴿رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين﴾[1] فخرج من المدينة هذه عشية يوم الجمعة ألف جرير يتبعها ألف بعير عليها ألف عذراء وأصبح صباح يوم السبت لا يُدرى أسماءٌ رفعتهم أم أرضٌ بلعتهم ولا عُلم لهم خبر، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ووجدنا أيضًا سطراً مكتوباً: يدلنا حمل در بحمل بر وما مسنا ضر، والله المستعان.

ووجد مكتوب أيضًا في مدينة أبي سيار من أعمال حران: طلبنا البر بالدر فما وجدناه.

وفي المدينة ثلاثمائة وستون بئراً على كل بئر صخرة عليها مكتوب: لا إله إلا الله موسى كليم الله، مع التالي لها: كلهن ينبشن وتحفر بيدك تشرب الماء.

وإلى هجر أربع فراسخ، ومن هنا إلى حران يعرف بالدرب، ومن هذه الحدود

(١) الآية: ٨٩ من سورة الأنبياء.

إلى زبيد يسمون أهلها الشمة لأن هذه الأعمال تسمى في زبيد الشام وتسمى الساعد، وليل هذه الأعمال طيب ونهارها كرب فيقال: حرض ليلها طابة ونهارها مصلابة، والله أعلم.

صفة زواج أهل هذه الأعمال

من يوم تدرك البنت إلى يوم تعرس لم يمكنوها من النتف بل تطول الشعرة مع طول الأيام، وتربيها إلى أن تضفرها دبوقة، ويقال: إنه يدهن ويسرح ويغسل بالسدر والطين، أي الشعرة، فإذا كان ليلة عرسها ضفرت شعرتها دبوقتين، وتشد كل دبوقة منهما في إحدى فخذيها وتجلى على زوجها، فإذا خلا بها وقعد منها مقعد الرجل من المرأة فحينئذ يمسك الرجل تلك الدبوقتين ولا يزال يمدهما إلى أن يقلعهما من الأصل، فإذا قلعهما استفضها بعد ذلك، فإذا أصبحت من الغد تزورها قرابتها ومع كل واحدة منهن صحن زبد فيقولون لها: كيف حالك مع الزبة؟ فتقول: بخير كبياع الدبة، وتداوى الموضع بالزبد ليرد عنها الألم، لأنه يقلع الشعر مع الجلد، وهذا زى القوم.

وإلى الهدية ثمان فراسخ، ومنها يجلب الزنجبيل الطرى، وإلى المحالب فرسخان، وهي أرض عنترة العبسي وقومه ولها واد يسمى مور.

ذكر هبة الإمام أبي موسى الأمين بالله هذه الأعمال

حدثني عبد الله بن محمد بن يحيى المهجمي قال: لما كثرت الأشراف بأرض الحجاز خرج منهم قوم إلى العراق في خلافة الإمام أبي موسى محمد الأمين بالله أمير المؤمنين ابن هارون الرشيد واستوهبوا منه أرضًا يقيمون فيها ويأكلونها، فأقطعهم من مكة إلى الهلية طولاً ومن صعدة إلى ساحل البحر عرضًا، فبقيت هذه الأعمال في أيدي القوم وهم في عيش هنيء يأتيهم رزقهم رغدًا من كل جهة، وبقي يحيى بأساميهم إلى سنة خمس عشرة وستمائة، فضعفت القوم ودخلت عليهم يد الغز فخرجوا من البلاد وخرجت البلاد من أيديهم وصارت في حوز الغز وفي قبضتهم، وأحد من تولى بها من القوم الشريف المؤيد بن أحمد بن قاسم بن غانم، وانقرضوا ولم يبق لهم في البلاد خبر، كما قيل:

عنا العقيق وأقوى منه معهده ... وحال ما فيه عما كنت أعهدهُ

فما الوقوف بربع لا محاسنهُ ... تُجلى ولا يومه يُرْجَى ولا غدهُ

من المحالب إلى صعدة

من المحالب إلى حردة ثلاث فراسخ، وإلى المدارة ثلاث فراسخ، وهو وادي الصما وبه الوحش الكثير، وإلى شمر فرسخان، وإلى قلحاح فرسخ، وإلى الأفرور

ثلاث فراسخ، وإلى الظُّهيرة فرسخان، ويعرف بوادى اليماني، وما سمى هذا الموضع بالظهيرة إلا أنه ظهر في فم واديين في وادى مور، وله من وادى حوث، ووادى حرف أوله وله من الجبال الشرقية، فإذا سال الوادى وصل جريانهما إلى الظهر في ساعة واحدة يحبس كلٌ صاحبه، فكل من قوى على الآخر مده ورد جريانه ويبقى الآخر في السيل إلى أن تزول حدته، فحينئذ يقوى العاجز على القوى لقطع حدته ويخرب، ولا يزالان على حالهما إلى أن يفرغ الواديان من جرى السيول، وهذا دائم إذا صادف حد الواديين في ساعة واحدة.

وإلى شطب خمس فراسخ، بناه آل برمك، وقيل: أواخر البرامكة الذين كانوا سكنوا هذه المدينة، ويقال: إن نسلهم باقون ولكن ضعفت بهم الحال وقل فيهم المال.

وإلى حوث عشرة فراسخ، سرير ملك الشرف من آل الحسن بن على بن أبى طالب، وإلى صعدة أربعة عشر فرسخًا، وهو سرير ملك عبد الله بن حمزة الحسيني.

من المحالب إلى زبيد

من المحالب إلى المهجم ثلاثة فراسخ، ويقال: إنما سميت المهجم بالمهجم لأن الأشراف كانت تهجم عليهم كل حين فكان القوم إذا رجعوا إلى أوطانهم سألوهم: أين سريتم؟ يقولون: المهجم، واسمها سردد، وعليها سور، وقد خرب واندثر، ويشرف عليها جبل يحاكى عنان الأفق يسمى ملحان تغطى ذروته الغيم،

وقد بنى على أعلى ذروته مسجد يسمى الشاهر لأنه اشتهر برفعه على ما حوله من الأعمال، ويقال: إنه مسكن الخضر، عليه السلام، وهو جبل عالٍ عاصٍ على الملوك باليمن.

وبها من الحصون ما شاء الله شبه قطع الشطرنج يبان لناظره علوها من أبعد مكان، يعني من تهامة، وأهله قوم من آل حمير ومنهم الذى يقول:

ستذكر قومي نجدتي ومكارمي	وما فعلت قومي بقيس أفاعلا
بنيتُ لهم مجداً من النجم والعُلَى	وصاروا خيار الناس ثم الأقاولا
فحِمْيَرُ أربابُ الملوك وخيرُها	فهم من قديم الدهر كانوا الأفاضلا

وفى هذا الجبل تنبت الشمة.

وإلى الكدراء خمس فراسخ بناها الملك دقيانوس على جاحف الوادى ما بين أراك وشجر.

وحدثني عمر بن علي بن مصبح قال: حدثني يوسف بن الهمداني قال: إني قفَّزت حصاني جاحف الوادى فقفز قعره وكان عرضه يومئذ فى ذلك العهد ثلاثة أذرع وعمقه مثل عرضه في أواخر دولة الحبشة وأوائل دولة بني مهدى، والآن صار وادياً عظيماً يكون عرضه أكثر من ثلاثة آلاف ذراع لأن السيل أكله، ولم يكن فى قديم الأيام وادياً بل كان الوادى وسط المدينة وكان على البلد سور وخندق وأبواب.

قال: وأهلها يشربون الماء من جاحف الوادى وللاستعمال يستقون من آبار عندهم، لأن مياه آبارهم مالحة، ولم يبنوا دورهم إلا من آجر يخرجونه من الأرض من الردوم، وطول كل آجرة نصف ذراع في عرض مثلها من بناء الأوائل.

وحدثني عمر بن علي بن مصبح قال: جاء بعض الأيام سيل عظيم في بعض السنين وجاء السيل مع جريانه برجل ميت قد مصته الأرض وقد صار شبه القد طوله سبعة أذرع، وقيل: خمسة أذرع مقلداً بسيف، فقصوا الأثر فوجدوا أنه كان دُفن قائماً في أيام دقيانوس الملك.

واستدل على ذلك أنه ما كان القوم يدفنون موتاهم إلا قياماً، ويقال: كذلك دُفن إبراهيم الخليل، عليه السلام، ودُفن عبد المؤمن بن علي الكوفي ومحمد بن الحسين بن تومرت البربري في حصن الغار، ويسمى حصن المهدية، وإنما يفعلون ذلك ليكون المُلك قائماً فيهم إلى يوم الدين، وهذا هو الجنون بعينه.

ومما ذكره عمارة بن محمد بن عمارة في كتاب المفيد في أخبار زبيد أن القائد الحسين بن سلام اختط مدينة الكدراء على وادي سهام واختط مدينة المعقر على وادي ذؤال، ويقال: معاملة الكدراء من الدومتين إلى قرب المزحف طول إلى المسجد الذي بناه ابن وهب قريباً من القحمة، وفي الجبل إلى البحر طول، ودخلُها كل يوم ألف دينار، وتسمى سهام كما قال:

أرى الشـأم يدنو كل يوم وليلة ويبـعـد مني سُـرْدُدٌ وسَـهـامُ
فقروجي وقلبي في دمشق ومهجتي وجسمي مِنيءٌ قد حواه سُهامُ

وقال آخـر :

ما لي وصحبة سكان العقيق وهم إن عاهدوا غدروا أو ذُكِروا جحدوا
يا حبـذا جاحِفُ الوادي إذا لعبت فيـه الغصـون وغنى طيـره الغَـرِدُ

فصل: تولى أعمال الكدراء القائد بلال في دولة الأمير فاتك بن محمد ونشأ في عهده القائد فرج بن إسحاق فكان يأكل ويشرب إلى أن عبر أكله الحد فضجر منه خاله بلال، فلما رأى ذلك خرج فرج بن إسحاق ومعه عبد أسود وكانوا يقطعون الطرق ما بين حرض والمحالب مدة عامين ونصف، بينا هم في حالهم عاملون إذ قال العبد الأسود لفرج: يا مولاى، أخاف إذا وصلت مع بلال تنسانى، فأنشد فرج قول الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

فما زال[1] العبد يردد البيت إلى أن حفظه، فمات القائد بلال وطُلِب فرج بن إسحاق، فلما حضر ولوه أعمال الكدراء فرجع في الأمر والنهى والأخذ والعطا، فلما طال البعد على العبد طلب سيده ودخل الكدراء فكتب البيت المقدم ذكره في رقعة وعرضها على فرج بن إسحاق، فلما وقف على الرقعة طلب العبد وأدخله وأحسن إليه غاية الإحسان وولاه موضعاً يعيش فيه باقي عمره، وفيه يقول:

ظباء في الفلا سنحوا ... همُ منحوا وما مُنحوا
وصادوا ثم ما صيدوا ... همُ أخذوا وما صفحوا
همُ قتلوا فتًى وجداً ... وقالوا: إنهم مزحوا

---

(١) في الأصل: «فلا زال» والصواب هو المثبت، لأن الفعل «زال» إذا نُفى بـ «ما» أفاد الاستمرار، كما هو هنا، وإذا نُفى بـ «لا» أفاد الدعاء، تقول: لا زلتَ بخير، أى: أرجو أن تكون بخير، وقد قال ذو الرمة:

ألا يا اسلمى يا دار مى على البلا ... ولا زال منهلا بجرعائك القطر

ألا شُلّتْ رُماتُهمُ ألا يدرون مَنْ جرحوا
قتيلا من سهامهم على دمه قد اصطلحوا
سقى الصهباء ممتزجًا فمغتبق ومصطبحُ
ألا يا أيها الركبا ن والركب الذى انتزحوا
بكم قد ضاقت الدنيا وضاق الأمر فانفسحوا
إلى الكدراء فارتحلوا وقائد جيشها امتدحوا
عليكم بابن إسحاق ففى فرج لكم فَرَحُ[1]

وفتح باب العطا على نفسه لكل قاصد ووافد ولكل دانٍ وناءٍ فلامه الناس على ما يفعل فى إتلاف الأموال والمحصول، فأمر أن يكتب على باب داره:

من عز بز ولم تؤمن بوائقه ومن تضعضع ماكول ومذمومُ
لا بارك الله فى مال أخلفه للوارثين وعرضى فيه مشتومُ

وإلى الفحمة فرسخ ونصف وتسمى ذؤال، وذؤال كل ما هو بين البحر والجبل من مقابلة، ويوجد بها الموز الطيب والرمان المليح، ويقال: إنه يجلب من جبال اللوى وإنه فيها غير مملوك، ويقال: إن المفاليس والقحمة على طالع، وذلك أنه إذا ظهر فى غرب البلاد فساد وبدا منهم خلاف نهب الأشعوب المفاليس ونهب المعازبة القحمة فى لمح الطرف، لأن هذه القبائل مقاومة لهاتين المدينتين وهم عصاة طغاة.

(١) فى الأصل: «فرج» بالجيم، وما أثبتناه لتوحيد حرف الرَّوِىّ.

وقد بني جمال الدين على بن الحسن بن وهب مقابل القحمة على جبل حصن الأضْوَح في غرة شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكان قديماً خربه ملك من ملوك العرب، وجدد ابن وهب بناءه وأحكمه غاية الإحكام.

ومن القحمة إلى محل إبراهيم ثلاث فراسخ، وإلى سفاكا ثلاث فراسخ، وهو حصن بُني على أعلى قلة جبل عاص على ملوك اليمن، ومنه يُجلب الخُمَر، وهو التمر الهندي إلى كل بلد.

وفي هذه البلاد عقد لم تُسلك لكثرة شجرها ووعرها، ويُقطع من هذه العقد خشب يسمى الرقع يعمل منه النشاب ويُسلف منه على النجارين من الديوان كل ألف فردة بدينارين ملكية، ويكون بهذه العقد النارنج والأترج والليمون والموز ضائع لا مالك له، وهذه الأشجار بين أنهار وعيون، ويوجد في مياهها الحيات العظام.

وإلى زهران ربع فرسخ، حصن بناه العرب في وطأة مثل الكف فاستفتحه الملك المسعود يوسف بن محمد سنة عشرين وستمائة.

ذكر الأودية التي يقطع منها الخشب لأجل العمارات

من معاملة ذؤال وادي نبع ووادي ريمان ووادي عرم ووادي جابية والمداراة، وفي وادي زبيد سخمل والفائشي، وغاية شجره الإسحل والسيسان، وبطحوات، واليمن وادي نخلة خلاف وادي مكة وواسط، وفي أودية الشأم وادي رماع ووادي

الكدراء ووادى سردد ووادى مور، وجميع هذه الأودية يقطع منها الخشب لأجل العمارة، وإلى فشال أربع فراسخ، وبعد سبعة تلول رمل وسبعة أودية.

وأما فشال ففيه نحو ثمانمائة قرية ما يزرع أهلها إلا على المطر الدخن والذرة، وزرع الشيخ محمد بن معيبد بها الحنطة والشعير وطلع سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وزرع أولاد أخيه العجل ومعيبد الأرز، فلما زُرع بها وحُصد قلعه القوم من الأصول سنة أربع وعشرين وستمائة، وإلى وادى رمع نصف فرسخ، وهو وادٍ عظيم.

وقد ذُكر في الكتب: لا يزال السيل يأكل في الوادى إلى أن يصل الأكل إلى الخيف جبل ببرع فإذا وصله ظهر على القوم كنزٌ ذهبًا يستغنى منه جميع أهل اليمن.

وإلى قونص نصف فرسخ، ويسمى وادى العرق، وبه قُتل الملك المسعود إسماعيل بن طغتكين بن أيوب، وإلى زبيد أربع فراسخ، والله أعلم بالصواب.

ذكــــر زبيـــد وما كانت في قديـم الزمـان

قيل: إن جميع أرض زبيد كانت حمى مهلهل وكليب، وذلك من حد الحجف إلى أنف قونص وفيه قصره وبركته وإصطبله الذى كان يربط فيه خيله، وذلك على ذروة جبل عال مشرف على تهامة، فكان يقعد في القصر وينظر الأرض تحته شبه زمردة خضراء مع جرى السواقى والأنهر، لأنه كان يقال: بها ستمائة ألف عين، وقيل: ستون ألف عين، وقيل: ستة آلاف عين، والأصح ستمائة عين،

ويقال: ستون عيناً سائحة على وجه الأرض كلها عذب فرات، فمن نداوة الأرض رجعت الأرض مخضرة دائماً ذات رياض وأشجار ووحش، فبقي الحمى على حاله إلى أن وقعت الحرب بين القوم أربعين خريفًا، والقصة مشهورة ولا حاجة إلى ذكرها، فجاء ملك بعد القوم ردم الأعين وسد أعينها، ولا شك أنه معن بن زائدة الشيباني.

والدليل على صحة مقالتنا أن الحجرين الطاحونين الملقين على باب غلافقة من زبيد كانت تدور على تلك المياه والأعين، وكان بها وخم من كثرة نداوة الأرض والمياه، وكل أرض تكون على هذه الصفة تكون وخمة من كل بد.

حدثني جعفر بن عبد الملك بن عبد الله بن يونس الخزرجي الجرجاني قال: قدمت اليمن في دولة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وكنا نستقي الماء من الآبار بأيدينا ونشرب، فغار الماء في زماننا هذا سنة خمس وعشرين وستمائة إلى أن بلغ عمق البئر خمس عشرة قامة فزال الوخم واعتدل الماء والهوى، والآبار التي في سكة المدينة طولها ست عشرة قامة وما حول البلد اثنتا عشرة قامة تزيد لا تنقص.

وأما حدود حمى كليب ومهلهل فكان من الحجف إلى أنف قونص إلى رأس رمع، وجميع جوار زبيد وأوديتها إلى حد النوبتين وقوارير طولاً في عرض مثله، فلما سُدد الأعين وقل الماء طلع في الخبت شجر الأراك والطرفاء إلى أن رجعت عقدة عظيمة.

بنـــاء زبيـــد

حدثني عبد الرحمن بن أحمد بن الراجي قال: كان في أرض زبيد عقدة طرفاء وأراك وكان حول العقدة قصور وقُرَى جماعة إحداها المتامة والنفير من غربي البلد مدينتان عظيمتان، ومن جملة عظمهما أنه كان يخرج منهما في كل ليلة جمعة وخميس خمسمائة رقيص لزيارة الصالحين، وجنيجر شرقي البلد بناء دقيانوس، وواسط ما بين الغرب واليمن فكان يخرج من هذه البلد كل يوم ستمائة فارس يتلاقون في أرض زبيد التي هي الآن عامرة فبقوا على حالهم زماناً طويلا إلى أن مل بعضهم بعضاً.

وخرج مشائخ القوم إلى العراق في دولة الإمام أمير المؤمنين الأمين ابن هارون الرشيد وعرّفوه حالهم وخبرهم وقالوا له: نحن قوم من الأعاشر وجميعنا بنو عم ويجري بيننا قتال، فقال الأمين: من منكم الكبير؟ فأشاروا إلى رجل، قال: ومَنْ مِن بعده؟ فأشاروا إلى آخر، وما زال يسألهم ويخبرونه حتى عد القوم خمسة جماعة، فولّى الشيخ الكبير عليهم، وقال للحاضرين: إذا مات هذا فيتولى من بعده الثاني، وإذا تولى الثاني ثم مات فليتولّ الثالث، وإذا مات الثالث فليتولّ الرابع، فإذا مات الرابع فليتولّ الخامس، وعقد للشيخ على أصحابه وبني عمه.

وخرج القوم من مدينة السلام بغداد راجعين فمات الشيخ الذي عقد له الأمين البيعة، وتولى بعده الثاني فمات، ثم تولى الثالث فمات، فتولى الرابع، فلما قرب من البلد مات الرابع فأبى الخامس أن يتولى فعزل نفسه، خوفاً من الموت، فولاها رجلا

من بني عمه، فلما دخل البلاد جباها وأنفذ بمال من خراج البلد إلى مدينة السلام، فلما كان ما كان من قصة الأمين وقتله وتولى المأمون الخلافة عصى الرجل المتولى في اليمن وتغلب على البلاد وقطعها وصار يرفع الدخل إلى خزانته.

فلما كان سنة تسع وتسعين ومائة أُتى إلى المأمون بقوم فيهم رجل من ولد عبيد الله بن زياد فانتسب أحدهم فقال: اسمه محمد بن قلان بن عبيد الله بن زياد ... إلى عبيد الله بن زياد، وانتسب منهم رجل إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك، ومن هذا الرجل الوزير خلف بن أبي الطاهر وزير جياش بن نجاح، فقال المأمون لهذا الأموي: إن الإمام أبا جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس ضرب عنق سليمان بن هشام وولديه في يوم واحد، فقال الأموي: أنا من ولده الأصغر سليمان ومنا قوم بالبصرة.

وانتسب رجل إلى تغلب واسمه محمد بن هارون، فبكى المأمون وقال: أنى لى بمحمد بن هارون؟ يعني وافق اسمه اسم أخيه محمد الأمين ابن هارون الرشيد، فقال المأمون: أما الأمويان فيقتلان، وأما التغلبي فيُعفى عنه رعاية لاسمه واسم أبيه.

قال ابن زياد: وما أكذب الناس يا أمير المؤمنين، يزعمون أنك حليم كثير العفو متورع عن سفك الدماء بغير حق، فإن كنت تقتلنا بذنب فلم تنزع يداً من الطاعة ولم نفارق في بيعتك رأى الجماعة، وإن كنت تقتلنا يا أمير المؤمنين بجنايات بني أمية فيكم فالله تعالى يقول: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾[1] فاستحسن المأمون

(١) الآية: ١٥ من سورة الإسراء.

كلامه فعفى عنهم جميعاً، وكانوا أكثر من مائة رجل، ثم أضافهم إلى أبى العباس الفضل بن سهل، ذى الرئاستين، ويقال: إلى أخيه الحسن بن سهل.

فلما بويع لإبراهيم ابن المهدى ببغداد في المحرم سنة اثنتين ومائتين وافق ذلك ورود عامل اليمن بخروج الأشاعر عن الطاعة، فأثنى الحسن بن سهل على محمد بن زياد وعلى المرواني وعلى التغلبي عند المأمون وإنهم من أعيان الرجال وأفراد الكفاة، وأشار بتسييرهم إلى اليمن، يعنى أن ابن زياد يكون أميراً، وابن هشام وزيراً، والتغلبي حاكماً مفتياً، فمن ولد التغلبي محمد بن هارون قضاة زبيد وهم بنو أبي عقامة، ولم يزل الحكم فيهم يتوارث حتى أزالهم علي بن المهدى حين أزال دولة الحبشة، فخرج الجيش الذى جهزه المأمون إلى بغداد لمحاربة إبراهيم بن المهدى، وحج ابن زياد ومن معه سنة ثلاث ومائتين وسار إلى اليمن وفتح تهامة بعد حروب جرت بينه وبين العرب، واختط زبيد في شعبان سنة أربع ومائتين، وفي هذا التأريخ مات الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي بمصر.

وحج من اليمن جعفر، مولى ابن زياد، بمال وهدايا سنة خمس وسافر إلى العراق فصادف المأمون بها فعاد جعفر هذا في سنة ست إلى زبيد ومعه ألف فارس من مسودة خراسان وسبعمائة فارس فعظم أمر ابن زياد وملك إقليم اليمن بأسره الجبال والتهائم، وتقلد جعفر هذا أمر الجبال واختط بها مدينة المُذَيْخِرَة وهى ذات أنهار، والبلاد التى كانت لجعفر تسمى إلى الآن مخلاف جعفر، وكان جعفر هذا أحد الكفاة الدهاة، وبه تمت دولة ابن زياد، وهذا الذى اشترط على العرب بتهامة أن لا يركبوا الخيل.

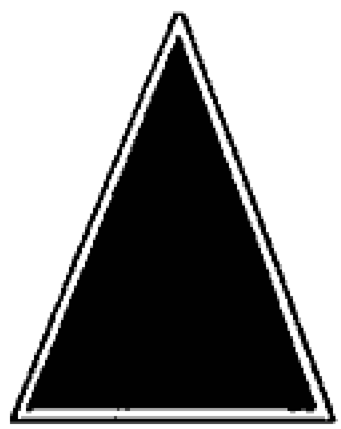
وملك ابن زياد حضرموت وديار كندة والشحر والمرباط وأبين ولحج وعدن والتهائم إلى حلى، وملك من الجبال الجَنَد وأعماله ومخلاف جعفر ومخلاف المعافر وصنعاء وصعدة ونجران وبيحان.

وواصل ابن زياد الخطبة لبنى العباس وحمل الأموال والهدايا السنية هو وأولاده من بعده، وهم إبراهيم بن محمد هذا الذى هو الملك وأقام فى المُلك بعده زياد ابن إبراهيم فلم تطل مدته، ثم ملك بعده أخوه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم وطالت مدته، فلما أسن وبلغ الثمانين فى المُلك تشعب عليه من دولته بعضها، فممن أظهر له بعض ما يكره ملك صنعاء، وهو من أولاد التبابعة من حِمْيَر، واسمه يوسف بن أسعد بن يعفر، ولكنه كان يخطب لأبى الجيش ولأبويه، وكانت تُرفع أموال إلى أسعد بن يعفر لا تزيد على أربعمائة ألف دينار فى السنة يصرف بعضها فى المروة ولقاصديه.

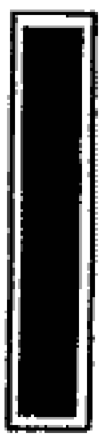
وأما صاحب بيحان ونجران وجرش فهمّ أيضا بأن يخرج من طاعة ابن زياد، وهمّ صاحب صعدة فثار بها الشريف الحسنى المعروف بالرسى.

ويقال فى رواية أخرى: إن أمير المؤمنين محمد الأمين ولى محمد بن زياد بن محمود بن منصور اليمن فجاء محمد بن زياد إلى أرض الحصيب فوجد قوماً يقتتلون فى كل يوم إلى ضحوة نهار ويفترقون، فدخل بينهم وأصلح بينهم، وبنى قصراً على باب غلافقة، وآثاره إلى الآن باقية، فسكن فيه واشترى ألف عبد، ويقال: بل جاء بعساكر عظيمة من العراق وقال لهم: إذا دخل القوم للضيافة فالسيف عليهم، ونادى فى مشائخ البلاد وكبار القبائل من الأشاعر وقدم لهم طعاماً قد أُحضر، فلما اشتغلوا

بالأكل والتناول لبست العبيد وأركبوا السيف من حضر فلم ينج منهم أحد، وركب السيف على من كان حولهم من العربان من أهل القرى والعمارات، وما زال على حاله إلى أن رجعت الخلق تستجير به، فكل من كان فى طاعته كان يترك على رأسه أثر وهو قلنسوة من خوص النخل على هذا الوضع:



ويعطيه زوج بقر ومِهار على هذا الوضع:



يعنى لحرث الأرض فحرثت الخلق وعمر المكان وبقى الأثر والمهار سنة إلى الآن.

حدثنى أحمد بن سعيد بن عمرو بن عويل قال: حدثنى شيخ كبير قد ناطح عمره المائة قال: حدثنى أبى عن جدى قال: إنى كنت أرعى البقر عند مسجد الأشاعر وبها حينئذ عقدة شجر وغدير ماء.

ويقال: لما تعدى ابن زياد مكة صار كل منزل ينزله يأخذ تراب أرضه يشمه ويبنى فى ذلك المنزل قرية، وما زال على حاله إلى أن قدم أرض الحُصيب فأخذ من

أرضه كف تراب فشمه وقال لأهل الدولة: أقيموا بنا هاهنا! قالوا: ولِمَ؟ قال: لأن هذه الأرض أرض نزه زبدة هذه البلاد، قالوا: وبمَ صح عندك ذلك؟ قال: لأنها طيبة بين واديين، يعنى وادى زبيد ووادى رمع، فلما سكن المكان بناه مدينة سماها زبيد، واشتق زبيدا لأنها من الزبدة على ما جرى في اليوم الأول.

فصل: قال عبد النبي بن على المهدى للحاضرين: إنى أتعجب من أهل هذين الواديين. قالوا: وما رأيت من عجائبه؟ قال: رأيت كل خلق الله من الرجال يميل طبعهم إلى الفحولة والذكورة إلا من سكن بين هذين الواديين فإن طباعهم مائلة إلى الخنث وخصال النساء، قالوا: وبم تحقق عندك ذلك؟ قال: كل من الخلق يميل إلى ما يصلح به دينه ودنياه إلا أهل زبيد فإنهم مائلون إلى الأكل والشراب والملابس النظاف والمركوب الوطىء وشم الطيب وميل طباعهم إلى النساء أكثر من ميل طباعهم إلى الرجال، فقال بعض من حضر المجلس: ما وضعت بين واديين إلا كرجل يسكن بين امرأتين يميل إلى من مالت نفسه وسكنت جوارحه إليها.

قال ابن المجاور: ومعظم رجالهم يتحدثون ويتغانجون ويتمفطعون ويتقصفون تقصيف النساء في الحديث والحركة.

حدثنى أحمد بن على بن عبد الله الجُماعى الواسطى قال: ملك اليمن ملك من التبابعة يسمى الزبا فسأل رجل آخر فقال: ما فعل الله بزبا؟ فقال: بِيد، أى هلك، فسمى البلد زب بيد.

وقال آخرون: إنما سميت زبيد زبيدا لأن لها واديا يسمى زبيدا فسميت البلد باسم الوادى.

وقال آخر: بل كانت الإبل ترعى فى العقدة وفى جمع الإبل ناقة تسمي زبيد عضت الناقة فى العقدة فعرف الموضع باسم الناقة. وأما العقدة فصحيحة بقى إلى الآن شجر الأراك كثيراً مما يلى الدروب وخصوصاً موضع يسمى حافة مسجد الهند وغيرها من المواضع.

وقال آخرون: بل كانت امرأة تسكن رأس وادى زبيد تسمى زبيدة.

وقال ابن المجاور: ما أظنها إلا زبيدة بن جعفر بن أبى جعفر المنصور، فإن محمد المنصور بن زياد بنى لها داراً ما بين وادى زبيد ورمع وهى التى سعت فى بناء المكان فى دولة أمير المؤمنين الأمين.

ذكر تمام قصة آل زياد

لما مات الحسين بن سلامة انتقل الأمر إلى طفل من آل زياد واسمه عبد الله وكفلته عمته وعبده أستاذ الدار واسمه مرجان، وهو من عبيد الحسين بن سلامة، فاستقرت الوزارة لمرجان، وكان له عبدان فحلان من الحبشة رباهما فى الصغر وولاهما فى الكبر، أحدهما يسمى نفيس، وهو الذى تولى التدبير فى الحضرة، والثانى يسمى نجاح وهو جد ملوك زبيد الذين أبادهم على بن المهدى سنة أربع وخمسين وخمسمائة.

ونجاح هذا هو أبو الملك سعيد الأحول قاتل على بن محمد الصليحى القائم فى اليمن بالدعوة المستنصرية، وهو أيضا أبو المكرم الفاضل أبى الطامى جياش،

ولم يزل الملك في عقب جياش المذكور إلى التأريخ المذكور، فكان نجاح يتولى أعمال الكدراء والمهجم ومور والواديين، هذه الأعمال الشأمية والأعمال الشمالية عن زبيد، ثم وقع التنافس بين نفيس ونجاح عبدي مرجان على وزارة الحضرة، وكان نفيس ظلوماً غشوماً، ونجاح عادلا رءوفاً، إلا أن مولاهما مرجان يميل مع نفيس غلى نجاح، ونُمَّ إلى نفيس أن إبراهيم بن زياد مولاه وعمته كاتبا نجاحًا وإنها تميل إليه، فشكي فعلها إلى مولاهم مرجان فقبض مرجان عليها وعلى ابن أخيها إبراهيم بن زياد، وهو آخر بني زياد، ودفعهما إلى نفيس فبنى عليهما جداراً وهما قائمان يناشدانه الله عز وجل حتى ختم عليهما، وزالت دولة بني زياد وانتقلت إلى عبيد عبيدهم، فتكون دولة بني زياد في اليمن مائتين وثلاث سنين لأنهم اختطوا مدينة زبيد سنة أربع ومائتين وزالت عنهم سنة سبع وأربعمائة.

فصل: وكان بنو زياد لما اتصل بهم اختلال دولة العباسية من قتل المتوكل وخلع المستعين تغلبوا على ارتفاع اليمن وركبوا بالمظلة وساسوا قلوب الرعية ببقاء الخطبة لبني العباس، فلما قتل إبراهيم بن زياد وقبض على عمته تملك نفيس وركب بالمظلة وضرب السكة باسمه واسم الحسين بن سلامة، فلما انتهى إلى نجاح ما فعله نفيس في مواليه ركب وقصد نفيساً إلى زبيد فجرى بينهما عدة وقائع منها يوم رمع ويوم فشال على نجاح، ومنها يوم العقدة، ويوم العِرْق، وفيه قُتل نفيس على باب سهام، وقُتل بين الفريقين خمسة آلاف رجل.

وفتح نجاح زبيد في سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، وقال نجاح لمرجان: ما فعل مولاك بموالينا؟ قال: هم في ذلك الجدار، فأخرجهما نجاح وصلى عليهما وبنى

عليهما مشهداً وأدخل مرجانا فى موضعهما فبنى عليه وعلى جثة نفيس حائطا، وركب نجاح بالمظلة وضرب السكة باسمه وكاتب أهل العراق وبذل الطاعة، فنُعت نجاح بالمؤيد نصير الدين وفوض إليه تقليد القضاء والنظر فى الجزيرة اليمنية، ولم يزل نجاح مالكا للتهائم وقاهراً لأهل الجبال، وكوتب وخوطب بالملك وبمولانا.

ومن أولاده سعيد وجياش ومعارك والذخيرة ومنصور، فتغلبت ولاة الحسين بن سلامة على الحصون، فتغلب على عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت بنو معن ابن زائدة، وقيل: من غير ولد معن بن زائدة الشيبانى، وتغلب على السمدان وعلى حصن السواء والدملوة وصبر وحب والتعكر ومخلاف الجند ومخلاف المعافر قوم من حِمْيَر يقال لهم: بنو الكرندى، وتغلب على حصن حب وحصن عزان وبيت عز وحصن الشعرين وحصن أنور والقيل والسحول وحصن خدد والشوافى السلطان أبو عبد الله الحسين التبعى، وتغلب على حصن أشيح، وهو مقر الداعى سبأ بن أحمد الصليحى، وعلى حصن مقرى، وحصون وصاب ومخاليفها قوم من البكيل، وهم من همدان، وتغلب على صنعاء ومخاليفها قوم من همدان، وتغلب على حصن مسار وجبل تيس قوم من حراز، ومنه ثار الصليحى دعوة المستنصرية.

وبعهدهم تولى الحسين بن سلامة ومات فى سنة اثنتين وأربعمائة، وتولى بعده الأمير على بن محمد الصليحى وقُتل فى الثانى عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، وتولى بعده الملك السيد الأعظم عظيم العرب المكرم أحمد ابن محمد بن على الصليحى، ومات فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وأسند

الدعوة إلى سبأ بن أحمد بن المظفر بن على الصليحى، وتولى بعده سعيد الأحول، وقُتل تحت حصن الشعرين سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

وفى هذه السنة خرج أخوه جياش بن نجاح وخلف بن أبى الطاهر الأموى الوزير مسافراً إلى الهند، وأول من أدار سور زبيد الحسين بن سلامة وبعده الحبشة.

وتولى بعد ذهابهم الشيخ على بن المهدى القرتبى، وقعد على سرير الملك يوم الجمعة الرابع عشر من رجب سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وأقام بها على ابن المهدى بقية رجب وشعبان ورمضان، ومات فى شوال من السنة، فكان مدة ملكه شهرين وواحد وعشرين يوماً، وادعى الخلافة وفيه يقول:

سير الأنام قديمُها وحديثُها فرحُ القلوب وروضةُ المتنزهِ
أشهى من الماء الزلال على الظما وألذ من عصر الشباب الأمرهِ
فاليوم يحتج الخليفة بعده بالقائمين الهاديين وزهرهِ
شبليْه سبطيْه اللذيْن إليهما شرف الإمامة والخلافة ينتهى

ويعنى بهما معاذاً وعبد النبى فإنهما توليا على زبيد وبعض الجبال مدة ست عشرة سنة، وأداروا على زبيد سوراً ثالثاً، وبعدهم ملك الغز البلاد، فأول من ملكها شمس الدين والدولة توران شاه بن أيوب عامين، وبعده سيف الدولة مبارك بن كامل بن مقلد بن منقذ، وبعده أخوه خطاب عامين، وبعده سيف الإسلام طُغْتِكين بن أيوب، أدار على البلد سوراً وركب على السور أربعة أبواب:

باب غلافقة ينفذ إلى غلافقة، وباب سهام ينفذ إلى سهام، وباب الشبارق ينفذ إلى حصن قوارير، وباب القرتب ينفذ إلى الجبل، بالطين واللبن فى عرض عشرة أذرع.

قال ابن المجاور: عددت أبراج زبيد فوجدتها مائة برج وتسعة أبراج، بين كل برج وبرج ثمانون ذراعًا، ويدخل فى كل برج عشرون ذراعًا، إلا برجًا فإنه مائة ذراع، يصح دور البلاد عشرة آلاف ذراع وتسعمائة ذراع، وأقام متمكنا ست عشرة سنة.

وحدثنى بعضهم فى مسجد السدرة يوم الخميس الخامس عشر من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة قال: إن سيف الإسلام أراد أن يدير حول البلد سوراً ثانياً ذا طول وسعة، وأمر الجند أن يسكنوا ما بين السورين بدوابهم وأموالهم، فلما بنى السور وفرغ منه مات ولم يمكنه مراده، وتولى بعده الملك المعز إسماعيل بن طغتكين ست سنين، وبعده الأكراد سنة، وبعدهم أتابك سنقر عشر سنين، وبعده الملك الناصر أيوب بن طغتكين عامين، وبعده الخواتين ثلاثة شهور، وبعدهن غازى بن جبريل ثلاثة أيام، ويقال: سبعة أيام، وبعده شاه بن عمر بن شاهنشاه بن شاذى، ويقال: سبعة شهور وبعده الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبى بكر ابن أيوب.

ذكـــر الجنابذ وقتـــل الصـــليحى

هى ثلاث قباب مبنيات بالآجر المحكوك والجص، قريب بعضها من بعض، يكون ما بين كل واحد إلى الآخر مقدار أربعة أذرع، بناء الأمير على بن محمد الصليحى، وأراد أن يبنى من زبيد إلى مكة فى كل مرحلة من المراحل مسجداً

ورباطا يذكر به بعد موته، وما زال يبنى إلى أن وصل المهجم ونزل بظاهرها بضيعة يقال لها: بئر أم الدهيم، وبئر خيمة أم معبد.

قال سعيد الأحول بن نجاح: لما دخلنا إلى المخيم لم يشعر بنا إلا عبد الله بن محمد فركب وقال: يا مولاى اركب فهذا والله الأحول بن نجاح والعدد الذى جاء به كتاب أسعد بن شهاب البارحة من زبيد، فقال الصليحي لأخيه عبد الله: إنى لا أموت إلا ببئر أم الدهيم وخيمة أم معبد، ظانا أنها أم معبد التى نزل بها النبى ﷺ حين هاجر ومعه أبو بكر، فقال رجل لعلى: قاتل عن نفسك، فهذه والله بئر أم الدهيم بن عبس، وهذا المسجد هو خيمة أم معبد بنت الحارث العبسي.

قال جياش: فأما الصليحي فأدركه رفق اليأس من الحياة فأراق الماء فى سراويله ولم يَرِمْ من مكانه حتى قطعنا رأسه بسيفه، وكنت أول من طعنه، وشركنى فيه عبد الملك بن نجاح بطعنة، وأنا حززت رأسه بيدى ونصبته فى عود المظلة، وفيه العثماني يقول:

ما كان أقبح وجهه فى ظلها ... ما كان أحسن رأسه فى عودها

ودخل سعيد إلى زبيد يوم السادس عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، وقتل سعيد الأحول فى وقعة حصن الشعرين سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، فلما زالت دولة بنى الصليحي والحبشة وملك مملكتهم على بن المهدى وتولى بعده بنو مهدى عبد الله ومعاذ وعبد النبى فبنوا لعلى ضريحاً فكانوا يقولون لعساكرهم المهاجرين والأنصار: طوفوا حول تربة الشيخ على بن المهدى كما تطوفون بروضة النبى ﷺ.

وقالت العامة: جبل قوارير عرفات، والجنابذ الكعبة، والبئر بئر زمزم، وهذه التربة روضة محمد ﷺ.

ويقال: إن سيف الدولة أخذ من الجنابذ مالا عظيماً، والآن يسكن فيه قوم من الفقراء من ذرية الشيخ محمد بن أبي بكر بن أبي الباطل الصريفي.

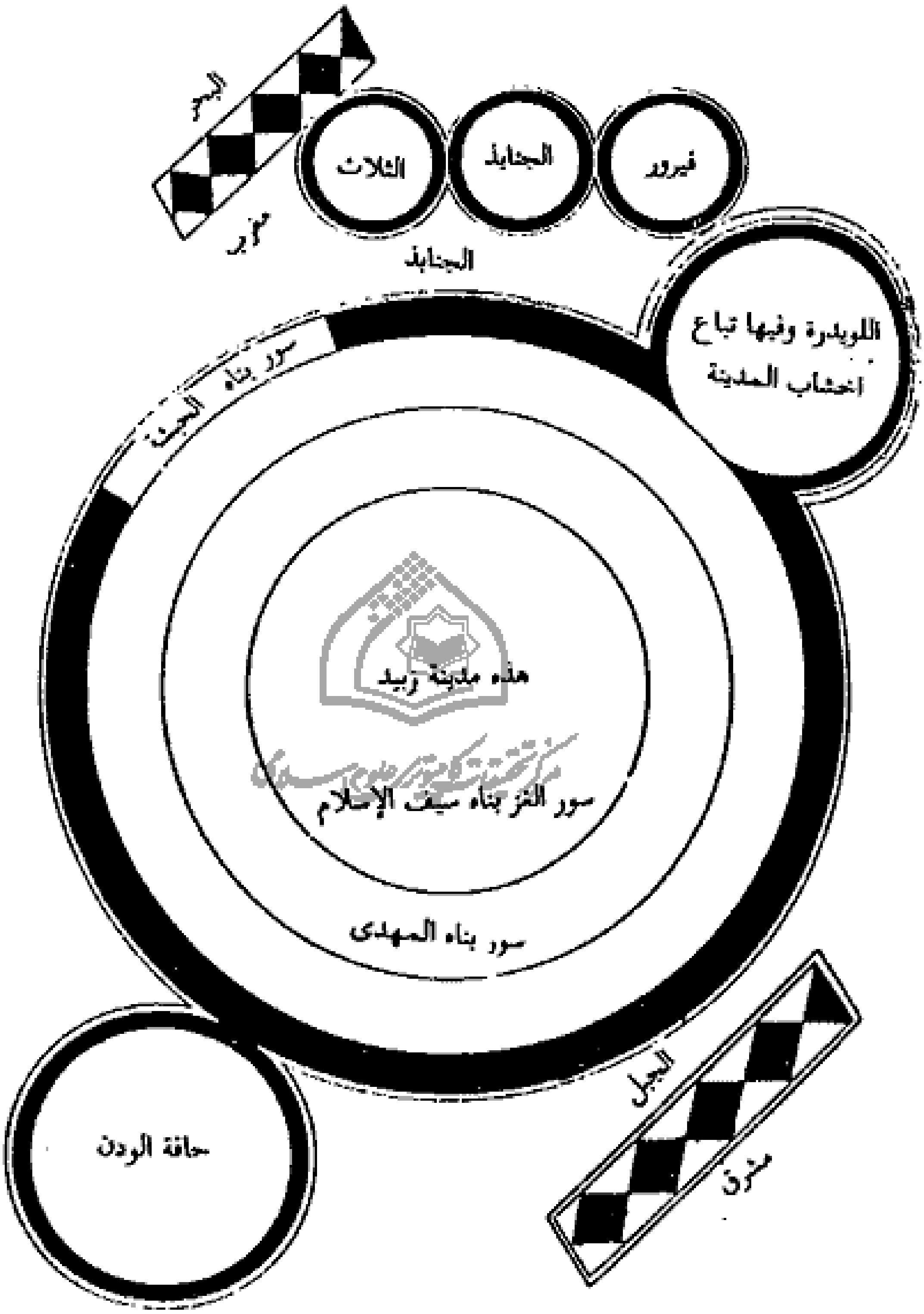
وقد أدار حول الجنابذ بدر الدين محمود بن جماز الفلاح الموصلي حائطا مربعاً، وقد بنى جمال الدين أبو الحسين علي بن محمد بن وهيب درجًا يصعد نيها إلى فوق القباب بحماره، فكان أهل زبيد يقولون إذا رأوه على ذلك: محمد قد ركب البراق وصعد إلى أعلى عليين، وكان آخرون يقولون: ركب عيسى حماره.

ويقال: لما بُنيت بنيت مساجد، وقيل: تربة بعض أهله، وكُتب داخل القباب بالذهب واللازورد ونقش في الجص نقشاً يبقى ببقاء العالم على هذا الوضع.

قال ابن المجاور: وصلت إلى المسجد في أواخر ذي الحجة سنة ست وعشرين وستمائة، وشاهدت مقتل[1] الصليحي، وكان قد بُني على أكمة كان بالقرب منها مسجد يسمى مسجد عرفات، ولم يبق من المسجد إلا رسوم وأطلال، وجميع تلك الأراضي التي هي حول المسجد ملك القاضي إبراهيم بن صالح الحاكم بالمهجم.

(١) اسم مكان من الفعل: «قتَلَ» أي المكان الذي قُتِلَ فيه الصليحي.

وهذه صفة مدينة زبيد، والله سبحانه أعلم وأحكم:



صفـــة دار شخـــار بـن جعفـر

لما أقام ابن زياد في زبيد بنى شخار بن جعفر دار الملك في زبيد ذات طول وعرض بالآجر والجص بناءً وثيقًا على مقاطع الطريق وكل من تولى بزبيد سكنها، وكان له باب عال بالمرة ينظرون منه مَنْ في الطريق على فرسخين، وحفر حوله خنـدق عظيـم عريض، وبقي الباب على حاله إلى أن هدمه المسعود يوسف بن أبي بكر سنة ثماني عشرة وستمائة، ويقال: إنما سعى في هدمه الأمير أيبك العزيزي، فلما هدمه أخذ آجره وبنى به دوراً، وكل ما بنى من آجره انقطع ذلك البنـاء من الأساس، وقد بقي إلى الآن آثار ذلك الباب والدرجة شبه الجبل العالي، والله أعلم.

ذكـــر انقطـاع العـرب من تهامـة

لما كثر نزول العرب بها قام القائد ريحان الكهلاني، مولى سعيد بن نجاح كبس للعرب ليلاً وهم مرتبون على باب زبيد وكانوا في ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف رجل، وحمل عليهم فلم ينجُ منهم إلا اليسير، وهلك الباقون، فسلّم العرب تهامة بعدها، والله سبحانه أعلم وأحكم.

ذكر النخل

أول من غرس النخل الأمير على بن محمد الصليحى، ويقال: الحبشة فى أول دولة علي بن المهدى، لما حضروا الحبشة وصلت عير من أرض الحجاز حملهم التمر فكانوا يأكلون التمر ويرمون النوى، فمن نداوة الأرض طلع النخل، فلما رأت أهل البلاد ذلك وعرفوا غرسه غرسوه وكثر النخل، وهو عشر قطع: الأبيض والكديحا والمجرشية والمحلة والأثيل والمجازع وكروة والمحجر والقهيرا والمغارس وحجنة، وكل واحدة من هذه القطع يكون عرضها وطولها ربع فرسخ، وأما الرطب الذى بها فثلاثة أصناف: حمارى وصفارى وخضارى، كلها ذات ألوان مختلفة، فإذا حمل النخل يتقبل كل واحد من الناس على قدره، ويجىء إليه الناس من باب حرض إلى آخر أعمال أبين وينزل أهل الجبال إلى تهامة، وكم من امرأة تطلق من جهة النخل وكم تنكح امرأة من جهة النخل قال الشاعر:

هذا الشقح واللقح والطلع منه قد افتتحْ
يا غازلاتِ اغزلوا فالنخل قد صار بلحْ

وقال آخر:

من عرف النخل والقبالهْ أمسى وفى قلبه ذبالهْ
وعاش فيه معاش سوء وناله الدَّين لا محالهْ

ويقيمون الناس فى النخل مدة شهرين أو ثلاثة ويكون غالب أكلهم الحموضات

والملوحات، وهم في لعب وضحك وشرب، ويعمل من التمر والبر والرطب نبيذ يسمى الفضيخ يصح عمله في يوم وليلة ويشرب النساء مع الرجال، ويقولون: إنه ينفع، لكن مضرته أكثر من نفعه[1] وأول من عمله في هذه البلاد رجل من أهل الشام، ويحصل منه كل عام تسعين ألف دينار غير الذى يصل إلى الخزانة وعمال السلطان ونواب الديوان وغير النخيل السلطانية والأوقاف وغير الذى لأرباب الجاهات وأصحاب الدولة، يصح من جميع ما ذكرناه مائة وثلاثون ألف دينار، وكان ضمانه فى دولة الحبشة وأيام بنى المهدى كل عام سبعون ألف دينار، وما يأخذونه نقداً، بل تمراً، ويخرج حوالات والصرف ثلاثة جوز درهم، وكل أربعة دراهم دينار، وكل أربعة دنانير ونصف بدينار أحمر.

وما رجع خراج النخل كذا إلا أن سيف الإسلام أوصى طغتكين بن أيوب بالعدل على أهل الحرث والظلم على أهل النخل، فهو الذى ابتدى بهم من عهده، فقيل له فى ذلك فقال: إن الفلاح يحرث ويسقى ويبذر ويحصد ويعزق ويذرى فى الهوى ويجد مشقة عظيمة فالواجب أن يُرفق بهم [أما] أصحاب النخل فإنهم يجنون الثمرة من العام إلى العام بلا عناء ولا تعب كما قال الله تعالى: ﴿ **والنخل باسقات لها طلع نضيد**﴾[2] وكل نخل يهرب منه صاحبه يأخذه السلطان على كيسه بالخراج الذى عليه له، وكل نخل يأخذه السلطان يسمى الصوافى، أى يصفى لبيت المال.

(1) يراجع هذا الموضوع بتوسع فى كتاب: «الأشربة وذكر اختلاف الناس فيها» لابن قتيبة، تحقيق/ ممدوح حسن محمد، من إصدارات: «مكتبة الثقافة الدينية».

(2) الآية: ١٠ من سورة ق.

قال ابن المجاور: وبلغ مال النخل سنة أربع وعشرين وستمائة مائة وعشرة آلاف دينار نقداً غير ما حمل إلى الخزانة، وفي هذا العام قال أهل زبيد:

ما شاء النخل ولا شاء زبيد، يعلق بالمليمة ويضرب بالجريد.

وما استخلص هذا المال إلا الأمير الوالي الصارم مابس الكاملي، كان من وزن قبالة وزن مثله مضاعف، فإذا فرغ النخل خرج الصغار مع الكبار والأخيار مع الفجار بالطبل والزمر بعدما يكبسون جملاً عدة تامة من الأجراص والقلاقل ويشد في رقبته المقانع والحلي، ويركب كل أربعة من الناس على جمل، وناس منهم على الشقادف، يمشون إلى مسجد مشرف على ساحل البحر، والموضع موضع مبارك فيه وطئة ناقة معاذ بن جبل وإثر كلكلها لما رجع من اليمن إلى الحجاز بعد وفاة النبي ﷺ عبر على هذه البلاد والسواحل، ويسمى هذا الموضع الفازة، أعني الذي يتبحرون فيه، وينزل فيه النساء مع الرجال في البحر خليط مليط وهم في شرب ولعب ورقص وقصف وزائد وناقص، وما يخرج إلى هذه الأماكن إلا في كل أسبوع يومين: يوم الاثنين ويوم الخميس، وإذا رجعوا من هنالك دخلوا البلد رأساً واحداً.

ذكر شجر الكاذى

هو شجر يطلع في ناحية مسجد معاذ بن جبل يشبه النخل، وهو ورد على هيئة الصبرة التي تزرع في العراق والهند في المراكز في سطوح الدروب ولكن ورق الكاذى رقيق شبه خوص النخل ذات شوك خشن، لم ينعقد ورده إلا من برق البرق، فإذا برق البرق طلع منه كثير بالمرة، وإن لم يكن البرق لم يكن منه شيء، وهذا

شىء عجيب ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾[1] وكذلك لا يستدل على إقليم الجاوة مسافرو البحر إلا بكثرة لمع البرق، لأنه يكون فى أيام موسم سفارة الجاوة الأمطار كثيرة، ويستد الأفق بالغمام ويشتد هيجان البحر.

وقال آخرون: إنه يطلع فى تلك الأعمال شجر السندروس كثيراً، فإذا جرى السندروس من شجره بان لأهل السفارة البحر كلمع البرق وذلك من كثرة الأمواج التى ترفع المركب وتهبطه.

ويقال: إن الكاذى يتربى من البرق، وكذلك الحَنُّون لم يُفتح إلا فى الليالى البيض، والخيار يدور مع دور الشمس والليلوفر، ويزيد مد البحر فى الليالى المظلمة، وكل خشب يُقطع فى ليالى البيض يسوس، وكل خشب يُقطع فى نقص القمر يتلفه السوس، ولم يقطع الطواحين إلا فى الليالى البيض، وينقطع جميع مياه الأرض عند طلوع سهيل، ولم تصح دباغة الأدم إلا به، وقال ربان بن جبير: إذا طلع سهيل نقص ماء البحر أربعين ذراعاً.

وأما ورد الكاذى فلم يكن فى سائر المشمومات ألذ منه رائحة ولا أطيب منه، وماؤه بارد يابس، ينفع لمن هو محرور رطب، ويسمى عند الهنود كيورا.

(١) الآية: ٨ من سورة النحل.

صفة زبيد

سماها النبى ﷺ أرض الحُصيب، لأن النبى ﷺ قال لمعاذ بن جبل: يا معاذ، إذا وصلت أرض الحُصيب فهرول، فإن بها نساء يشبهن حور العين. قال الهُبيتى:

وقل لجناتها سأبدلها سيلاً كسيل مأرب عَرِما
أيُشرب الخمر فى ربا عدن والسمر والبيض فى الحصيب ظِما

وله أيضاً:

ولرب يوم بالحُصيب وردتها بالقطب كان على الأعاجم أكرهُ
وعواصفٌ بحصيبة عصفت على خُشانها وعلى الدعى الوَهْوَهُ

ولابن المجاور:

محب ومحبوب قضى الدهر فيهما
ببعد وهل للشمل جمعٌ مهذبُ
فها ذاك فى أرض الحجاز مُوَسوَسٌ
وهذاك فى أرض الحصيب مُعذبُ

وتسمى أرضها تِهامة، وأما تُهامة فإنها قطعة من اليمن وهى جبال مشتبكة، وكلها مشرف على بحر القلزم[١] مما يلى غربيها، وشرقيها بناحية صعدة وحرض ونجران، وشماليها حدود مكة، وجنوبيها من صنعاء على نحو عشر مراحل،

(١) هو البحر الأحمر.

وتسمى في عدن الشام وتسمى في المهجم اليمن، وتسمى عند آل عمران كوش، وتسمى باللغة المعروفة زبيد، من إقليم اليمن لأنها أيمن القبلة.

وقال النبي ﷺ : «إني لأجد نفَس الرحمن من قبل اليمن» والمعنى في قوله لأويس القرني وكان يتنفس شوقًا إلى النبي ﷺ ولأجل هذا أخبر النبي ﷺ بهذا الخبر.

وقال النبي ﷺ : «الكعبة يمانية، والركن الأيمن يماني، والإيمان يماني» .

وذكر النبي ﷺ في معنى اليمن أخبارًا كثيرة، ويقال: سُهيل اليمن وجَزْع اليمن وعقيق اليمن، وقال الشاعر:

بَعُدتَ ورب العرش عمن تُحبه　　هواكَ عراقي وأنتَ يماني

وقال آخر:

قالت لأخت لها تُبدى مراجعة　　وما أرادتْ بها إلا لتُقلقَنى
بالله قولي له من غير معتبةٍ　　ماذا أردت بطول المكث في اليمنِ

وقال آخر:

وما غريب وإن أبدى تجلده　　إلا سيذكر بعد الغربة الوطنا
إلا العراقي والمصرى فإنهما　　لا يرجعان إذا ما شارفا اليمنا

وقال قيس بن الملوح العامرى:

ألا لا أحب النسر إلا مُصاعدًا　　ولا البرق إلا أن يكون يمانيا

وقال ابن المجاور:

كرا من بر اين همى نبستم　　جسرا ديده أم چون عدن

آه ابن آدم بسوزد هرچه هست وآه واه ويلى مخ اردان سمن

وللحسام الكرمانى:

كفتم: رخ تو چيست؟ كل سرخ يا ياسمين؟
كفتا: كليست ريخته بر بركـ ياسمين
كفتم: به شكر است لبان تو يا عقيق؟
كفتا: به شكر است وعقيقى نه از يمن

تفسير هذا الشعر الفارسى الذى للحسام الكرمانى باللغة العربية:

قلت له: وجهك الورد أو الياسمين؟ فقال: هو الورد المنثور على ورق الياسمين، قلت له: شفاهك السكر أو العقيق؟ فقال: هو السكر والعقيق لا العقيق الذى فى اليمن، أى المكان الذى يسمى عقيق اليمن.

ولابن الرجا:

زآن عارض چون آتش وآن خط چو نسرين
خسوانند بهارى بهمه انجمن اورا
اين بار عجب تركى بجهره چو بهارست
وآنكاه برخساره سهيل يمن اورا

تفسير هذين البيتين باللغة العربية:

من الخد النارى والخط النسرينى يدعى الروض فى كل محفل، والعجب من ذا أن خده كالروض ووجنته كسهيل اليمانى.

وظاهر هذه البلد حار وباطنها بارد ياس وجوها مضر بالزعفران لأنه يسوس في أيام قلائل، والأصح أن الزعفران يرجع يابساً من ذاته إذا فُتح رأس الكيس طار اليابس في الجو وهو الزعفران والجسد لا يزال يحول إلى أن يرجع تراب تارب، وماء البلد من الآبار، وأهلها سمر كحل كواسج ضعاف التركيب محلقين الرءوس، وكذلك جميع المغرب والإسكندرية وأهل مكة والحبشة والبجاة، لم يحلق المرء رأسه حتى يقتل إنساناً، ونساء الزنجبار والجوار الزنوج وأهل خوارزم وشعشعين وبلغار وبقايه واللابن والدباليه، وجميع هؤلاء القضاة منهم والصوفية والأئمة والعامة كبعض الحجاج، كما قال الله عز وجل: ﴿محلقين رءوسكم ومقصرين﴾[1] والأطفال واليهود وحجاج الهنود وجميع أعمال اليمن من أهل الجبال والتهائم، ونساؤهم خلقات وهن رخوات التكك، وفي كلامهم كثر غنج وهذا دليل على أن شهوة نسائهم أغلب من شهوة رجالهم، فلذلك يستعملون الطيب لأنه يهيج الباه.

وقال مكحول الشامي: عليكم بالطيب فإنه من طاب ريحه زاد عقله، ومن نظُف ثوبه قل همه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كنت تاجراً لما اخترت على العطر شيئاً، إن فاتني ربحه لم يفتني ريحه.

ونساء أهل هذه البلاد لا يأخذن من أزواجهن المهر، وأخْذُ المهر عندهم عيب عظيم، وكل امرأة تأخذ المهر من زوجها يسمونها مفروكة، أي إن زوجها أعطاها مهرها وفركها، أي طلقها، فإذا رجع الأمر إلى ذلك تقل رغبة الرجال فيها لأن الزوج الآتي يقول: أخاف أن تأخذ مني المهر كما أخذت من غيري، وقد

(١) الآية: ٢٧ من سورة الفتح.

لا يكون للرجال طاعة في أداء المهر وتقول النسوة فيما بينهن: إن ما قدر زوجها يخرجها من عنده إلا بمهرها لقلة رغبته فيها فيركبها العار.

فإذا أراد رجل يتزوج امرأة تجيء نساء الحافة بلا مخافة إلى المرأة ويقلن لها: افركي زوجك قبل أن يَفْرَكَكِ، أي: هبي له المهر واخرجي قبل أن يزن المهر ويخرجك، ويفعلون الطرح في الأفراح والأعراس على ما تقدم ذكره في صفة مكة.

فإذا أعطت المرأة في عرس رد إليها في عرس مثله، وإن كان في ختان رد إليها في ختان، وإن كان في الولادة رد إليها في الولادة، ولم يُرد الشيء إلا في الوجه الذي كان منه وفيه بعينه.

وحدثني أحمد بن مسعود قال: ولم تفسد المرأة في اليمن إلا من جهة الطرح، قلت: ولِمَ ذاك؟ قال: لأنه يكون للنساء عليها سلف ولم يكن معها ما تقضي به الذي عليها فتخرج على وجهها إلى غير طريق فتهيم فتحتاج فتكتب لهم إلى أن يحصل لها شيء فترد مال الناس الذي عليها، وليس يقبل منها يمين ولا شاهد إلا قول المرأة على المرأة مصدق.

ويخضب الرجال أيديهم وأرجلهم، وطبيخهم الملوخية، ومأكولهم الدخن والذرة، ويعمل منه الخَفوش والكُبان واللحوح والفطير، يأكلونه باللبن، والسمك ويسمونه الملتح، والجبن والموز والقند والحليب، وليس لهم حديث سوى الأكل، يقول زيد لعمرو: ما تصبَّحت اليوم؟ يقول: فطير دخن وقطيب، أو: ملتح وسليط ويقول مضر لجعفر: ما تعوفت؟ يقول: رغيف خبز بر بفلس وقطعة حلاوة بأربعة فلوس، فصار المبلغ ستة فلوس [كذا] ويقول خالد لزيد: إني أكلت اليوم أكلة

تكفيني ثلاثة أيام، فطير وحليب وقند شرقي وترفتُ إلى أن شبعتُ، وفي ذلك أنشد علي بن أبي علي السنوي يقول:

قلت يوماً لرئم ذات إعجاب ... وذات صدر رحيب ذات إكعابِ
وذات قد رشيق كالقضيب إذا ... ما ماد من فوق دعص الرمل ريّابِ
وقد أشارت بكف وهي معرضة ... وأقبلتْ مثل ظبي بين أسرابِ
تريد مني وصالاً؟ قلت: يا سكني ... رِفقًا عليّ فإن الجوع أزرى بي
خذى الثريد إذا ما جئتِ مقبلةً ... نحوي ولا تأخذي مسكًا وأطيابَ
واستعملي من فطير الدخنَ مع لبنٍ ... وصابحيني به صُبّحًا على البابِ
فإن قلبي إلى حب الفطير صبًا ... وليس قلبي إلى حب النسا صابي

وفواكههم البطيخ والموز والعنب، والبطيخ يسمونه البرطيخ، والقثاء والخيار ويأكلون بطيخ الدباء مشوي في التنور، وينادي عليه: دباء حب حب، كثير الماء قليل الحب، ومشمومهم البُعيثران وهو الشيح الأبيض وثمر الحناء وهو الحنون.

قال ابن المجاور: وأول ما شممته بمُولْتان وذلك أن المولى عز الدين شمس المُلك ملك التجار يحيى بن أسعد البلديّ ناولني ثلاث أو أربع طاقات، وما كنتَ قبل ذلك رأيته ولا شممته، فقال لي: ما هذا؟ فقلت له: ثمر الحناء، قال: وبِمَ عرفته؟ قلت: لثلاثة وجوه: للونه ورائحته وبرودته، وقد تقدم ذكره.

وأول ما رأيتُه في الديْبول سنة ثماني عشرة وستمائة، وخاصيته أنه إذا كان مع زيد شمه عمرو، والبنفسج لم تعبق رائحته إلا مع الرجال، ولم تعبق روائح البَرَم إلا مع النساء، والحِباق، وهو الريحان، ويسمى وردة الحماحم.

واسامي اهل هذه البلاد

حنكاس ويعفر وغسطيط وزبرقان وزنقل ودعص ومحلس وزبير وحمسيس وعطعط ودعدع وبرياح وجدير ومابس وشقداف وعطوط ودعّاس وبليسه ومطعون ومطحون ومحمطة وفنتاص وطي وصبيعة وسندع وقبيع وعرطبيع ويكمى وجرياح وقعص ويمماب وسحوا وربطح وشمم وعبور ومبدع والحبوب ورعية وحنبل وفحم وجحوش وأبجر وقعيش وسحدر وفشلي وكسكاش وفاوا ومرسب وفخم ودنكل وكعدل ورلينا وكليبي ورقرق.

ويقدمون أهل هذه البلاد الهاء على الواو في هجاء حروف المعجم خلاف جميع الناس كما يقال: واو هاء، وهو: هاء واو.

حدثني محمد بن أبي سعيد القاضي الرازي قال: سمعت ببعض البلاد يهجون الصبيان على هذا ونوافقهم على هجائهم، وما هجاؤهم إلا أصح، قال: ولِمَ؟ قال: ﴿هو الله أحد * الله الصمد﴾[1] قال: بل هجاؤنا أصح: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾[2].

وغالب البلد على مذهب سراج الأمة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي التابعي، رضي الله عنه، وما يقوم سوق البز في هذه البلدة إلا وقت القائلة بعد صلاة الظهر، لأن جميع الناس بيعهم على العشيرة، لأن أحدهم يدخل ومعه شيء يريد

(١) الآيتان: ١ ، ٢ من سورة الإخلاص.

(٢) الآية: ٣ من سورة الأنعام.

يبعه، فإذا باعه وحصل ثمنه يكون قد قارب الظهر ويتغدى ويدخل السوق، وكل أرباب البيوتات حكارين الغلال مثل الدخن والذرة والجلجلان وهو السمسم.

ويتعاملون الجند العشرة بخمسة عشر إلى مدة ستة أشهر وقت الغلال، وتكال الغلال بالمد، والمد اثنان وثلاثون ثُمْنًا، كل ثمن اثنان وثلاثون زَبَدِيّ، كل زبدى مَنٌّ، كل من رطلان، كل رطل مائة وعشرون درهماً، كل درهم ثلاثة عشر قيراطاً، ويسوى الدينار المصرى أربعة دنانير ونصف ملكي، والدينار أربعة دراهم، كل رُبع ثلاثة جُوَز، كل جائز ثمانية فلوس، كل فلس أربعة دوارس.

وأول من ضرب الدرهم الكبير الملك المعز إسماعيل بن طغتكين وزنته ثلاثة عشر قيراطاً، وفي الأول كانت الدراهم العباسية وبعده السيفي وزنه أربعة قراريط وحبة، ويباع الشيرج بجرة والسمن بجَمنة، كل جمنة خمسة أمنان، ومَنٌّ الحرير مائتان وستون درهماً، ومَنٌّ اللحم أربعمائة درهم، وتُباع العصارة والقطن والهدس والشيذر بالمد له عن خمسة أمنان بالكبير، وسنجة عدن أقوى من سنجة زبيد بشيء يسير، وتُخرج من زبيد البُردة ثمانية أذرع باليد ويشد حملها مائة واثنان وعشرون بردة شد الشحر.

وشقق الحرير والبيض طول الشقة عشرون ذراعًا بالحديد، وطول البَيْرَم ستة أذرع والسباعية سبعة أذرع، وهي صنفان: أحدهما حرير صرف، والثاني خِلْطُ حرير وكتان في عرض أربعة أذرع، والملايات والجراب وفوط سوسى.

والزنجبيل المربا لونان: المقصوص منه قليل العسل والمطحون هو الجيد، والتمر الهندى أجوده المقلس، والأدم يُباع بالعدد، وضمان المدبغة ثلاثة عشر ألف دينار،

ويخرج إلى الحجاز التمر والدخن والذرة ويؤخذ إلى الحبشة الجوارى العشارية والخرز وضمان البلد سنابيق الصيادين والجالة والخضر والبقول التى تباع مع الغلال، وما يُدخل من الباب تسعون ألف دينار ملكي، وضمان دار الضرب ثلاثة عشر ألف دينار، ودار النبيذ اثنا عشر ألف دينار، وضمان النخل مائة ألف دينار، والله أعلم وأحكم.

من المهجم إلى زبيد

إلى الكدراء خمس فراسخ.

ذكر المغلف والأسيخلة

هما قريتان من أعمال الجُثة، تسمى إحداهما المغلف والثانية الأُسَيْخلة، فبينما القوم فيما هم عليه من أحوالهم، الرجال تحرث، والنساء تغزل، والحمير تتناهق، والكلاب تتنابح، إذا ارتفعوا من الأرض إلى الجو، رجالهم ونساؤهم، وغابوا عن أعين الخلق إلى يوم القيامة، ولم يدر أحد ما أصابهم ولا ما فعل الله بهم ولا ما كان منهم، سنة أربع وستين وخمسمائة، فبقوا مثلاً إلى يوم الدين، فيقال: طار بك برق المغلف والأسيخلة.

وخُسف بقرية العمالق من أعمال الأشعوب يماني صنعاء، وأصبح الصباح ولم يوجد عن القرية وأهلها ودوابهم من يخبر، سنة خمس وستين وأربعمائة، فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وإلى المهجم ستة فراسخ وهذا يكون بساقات عشيرة اليمن برص لكثرة أكلهم اللبن والسمك تغلب عليهم الرطوبات فيظهر عليهم ذلك، والأصح أنهم قليلون الكلف في أصناف الأمور لتخليتهم الخبز والأدم مكشوف والبلاد حارة كثيرة الأوزاغ، فإذا خلى رأس الإناء أو الطعام مكشوف يأكل الوزغ منه فيبقى أثر لعاب فيه فمن أكله ظهر به برص، ويقال: إنه طير شبه النامس أصفر اللون ويسمى البرة إذا قرص إنسانًا على الريق ظهرت فيه هذه العاهة والآفة، ويقال يظهر فيه داء الفيل، والله أعلم.

من زبيد إلى عدن
على طريق الساحل

من زبيد إلى المزيحفة فرسخ، وما سميت المزيحفة مزيحفة إلا أنه كان في قربها حلة عرب نُزّال ببيوت شعر فانتقلوا من الحلة إلى هذا المكان فكان يعرف المكان بالمزيحفة، كما يقال: زحف فلان إلى فلان، أي انتقل، وبنى بها موسى ابن الجبلي مسجدًا من الآجر والجص.

وليس في الجوالي ثغر أطيب منه ولا في وادي زبيد، وشجرها الإهليلج، وإلى السحاري ثلاث فراسخ، وبعرس عويد والشكالين والريبة والعريقين، وهي ثلاث رواب ذات شجر وأراك، والسحاري على ساحل البحر ذات نخل شامخات.

ذكر بيع النخل

غرس أبو القاسم ويعقوب، ولدا قونفر، هذا النخل ونشأ النخل وطار له صيت، فسمع بخبره أتابك سنقر فقال للعمال: حيفوا عليهم في العدد واظلموهم في خراجه، فلما فعل العمال بهم ذلك استغاثوا مما جرى عليهم من العمال، فقال لهم أتابك سنقر: بيعوني وأريحوا أنفسكم من ظلمة فقالوا له: اشتر منا على وجه الجرد، فقال لهم: بعتموني كل نخلة منه بدرهم؟ فقالوا: قد بعناك، فقال لمن حضر: اشهدوا على أني اشتريت منهم، وأمر بعد النخل فصح عده ألفي عود، فأعطاهم خمسمائة دينار، والنخل قطعتان، تسمى إحداهما الفازة والثانية القبة.

فلما قبضه الأمير ندما على ما صنعا واستقالوا منه فأبى أن يقيلهم، فلما رأى أحدهم عين الغبن حمل على الأمير فطعنه على قلبه فمات، وبقي النخل سلطانيا إلى الآن ولن تحل نخلة إلا من بعده، وليس في جميع هذه الأعمال أحسن من هذا النخل ولا أصح من غرسه ونُشُوه.

ويقال: إنما ظلم سيف الدين سنقر إلا أصحاب المِمْلاح بعدن، وأصحاب هذا النخل من دون الخلق.

وإلى الخوهة نصف فرسخ، وبها مسجد مربع بناه الحسين بن سلامة، وفي صحن المسجد صخرة مربعة، وفي الصخرة وطأة ناقة معاذ بن جبل رضي الله عنه.

وفي المسجد سر عظيم: إذا كان في القرية خوف رمى أهل القرية ما كان

معهم من المتاع والأثاث في المسجد وتنجوا بأرواحهم، فإذا دخل أهل الشر إلى المسجد لم يؤخذ من المتاع شيء ويعمي الله تعالى أبصارهم.

ويقال: إن المسجد يغيب عن أعين الناس، فإذا نام به رجل لم يكن طاهر السبب يرى وجهه يُرمى به عند البئر ظاهر المسجد.

ويؤخذ منها مكس عن كل حمل السدس مع جبا صنايق الصيادين، كل شهر سبعون ديناراً.

وإلى موشج فرسخ، قرية ذات نخل شامخات، وإلى الحليلة فرسخان بين رمال وحصى وأشجار، وبها يعمل القِلا وهو الحُطُم، ومنه يُجلب إلى سائر أقاليم اليمن، ويكون فيها الصبايا الملاح والنساء الصباح، وفيهن ذات فسق، وفيهن ذات صلاح، يكتمن العشق المباح، قال:

أمحسن في واحجَةْ وفي نواحي أمجدونْ
وفي الحليلة أكثره لكنهم يعجَلونْ

وسألت أهلها عمن بناها فقالوا: لم نعلم، بل إن جدودنا كانوا قوم بدو دخلوا هذه القرية فوجدوها خالية من السكان فلما استطابوا بها سكنوها فتوطنوها.

وإلى موزع ثلاث فراسخ، وهي أرض مهلهل وكليب، وبها كانت حرب البسوس.

وكانت فيما تقدم من الأيام هذه الأعمال أعمال بني مجيد بنوا بها القليعة، فخربت القليعة لاختلاف أهلها، وسكن بعدهم جماعة من أهل جزيرة فرسان في أواخر أيام سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وبقيت في أيديهم إلى الآن، ويؤخذ بها

مكس من كل حمل نصف ربع، وثغر بين الربدة وبين مرسان والسالمية والاسجار والنجاجبة والفريملة.

وإلى العمرية ثلاث فراسخ حفرتين في وادٍ، واشتهر هذا الوادى بهذا الاسم، على ما ذكره غزى بن أبى بكر الحجازى أن امرأة جاءت بهذا الوادى تسمى عمرية فأصابها عطش شديد فصعدت إلى ذروة هذا الجبل على إثر سيل السيل من فضل الغيوث فحسبته ماء، فلما وصلته أيست فماتت من شدة العطش، فعرف الوادى والجبل بهذا الاسم يعنى اسم عمرية، وحفرت البئر بعد الموت وسميت البئر باسم الجبل، كما قال:

تحيرتُ فى أمرى وانى لذائبٌ أدير وجوه الرأى فيه ولم أدرِ
أأعزم عزم الناس والصبر دونه أم أقنع بالإعراض والنظر الشزرِ
فديتُكِ لم أصبر ولي فيك حيلة ولكن دعانى اليأس منك إلى الصبرِ
تصبرتُ مغلوبًا وإنى لموجعٌ كما صبر العطشان فى البلد القفرِ

وقال روية النكبى:

كذرى پيش من نكاه كنم سُوى رُخْسار تو ربوده دلى
همجو در دشت كربلا سوى آب نكه تشنكى حسين على

تفسير هذين البيتين باللغة العربية يقول: تمر بى وأنا أنظر إلى وجهك وأنا مسلوب الفؤاد كما كان ينظر الحسين بن على فى كربلاء من عطشه إلى الماء.

وإلى عِبْرة ثلاث فراسخ، بئر حفرت فى بطن وادٍ مشرف على البحر المالح،

وما سميت بهذا الاسم إلا أن ماءها يشابه عبرة الإنسان في الصفاء، ويقال: بل عبرة تعبرها القوافل، وكان السبب على ما حكى غزىّ بن أبي بكر الحجازي أن أهلها كانوا جبابرة، ومن جملة خبرهم أنه إذا ضاق على أحدهم الرزق من وجوه الشقا والكد والطلب لم يستحسن يطلب من أحد ولا يبذل ماء وجهه إلى أحد فكان يحفر حفرة كبيرة يدخل فيها هو ومن معه ويموتون جميعاً لئلا يعلم بحالهم عدو يفرح أو صديق يهتم، كما قيل:

وكم قد رأينا من فتًى متجملاً ... يروح ويغدو ليس يملك درهما
يراعي نجوم الليل مما يصيبه ... ويصبح يلقى ضاحكًا متبسما
ولا يسأل الإخوان ما في يديهم ... ولو مات جوعًا عفةً وتكرُّما

وقبور القوم باقية في ما بين كل قبر منها مقدار دار عظيم، فسميت العبرة، فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولم يتحقق عند ابن المجاور أنهم كانوا مسلمين أو غيرهم من أهل بعض الأديان، وبقي آثار الخسف والحجار بها.

فصل: حدثني بدوي من أهل البلاد بهذا المنزل سنة تسع عشرة وستمائة أنه جاز بهذه البئر رجل غريب فسألني عن جبل الحايلة ونجوان والناجية فأنبأته عن الثلاثة الجبال فقلت له: ما شأنك تسأل عن هذه الجبال؟ قال: إني قرأت في بعض الكتب أنْ ما ينجو في آخر العهد إلا من سكن هذه الثلاثة الجبال، فقلت له: فأي الجبال هم؟ فقال: نجوان، وهو جبل بُني عليه حصن عزان، والجبلان الآخران بقربه، والله أعلم.

صفة باب المندب

لم يكن هذا البحر بحراً في قديم العهد، أعني بحر القلزم، وإنما هو بحر مستجد، فتحه ذو القرنين، ويقال: بعض التبابعة، وكان الموجب على ما ذكره جماعة من أهل البلاد، منهم: الأمير أبو الطامي جياش بن نجاح في كتاب المفيد في أخبار زبيد، قال: لما وصل ذو القرنين إلى هذا الوادي نظر فوجد به شدة الحر ففتحه، أي نقر صدر الوادي، فخرج البحر وخرج عرق منه إلى القلزم ووقف عنده.

ويقال: إن أرض الحبشة كانت متصلة ببلاد العرب، فقال ذو القرنين: أردنا أن نفرق ما بين الإقليمين ليعرف كلٌ صاحبه ويجوز كلٌ أرضه وبلاده وينقطع ما بين القوم من التغلب والتعدي.

فلما فتح البحر افترق الإقليمان كل إقليم بذاته، فصارت الحبشة تخوض البحر بالخيل والرجل تغزو أرض العرب، وبنى بعض العرب على جبل المندب حصناً يسمى بِعدٌ ومد بسلسلة من بر العرب إلى بر الحبشة معارض، فكل مركب يصل يمر تحت السلسلة حتى كان يخرج منه، ويسافر إلى أي جهة شاء وأراد، وبقي الحصن على حاله إلى أن هدمه التبابعة ملوك الجبل، ويقال: بنو زريع ملوك عدن، والأصح الحبشة ملوك زبيد، ورُفعت السلسلة، وبقي أثرها إلى الآن.

ويقال: إن في ذلك الزمان ما كان لسفّارة البحر جواز إلا على باب المندب، لأنه كان أغزر موضع في البحر، وكان ما بقي منه أفشات ووضح وبطون والأولاد

يلعب الماء بها، والآن صارت المراكب تسافر من وراء ظهره، وهو بحر عميق طويل عريض لكثرة المياه، ولزيادة المياه ونذكر ما بقي إذا وصلنا عدن، ويوجد في سواحله العنبر وغالب ما يجده الصيادون.

ذكــــر الفقـــرات

وفي أواخـر بطن الوادى، يعنى العـمـرية، ثلاث تلال حَصًا يكون بين كل واحدة إلى الأخرى مقدار ثلاثين ذراعاً زائداً لا ناقصاً، فسألت عن حالهم فقال لى بعض الحمالين: إن هذه التلول أثر ثلاث فقرات فقرها بعض الجبابرة فى زمن الجاهلية، على كل فقرة تل حصاً ليعرف، وهى من جملة العجائب، وثغر بين المأجلية وبين السقيا، ويسمى هذا الخبث مطاراً لأن ما يروى بها أهلها الماء إلا أيام المطارات، وعلى عين الدرب أثر مسجد فيه أثر ناقة معاذ بن جبل، رضى الله عنه، وهو موضع فاضل.

وإلى العارة ثلاث فراسخ.

بنــــاء المـــزدويــة المــــرة

فلما قتل النجاشى بأرض الحبشة ونجا من نجا من القتل وسكن هذه البلد سميت المزدوية لأنهم ازدووا بأرواحهم لئلا تعطب كمولاهم وسلامة خدامه دون الغير.

قال ابن المجاور: وما سميت المرة إلا أن حياتهم رجعت مرة لتشتتهم من أرضهم وبلادهم ومفارقة الأهل والولد، فلما انقرضت تلك الأمة سكنها قوم عرب سموهم المربين، وبقوا سكانها إلى أن حُجزت البلاد وضاعت العباد فارتحلوا منها.

حدثني ريحان، مولى علي بن مسعود بن علي، قال: إنهم نزلوا بريرة وأعمالها وبقي نسلهم في بر السودان المعروفين بالمربين، وهم الآن ذوو قبائل وعشائر، وبَنَتْ بعدهم العرب مدينة الأخضرين فوق العارة.

حدثني يوسف بن حميسيس بن أبي بكر قال: إنه كان مسكن الصيادين، والدليل على ذلك أنهم إلى الآن يجدون عظام السمك.

حدثني موسى بن ديفل قال: بل كانت مدينة عظيمة، فلما خربت بناها الفرس الواردون من أهل سيراف المندرية تحت العارة على هذا البحر، وبها آثار جامعين كبيرين ومساجد وطواحين الغلال وطواحين القرظ تُرى بين شجر الأراك.

قال ابن المجاور: وكل مدينة بناها الفرس من أهل سيراف بنوا فيها المدابغ وعملوا بها طواحين القرظ، ولا شك أن القوم كانوا دباغين.

وقال حكيم: لم يخرج من اليمن إلا وغد أو رائض قرد أو دابغ جلد.

وقال لي أخي أحمد بن محمد بن مسعود: وكيف هذا؟ قلت: كانوا يدبغون الأدم ويُجلب إليهم من أعلى مكة ونجران إلى عُمان ومن حلى بني زهرة إلى كرمان ومن كبس وجناتة وفارس ومن بني مكرمان ومن زيلع ورحيتو والمندرية من عدن إلى مكة، وكان بنزف جميع هذا الأدم إلى العراق وخراسان وكرمان وما وراء

النهر وخوارزم وهجر فكان يتفرق في أقاصي الأرض ودانيها، وما كان يبان كما يتزف في عصرنا هذا للقوة من ما بين سائر الأمكنة برًا وبحرًا إلى الهند، ولم يؤثر جميع ذلك فيها أثرًا كما يقال: لا تنظر إلى طول المنارة ولكن انظر إلى الجامع.

ذكـر حشمـة أهـل المنذريـة

حدثني رجل من أهل الحجاز قال: إنما كان مأكول الفُرس من أهل سيراف السمك الضيراك، ففي بعض الفصول يَعدم فعند عدمه خرج غلامان لتاجرين ليشتريا ضيراكًا، إذ أقبل الصيادون بضيراك فتزايد فيه الغلامان إلى أن بلغوه ألف درهم فاشتراه أحدهما، فلما دخل الغلام بالحوت على سيده استحسن منه ذلك وأعتقه وأعطاه ألف درهم يتعيش منها، وأما ما كان من الغلام الآخر فإن سيده من غيظه عليه أهانه غاية الإهانة، لما أن غلام زيد غلبه في الشطارة.

حدثني أحمد بن سلطان المجيدي قال: إنما أخرب المنذرية علي بن مهدي سنة أربع وخمسين وخمسمائة، ويقال: إن بني مجيد بنوا البلاد وبقوا على ما هم عليه إلى أن قحطت البلاد وجاعت العباد، ويقال: إنهم افترقوا ذات اليمين وذات الشمال وبقيت خرابًا فجاء الحجازيون فاستعاروا الأرض من بني مجيد، فوافق ذلك الموضع الحجازيين وقويت أيديهم عليها لما أخصبت البلاد وشبع العباد، فرجع بنو مجيد إلى بلادهم وأوطانهم فقاتلهم الحجازيون وأنكروهم وأخرجوهم من ديارهم كرهًا من غير رضى، فلما عجز بنو مجيد عن مكافاتهم تفرقوا ثلاث فرق: فرقة

سكنوا زيلع، وفرقة سكنوا ظفار، وفرقة سكنوا مقدشوه، وبقى شرذمة منهم فى الجابية.

قـال:

تفاني الرجال على حبها ولا يحصلون على طائل

ولعبد آل عامر يقول:

ألا إن لي دينًا من أيام ذى اللوى ودينًا من أيام الحسين وآكدُ

أسايل ذا دينى أضافه عند ذا وذا جاحدٌ دينى كما ذاك جاحدُ

وأهلها صيادون حمّارون وهم قوم ثقاة أخيار، رجال فحول، مأكولهم السمك، لا غير، وجميع عرب أهل هذه الأعمال الجبال مع التهائم إلى حدود الحجاز لا يقبل أحدهم حكم الشرع وإنما يرضون بحكم المنع، ولا شك أنه حكم الجاهلية الذى كانوا يتحاكمون به عند الكهنة وبمامة الزرقاء، ويقال: إن اليمامة قبل الإسلام، فإذا حكم الشيخ حكمًا فى المنع فى أحد من العرب بضرب العنق لم يقدر على الهرب، ولو أراد الهرب لما أمكن إلا أن يمد عنقه ويرضى بالقضاء، فإذا وفى بما عليه نادى منادٍ فى سائر العرب وفى كل مجمع: ألا إن فلان بن فلان طاب بطيب العرب، فيرد عليه كل من سمعه: جاد الفتى.

وكان يؤخذ فى العارة من كل حمل نصف وربع من ضمان العشر وسنابيق الصيادين والقُفول الواردة من عدن إلى زبيد والصادرين من زبيد إلى عدن ومراكب الزيالع القادمين من أرض الحبشة كل عام بألف ومائتى دينار، فأزيل جميع ما ذكرناه سنة عشرين وستمائة، وأعيد هذا الرسم سنة أربع وعشرين وستمائة، وصعد الضمان

ألف وسبعمائة دينـار، ويقال: إن أول من سـعى فى ضمان القريـة عبـد الله بن أبى بكر الأحوزى وبقى يجبى إلى يوم الدين، وللشريف الرضى يقول فى مثل هذا:

من لم يكن عنصـره طيب   لم يُخرج الطيب من فيـه
كل امرئ يعجبـه فعله   قد ينضح المرء بما فيـه

من العارة إلى الحليلة راجعا على درب الكديحا

من العارة إلى عثر ثلاث فراسخ، وهى قرية على ساحل البحر، ويوجد فيها ما لم يوجد فى موزع، وبغير المخاء وهو مرسى دفيء، وما اشتق اسمها عند العرب مخا إلا أنها لا تمضغ كما لا تمضغ المخاء، وهى طريق الأصل وعليها كان المعول فى مسير القوافل فى سالف الدهر لأنه أقرب طريق وأبرد لهواء الساحل والبحر، وإلى الحليلة ثلاث فراسخ، ويعرف... وهو مجمع الطريقين.

من العارة إلى المفاليس

من العارة إلى ترن ثلاث فراسخ.

ذكـــر تـــرن

أهل تُرَن أصلهم من امرأة خرجت من البحر تسمى الفالقة سكنت البر وتزوجت رجلا من وجوه العرب، أسكنها العربى أرض ترن ورزق منها أولاداً إناثاً وذكوراً.

قالت العرب: إن أهل ترن من نسل العربى والمرأة، يعنى الفالقة، وكان إذا جاءهم سيل عظيم ومال عن جريه لِيُسْقَى به موضع آخر كانت تقعد فى بطن الوادى وتسده من عظيم خلقها وكبر جثتها وترد الماء إلى المجرى القديم المعتاد فتسقي الأرض من جريه، وكان تبقى على حالها إلى أن تسقي للناس الأرض كلها، فإذا رويت الأرض واستغنت الناس عن ماء السيل تقوم حينئذ من مقعدها فيجرى ما فضل من ماء السيل إلى البحر، ويقال: إنها كانت ساحرة.

قلت لعمرو بن على بن مقبل: ما فعل الله بفالقة؟ قال: إنها إلى الآن تعيش، قلت: وأين تسكن؟ قال: بوادى قطينة، قلت: وأين الوادى؟ قال: فى أعمال ترن، ولم تمت وإلى يوم القيامة، قلت: هل يراها أحد؟ قال: نعم، كل من قَرُبَ أجله، قلت: ولم سُميت هذه الأرض ترن؟ قال: لأن الخلق كانوا يتعجبون من عظم خلقها فكان زيد يقول لعمرو: تَـرَنْ، أى تراها، فعُرفت الأرض بهذا الاسم، ولهذا تقول العادة أنا الترنى، يسكن فخذ من فخوذ العرب أرض ترن، ولا شك أنهم بنو مجيد، وهم أهل أنعام وخيل وزرع وضرع، لما كثر المال عليهم وحسن الحال بهم ركبوا على حين غفلة من الحجازيين وقتلوا جماعة منهم بعد أن أخذوا جميع ما كان معهم من المتاع والمال والأثاث وعادوا منصورين، وبقى الحجازيون فى

العناء والتعب مدة عام كامل، والتأم خلق عظيم منهم ورجال من السكاسك فلان وفلان بن فلان من المعدودين كبسوا على أهل ترن سنة ستين وخمسمائة، فصار عادة القوم إذا انتسب أحدهم قال: أنا الترنى، يعنى من نسل القوم الذين حضروا الوقعة.

وملك الحجازيون أرض ترن إلى الآن وجميع زروعهم فيها فصارت لهم مأوًى ومُلْكًا.

وإلى النُّخَيْلَة ثلاثة فراسخ، وإلى المفاليس ثلاثة فراسخ.

من العارة إلى تعز

من العارة إلى شعب أربع فراسخ، وإلى النبة ثلاثة فراسخ، وإلى المحجاط ثلاثة فراسخ، وإلى الحصين فرسخان، وإلى العريش ثلاثة فراسخ، وإلى تعز فرسخان.

من العارة إلى عدن

من العارة إلى الجابية فرسخ، ويقال: إنها من أعمال ترن، وترن من أعمال العارة، وإلى بئر الصحبة ثلاثة فراسخ، وهى بئر حفرت فى آخر دولة بنى مهدى، وثغر العرف والحراجرة والحجف والقعيعا وعويد ومحاذا بئر صبيح على يسار المحجة جبل حرز، ويقال: جبل حريز، وما عُرف بهذا الاسم إلا أنه.. يسمى حرز ويقال: بل جبل حريز، أى مكين، والله أعلم بالصواب.

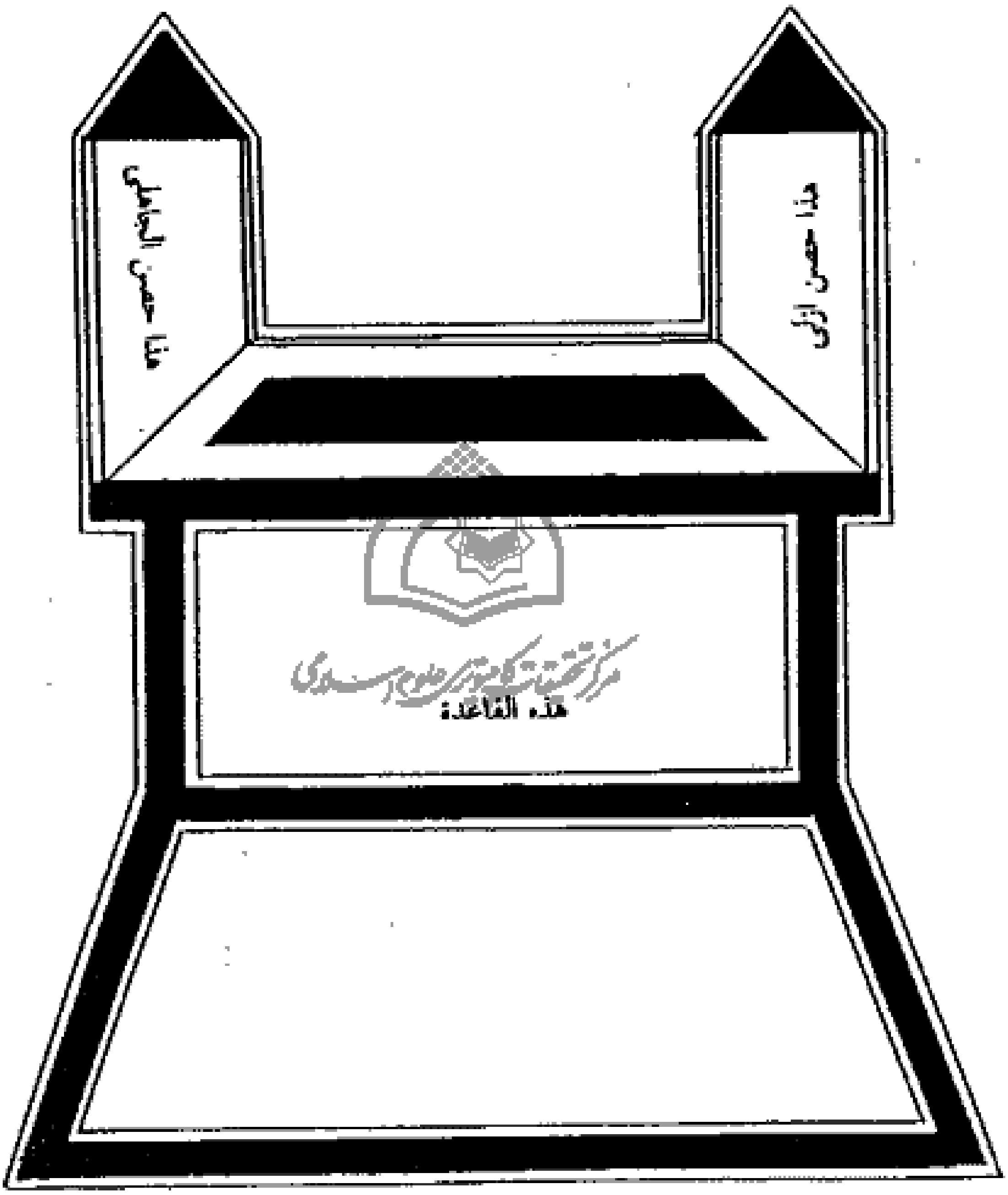
صفة جبل حريز

هو جبل شامخ شاهق فى الهوى، وبالقرب منه جبل ذو ساح، أى ذو رأس، بُنى عليه حصن يسمى الجاهلى، ويقال: الأزلى لقدمه، والناس تصعد إليه، والثانى لم يصعده إلا كل صالح وولى.

حدثنى على بن صبيح العقولى أن سليمان بن داود، عليهما السلام، بنى فى إقليم اليمن ثلاثة حصون: بينون وغمدان وسلحين، وهذا الحصن يعنى القاعدة وهو أحكمهم، وذلك لما تزوج سليمان، عليه السلام، ببلقيس فى أرض اليمن فأمر الجن أن تبنى هذه الحصون جميعها على هذا الوضع، والله سبحانه وتعالى أعلم بالغيب وأحكم.

وبقى الحصن على حاله إلى أن خرب واندثر، ويقال: إن أبا الغيث بن سامر أراد عمارة هذا الحصن فى دولة الحرة السيدة بنت أحمد بن جعفر بن يعقوب بن موسى الصليحى بعد أن أحضر له آلة البناء، وتم له المقصود وابتدأ فى البناء فطلع طلائع الجن فقتلوا جميع القوم فى المكان، وبعده أراد عمارة هذا الحصن الداعى سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحى، ويقال: الداعى سبأ بن أبى السعود بن الزريع ابن العباس بن المكرم، والى عدن من قِبَل الدولة الفاطمية، فلم يمكنوه الجن، وأراد إعادته بعدهم سيف الإسلام الملك المعز إسماعيل بن طغتكين بن أيوب فى دولة الملك الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب بن شاذى، فأشار عليه بعض الفضلاء بتركه.

وصورة بنائه على هذا الوضع والترتيب، كما تراه في هذه الصفحة:



فقلت لعمرو بن على بن مقبل: هل في ذروته عمارة؟ فقال: ما كان يسكنه إلا من خاف، وفيه آثار حيطان قد اندثرت وجُدرات قد انهدمت وصهاريج قد خربت ودرج قد تقلعت.

قلت: فهل كان عليه سور؟ قال: إن الجبل هو سور بذاته وإذا أصاب عرب هذا الزمان في هذه البلاد خوف أو جور من السلطان صعدوا بأنعامهم ودوابهم إلى القاعدة وقعدوا بها إلى أن يأمن البلاد فحينئذ يطلبون البلاد، فإذا قل على سكانها الماء، يعنى من الصهاريج التي بها وهي خراب، أصعد إليها الماء من لحف الجبل من ثلاث آبار، إحداها بئر عبدل، مشرفة على المحجة، والثانية بئر يعوم، والثالثة بئر ثنية، فقلت: هذه الآبار حفرها الأوائل؟ قال: بل مستجدة استجدت في هذا العصر.

صفـــة وادى عبـــرة

والحصن مشرف على البحر وقد خرج فسطرس جبل بادٍ في البحر طول فرسخ طريق شبه خط الاستواء، ويقال: إن باني الحصن أراد أن يخرب العاذ مما يلي المشرق إلى البحر ويدخل عليه فلم يقدر عليه لقوة الصخر، وكان غرضه أن يقطع الطريق على المراكب لأنه لو اتفق بهم لكان يستظهر على أخذ المراكب لصعوده فوق الريح وبقاء المراكب تحت الريح، فلما لم يتم له قال بتركه، والآن هو مغاص اللؤلؤ الجيد، وبقى من الآبار بئر عبدل مع جبل الردادين، وبها كانت وقعة العرب مع العرب وهي وقعة مشهورة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وبئر أبي بكر شنلو العقرى وقد بنى على البئر مسجداً سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

وإلى المزحجية ثلاث فراسخ، وهي بئر مالحة في أرض عرب يقال لهم: العقار، وإلى البيضاء فرسخان، وتعرف بسبخة الغراب وتسمى قاع الغراب، وقد كان عند البحر وعلى يسار الدرب بئر تسمي المخنق، بناها القائد حسين بن سلامة، وليس في الربع المسكون أحلى ولا أخف من مائها على الفؤاد، وجواز القوافل على ساحل البحر.

وإلى رباك فرسخان، وهي قرية كانت عامرة، وقد عمر بها الأمير ناصر الدين فاروت بستاناً حسناً وحفر بها أنهاراً وغرس بها النارنج والأترج والموز والنارجيل، ويقال: إن الناخوذة عمر الآمدى غرس شجر الشكى البركى، وهو شجر يخرج من بدن الشجر بخلاف جميع الأشجار، والبركي غرسه سنة خمس وعشرين وستمائة، وحفر بها برك وبها حفرة تسمى حفرة الأسد في سالف الدهر، كانت الخلق تحج إليها من أبين ولحج وما حولها من القرى في أول شهر الله الأصب رجب.

وإلى المكسر فرسخ، قنطرة بناها الفرس الذين تولوا عدن على سبع قواعد، ويقال: إنما بناها شداد بن عاد في الأصل.

حدثني يحيى بن يحيى بن على بن عبد الرحمن الزراد قال: إنما بناها رجل جبلي سنة خمسمائة، ويسمى المُزَّفَ وكان في الأول لا يعدون هذا الموضع إلا بسنابيق وكذلك الماء والحطب.

وإلى جبل حديد نصف فرسخ، ويقال: إنه جبل حديد جاء بعض أرباب المخبرة وسبك من هذا الجبل بُهارين ونصف حديد وغار المعدن عن أعين الخلق،

ويقال: إن الرجل السباك قُتل لأجل سبكه الحديد، وفي لحفه مسجد بني بالحجر والجص.

وإلى المياه ربع فرسخ، وإلى عدن ربع فرسخ.

ذكر ما كانت عليه عدن في قديم العهد

كان من القلزم إلى عدن إلى وراء جبل سقطرة كله بر واحد متصل لا فيه بحر ولا باحة، فجاء ذو القرنين في دورانه ووصل إلى هذا الموضع ففتح وحفر خليجاً في البحر فجرى البحر فيه إلى أن وقف على جبل باب المندب فبقيت عدن في البحر وهو مستدير حولها، وما كان يبان من عدن سوى رءوس الجبال شبه الجزر.

ولنا على قولنا دليل واضح أن آثار ماء البحر والموج باق بائن في ذرى جبل العر، والجبل الذي بني على ذروته حصن التَّعْكَر وجبل الأخضر.

والدليل الثاني أن شداد بن عاد ما بنى إرم ذات العماد إلا ما بين اللخبة ولحج وبين المغاوي التي على طريق المفاليس، وهو الرمل الذي إلى جبل دار زينة، وما بناها إلا في أطيب الأراضي والأهوية والجو في صفاء من الأرض بعيداً عن البحر، والآن رجع البحر في أطراف بلاد إرم ذات العماد وتناول البحر شيئاً منه أخذةً، ولم يكن بهذه الأرض بحر وإنما استُجد بفتح ذي القرنين فمد من جزيرة سقطرة فساح إلى أن وقف أواخر المندب.

والدليل الثالث أن البحر الذى ما بين السرين وجدة يسمى مطارد الخيل ومرابط الخيل، والأصل فيه أن العرب كانت تربط الخيل فى هذه الأرض، والأصح أنهم كانوا يطاردون به الخيل لما لم يكن بحرا، وكان البحر أرضًا يابسة، فلما فتح ذو القرنين باب المندب غرق جميع الأراضي وما علا منها صارت جزرا في ناحية البحر يسمى باسم الأصل مطارد الخيل.

ومما ذكره الأمير أبو الطامى جياش بن نجاح فى كتاب المفيد في أخبار زبيد الأول، وهما كتابان: المفيد الأول الذى صنفه الأمير جياش، والثانى صنفه فخر الدين أبو على عمارة بن محمد بن عمارة، فذكر الأمير جياش بن نجاح فى كتابه المفيد فى أخبار زبيد أن البحر كان مخاضة لقلة مائه فلذلك تغلبت الحبشة على جزيرة العرب حتى ملكوا صنعاء إلى حد إقليم المواهل وبقيت دولتهم فيها فى الكفر والإسلام إلى أن أفناهم على بن مهدى سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وفى عهده انقرضوا وزالت دولتهم مع شدة صولتهم.

نعود إلى ذكر ذى القرنين، كان البحر على حاله إلى أن فتح ذو القرنين باب المندب فجرى البحر فيه إلى أن وقف آخر القلزم فطال وعرض وترخّى وانبسط وانفرش فبانت أرض عدن.

ومما ذكره أبو عبد الله محمد بن عبد الله الكيسانى في تفسيره قال: لما خرج شداد بن عاد من أرض اليمن طالبًا أعمال حضرموت ووصل لحج فنظر جبل العر وعظمه من على مسافة بعيدة فقال لأعوانه: اغدوا أبصروا هذا الجبل وما دونه! فلما عاينوا الموضع رجعوا وقالوا: إن هذا الموضع وادٍ وفى بطنه شجر وفيه أفاع عظام

وهو مشرف على البحر المالح، فلما سمع بهذه المقالة نزل فى لحج وأمر بأن تحفر الآبار، التي هى الآن يشرب أهل عدن منها، وأمر أن ينقر له باب فى صدر الوادى.

صفة نقر الباب وحفر النهر

وأقام على حفر النهر ونقر الباب رجلين، قال حكماء الهند: هما عفريتان من الجن، وما زال أحدهما ينقر الجبل والثانى ابتدأ فى حفر النهر برأس سقطرة من أعمال لحج، وما زال الرجلان يعملان فى النقر والحفر إلى أن بقى عليهم من العمل شيء يسير، فقال الحجار: إنى إن شاء الله تعالى بالغد أفرغ، أى أتم عملى، فقال الحفار: وأنا بالغد أدخل الماء إلى عدن إن شاء الله أو لم يشأ، فانقطع النهر بعضه من بعض وانسد معين الماء من الأصل وارتدم ما بناه، بعضه على بعض، ولم يصح منه شيء ولم تقم منه صورة ولا استقام منه معنى، ووصل فى حفره إلى تحت جبل الحديد ومن عنده انقطع.

قال ابن المجاور: ورأيت آثار النهر بعينه مبنى بالحجر والجص بناء محكماً وثيقاً فى عرض ذراع ما بين الماء وجبل الحديد وقد علاه البحر ولم يَبِنْ لناظره إلا إذا عرى البحر ماد شبه خط الاستواء داخل فى البحر.

قال فلما أصبح الحجار من الغد فُتح نقر الباب وفتحة الباب واستقام له الأمر على ما أراد، ويقال: إنه بقى فى النقر مدة سبعين سنة حتى أتمه، فلما طال المقام فى حال القوام صار شداد بن عاد ينفذ إلى هذا المكان كل من وجب عليه الحبس

يحبسه فيه فبقي حبساً على حاله إلى آخر دولة الفراعنة الذين كانوا ولاة مصر، وبعد زوال دولتهم خرب المكان.

ذكر المدن التي كانت حبوسا للملوك

كسمر حبس سليمان بن داود، عليهما السلام، حصار بادى حبس ذى القرنين، ترمذ حبس الإسكندر، مُولْتان حبس الضحاك الساحر، آمُل وسارى لكيكاوس بن كيقباد، حس حبس الروم، حصار طاق حبس بردسيار، مصر حبس أمير المؤمنين أبي محمد هارون الرشيد، مرو حبس أمير المؤمنين عبد الله المأمون، الشأم حبس الإمام الناصر لدين الله، ويقال: إن فيها سرداباً إذا زادت الدجلة امتلأ وبقي المحبوسون وقوفًا في الماء إلى أن ينقص، فمن نداوة الماء وعفونة الأرض وملوحة السبخة تنفطر جلود المحبوسين، وأكثر ما يعيش بها المحبوس شهر زمان، ونهاوند حبس السلطان معز الدين محمد بن سام، ولوحك حوران حبس السلطان بهرام شاه، وقلعة نصور حبس خسرو ملك بن خسروشاه، وبرعد حبس تاج الدين يلدز السلطاني، وكواليور حبس الملك قطب الدين أبي الفوارس أيبك الآملي، وعوض حبس السلطان شمس الدين إلتُتمِش، وهراة حبس السلطان غياث الدين محمد بن سام، وحصار هزاراسب حبس السلطان أبو الفتح محمد بن تكش، وكوشك سته جواهران حبس طغرلبك شاه بن محمد، ودهلك حبس عبد الملك ابن مروان: وعيذاب حبس الخلفاء الفاطميين، وتَعزّ حبس ملوك اليمن، وقوارير حبس بني مهدى، وجبال بُرَع حبس الملك الأعز على بن محمد الصليحي،

وسِيراف حبس السلطان محمود بن محمد بن سام، وعدن حبس الفراعنة ورجعت من حبوس القاطميين.

وقال الهنود: عدن حبس دس سر اسم جني له عشرة رءوس من جملتهم الغزال درسير وكان يسكن جبل المنظر ويتفرج على رملة حُقّات وسكن بعده هنومت حقات، وما أخرجهم منها إلا سليمان بن داود، عليهما السلام، لما وصل أرض اليمن لأجل بلقيس، لأن هؤلاء القوم المقدم ذكرهم كانوا عفاريت، وما سميت عدنُ عدنَ إلا بعدنان لما بناها سماها على اسم ابنه عدن، وما اشتق عدن إلا من عاد، ويقال: أول من حُبس بها رجل يقال له: عدن فسميت به.

قال ابن المجاور: وما اشتق اسم عدن إلا من المعدن، وهو معدن الحديد.

وتسمى عند الفرس اخرسكين، وعند الهنود سيران، وعند السودان... وتسمى عند التجار مأكل صبرة، وتسمى حبس فرعون ومقام الجن وساحل البحر، وتسمى عند الهنود هتام، وعند الظرفاء سنداس، لأن كل ما يرميه الإنسان في الأزيّب يرده الكَوس إلى اللحادوس.

وتسمى فرضة اليمن، وتسمى عند السوقة دار السعادة، دار بناه سيف الإسلام طغتكين مقابل الفرضة، وتسمى الدار الطويلة بدار بناها ابن الحابين على محاذاة الفرضة، وتسمي المنظر بدار بناها الملك المعز إسماعيل بن طغتكين على جبل حُقّات، وتسمى عند التجار صيرة وحيرة.

ذكـــر جبـــل صـــيرة

هو جبل شامخ في البحر مقابل عدن وجبل المنظر ويقال هو قطعة منه، وقال محمد بن عبد الله الكيساني في تفسيره: إنه يخرج يوم القيامة من صيرة عدن نار تسوق الخلق إلى المحشر، والدليل على ذلك قليب بالجبل، بئر يسمى انبار، ويسمى عند حكماء الهند في بر يخرج طول الدهر منه دخان، ويسمى الآن بئر الهرامسة ليس يمكن لأحد النظر فيه من وهجه وكربه وقتامه، ويوجد حول البئر حجارة مكسرات وأفاع نائمات وحيات قائمات.

قالت الهنود: إن هنُومَت، أي العفريت المقدم ذكره، حفر هذه البئر، وليس هي بئر وإنما هو سرب ينفذ حفره تحت البحر إلى مدينة أوجين بكرمي وهي سرير ملك مالوى من الهند.

فصل: حدثني مبارك الشرعبي مولى والد محمد بن مسعود قال: كان السبب في حفر بئر في بر أن حادنير، وهو عفريت، سرق تخت زوجة رام جندر، من أعمال عُوض وسار بها إلى أن سكن بها على قلة جبل صيرة، وقال: إني أريد أن أقلب عنك صورة الإنسيّة إلى صورة الجنيّة، فبينما هما في لا ونعم إذ سمع بخيرهما هنومت، وهو عفريت ثانٍ على صورة قرد، فحفر هذا السرب من أوسط مدينة اوجين بكرمي تحت البحر وبلغ آخرُ الحفر إلى أوسط جبل صيرة وفعل جميع ذلك في ليلة واحدة، فخرج من الحفر فوجدها نائمة على ذروة الجبل تحت شجرة شوك فرفعها على ظهره ونزل بها السرب، وما زال يسرى بها إلى أن بلغ

اوجين بكرمى، فعند انفجار الفجر الصادق سلمها إلى زوجها رام جندر، فرُزق منها رام جندر ولدان ذكران سمى أحدهما لب والثانى كش، ولها حكاية طويلة عريضة يطول شرحها، فبقى السرب إلى الآن.

وكذلك حفر كيكالوس بن كيقباد سربًا من الرى إلى مازّندران مسيرة ستة وثلاثين فرسخًا، وحفر بعض الهنود سربًا فى ديولاره من أعمال السومنات ينفذ أواخره إلى بابهن من أعمال الديوكير أول حدوده مالوى، وينفذ أيضا تحت بحار ورمال، ويقال: إنه حفر الجن ولا شك فى هذا.

وحفرت رؤساء همذان فى وسط أملاكهم سربا ينفذ إلى رُوذْراوَر مسيرة ثلاثة أيام، وحفر كرشاسب بن اثرط بنِ رستم سربًا فى وسط قصره الذى بقلعة أراك بسيستان ينفذ أواخره إلى وسط حصار طاق، مسيرة اثنى عشر فرسخًا، وحفر دير الجب فى نواحى الموصل.

قالت النصارى: لما قتل سنحاريب ولده من بها رماه فى حفرة كانت بالقرب منه انخرق فى الحفرة سرب ينفذ إلى الزاب مسيرة أربع فراسخ، قالت النصارى: وعاش مرتهنًا بعد الموت وإدراك الفوت، وهو إلى الآن بالحياة فى تلك النواحى.

وحفر بعض سواريب الهنود بمدينة برهنك سربًا مسيرة أربع فراسخ بطريق، وكان سببه ما حدثنى أبو طالب بن أبى بكر بن أبى طالب الحدانى، المعروف بابن السويدائى، أنه عشق بنت الملك فحفر هذا السرب من بيت اليد إلى دار الصبية، فكان يمشى إليها وتجىء إليه فى هذه الطريق مدة حياتهما، فلما خرّب السلطان نظام الدين محمود بن سبكتكين البلدة بقى السرب على حاله، وبقى بطريق مكة جبل يسمى المخروق فيه خرق متصل من تحته إلى ذروته، وقد تقدم ذكره.

وفي نواحي الموصل قرية يقال لها: الباعور، وهو موضع لعرب من زمن النبي ﷺ، فمن شدة الباعور انخرق في الأرض سرب يطول من الباعور إلى الدجلة مسيرة خمس فراسخ.

وحفر شاه بور بن أردشير بابكان في قلعة نيسابور سرباً تحت الأرض مسيرة خمسة فراسخ ينفذ إلى برية، وما عمله إلا لإحكام القلعة وحقن دماء الخلق، ولهذا يقال: الهرب في وقته ظفر.

نرجع إلى ما كنا عليه من كلامنا الأول:

فإذا تعوقت المراكب في المجيء عن موسم ثغر عدن يجاء إلى جبل صيرة بسبع رءوس بقر عند اصفرار الشمس وتبقى البقر في مكانها إلى نصف الليل، وبعد زوال هذا الحد ترد ست رءوس منها إلى عدن ويبقى رأس واحد هناك مكانه، فإذا أصبح ضُحي به من الغد في مكانه، وتسمى تلك الضحية ضحية الجبل، فإذا عُمل هذا العمل تقدم المراكب وتلاحق بعضها ببعض، وقد صارت سنة من قديم الأيام من دولة بني زريع وغيرهم من العرب، وبطل ما ذكرناه في زماننا هذا.

فصل: فإذا حاذى مركب المسافر مدينة سقطرة أو جبل كدمل تسمى تلك المحاذاة الفولة، يؤخذ قِدرٌ يعمل عليه شراع وسكان من جميع آلة المراكب ويُعَبّى فيه من الأطعمة من قليل نارجيل وملح ورماد ويُلقى في البحر من الأمواج الهائلة.

قال أهل التجارب والخبرة: إنه يصل بسلامة إلى لحف الجبل.

وكان في أيام القبط واليونان في وقت زيادة النيل تؤخذ بنت بكر عذراء أحسن

ما يكون من الصور تزين بأفخر زينة، وتلبس الحلى والحلل، ويؤتى بها على رءوس الأشهاد بالطبل والزمر ويطلقونها فى النيل، فأزيل هذا الفن فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه.

وفى اجه وجميع أعمال الهند والسند إذا زرع أحد قصب السكر ينذر للصنم نذراً إذا طلع قصبه جيداً فدى بإنسان، فإن صح قصبه احتال على بعض قصار الأعمال يذبحه ويرش بدمه أصول قصب السكر فى يوم عيد لهم يسمى الديوانى، وإذا زاد شط السند فى الأخذ على المد والحد يؤخذ خشف غزال يجلل بثوب أحمر ويعطر ويبخر ويطلق فى أغزر موضع وأقوى جريان فى السيل وأشد سوار، فحينئذ ينقص الماء بإذن الله تعالى، وما ذكرنا هذه إلا لنبرهن مقالتنا وما تقدم من قولنا، والله أعلم.

ذكـــر المعجلـــين

هو بركة فى آخر جبل حقات وجبل صيرة الذى بنى على ذروته قصر المنظر، والبركة خلقها الله تعالى وهى ما بين جبل حقات وجبل صيرة وهى ذات أمواج هائلة قاتلة فى عمق وغزر.

حدثنى منصور بن مقرب بن على الدمشقى قال: إذا برد الماء بها ـ يعنى فى البركة ـ يكون العام عاماً شديداً على كل من يقطع الصبا، قلت: ولم؟ قال: لكثرة الأمواج وهيجان البحر، وإذا كان الماء فيه فاتراً يكون العام عامًا طيباً سهلا يسيراً غير عسير على مسافره وهذا مجرب، قلت لريحان، مولى على بن مسعود بن على بن أحمد: لم سمى هذا المكان المعجلين؟ قال: لأنه يرجع فيه كل أربعة اثنين.

ذكـــر بحيرة الأعــاجــم

قيل: لما أطلق ذو القرنين البحر من جبل باب المندب وساح نشف ما حول عدن من المياه وبقيت عدن نصفها التي تلي جبل العُر مما يلي صيرة مكشوفًا ومما يلي المياه وإلى جبل عمران ناشفًا، فلما استولت ملوك العجم على عدن رأوا ذلك الكشف فخافوا على البلد من يدٍ غالبة تحاصر البلد فحينئذ قاموا فتحوا له فمًا مما يلي جبـل عمـران وأطلقـوا البحر عليه فاندفق البحر فنزل إلى أن غرق جميع ما حول عدن من أرض الكشف فرجعت عدن جزيرة، وبقى كل من أراد السفر إلى جهة من الجهات ركب متاعه في الصنابيق ويجيء في البحر الأصلي إلى أن يعدى البحر وجاءت الجمال فرفعوه من عند المكسر وسافروا به، فلما رأوا ما رأوا من تعب الخلق في ذلك بُنى المكسر وهو قنطرة بُنيت على سبع قواعد فصارت الخلق تسلكه على الدواب وغيرها، وسمى البحر المستجد بحيرة الأعاجم وعرف بهم إلى قيام الساعة.

بنـــاء عـــدن

لما انقطعت دولة الفراعنة خرب المكان بزوال دولتهم، وسكن الجزيرة قوم صيادون يصيدون في المكان فكانوا على ما هم عليه زمانًا طويلا يترزقون الله في القوت والمعاش إلى أن قدم أهل القُمْر بمراكب وخلقٍ وجمعٍ وملكوا الجزيرة بعد أن أخرجوا الصيادين بالقهر وسكنوا على ذروة الجبل الأحمر وحُقّات وجبل

المنظر، وهو جبل يشرف على الصناعة، وآثارهم إلى الآن وبناؤهم باقٍ بالحجر والجص ملء تلك الأودية والجبال، قال الشاعر:

لـي أدمـعٌ هـواطـل	مـذ خلـت المنازلُ
وسـار حـادى عيسـهم	فـهـاجت البـلابـلُ
وقـفت في ربوعـهم	هاذ بهم وسـائـلُ
يا دارُ هل من خبـرٍ	رد جـوابي عـاجـلُ
أجـابني من الربـو	ع صـائح وقـائـلُ
ابك دمًا يا غـافـلا	قـد سـارت القـوافـلُ
لي فـيـهم فـتّـانـةٌ	رشيقة الشمـائـلِ(١)
في خـدها وقـدهـا	وردٌ وغـصنٌ ذابـلُ

وكانوا يطلعون من القُمْر يأخذون عدن رأسًا واحدًا في موسم واحد.

قال ابن المجاور: وماتت تلك الأمم مع تلك الرئاسة وانقطعت تلك الطريق ولم يبق أحد في زماننا يعلم مجرى القوم ولا كم وكيف كانت أحوالهم وأمورهم.

فصل: قال ابن المجاور: ومن عدن إلى مقدشوه موسم، ومن مقدشوه إلى كِلْوة موسم ثانٍ، ومن كلوة إلى القُمر موسم ثالث، فكان القوم يجمعون الثلاثة المواسم في موسم واحد، وقد جرى مركب من القمر إلى عدن بهذا المجرى سنة ست وعشرين وستمائة، أقلع من القمر وكان طالبًا كلوة فأرسى بعدن.

ولمراكبهم أجنحة لضيق بحارهم ووعرها وقلة الماء بها، فلما ضعف القوم

---

(١) يلاحظ هنا أن البيت به إقواء، وهو اختلاف حركة حرف الروىّ عن باقي القصيدة.

واستقوت عليهم البرابر أخرجوهم منها وملكوا البلد وسكنوا الوادى، موضع هو الآن عامر بصرائف، وهم أول من بنى الصرائف بعدن، وبعدهم خرب المكان وبقى على حاله إلى أن انتقلوا أهل سيراف من سيراف، وقد تقدم ذكرهم.

ووقع سلطان شاه بن جمشيد بن أسعد بن قيصر فى عدن فنزل وتوطن بها فانغمر الموضع بمُقامه، وكان يجلب إليهم مياه الشرب من زِيْلَع، فلما طال عليهم البعد بنوا الصهريج لأجل ماء الغيث ونُقل طين البناء من نواحي أبين، ويقال: من زيلع، فلما كثر الخلق بعدن بنوا بها الحمامات، وبُنى الحمام عند حبس الدم فسيل فغسل الأرض سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وبنوا الجامع، وذلك عند حمام المعتمد رضى الدين على بن محمد التكريتى، ووضع مربط الفيلة فى سنة خمس وعشرين وستمائة فملأ لحف الجبل الأخضر بالطول والعرض، فلما رأى ذلك تولى السلطنة.

ذكر ألقاب ملوك العجم الذين تولوا ملك عدن

مولانا ولى النعم، ومعدن الكرم، الملك العالم، العادل المؤيد من السماء، المنصور على الأعداء، المتوج بالجلال والسناء، شاهنشاه المعظم، مالك رقاب الأمم، سيد سلاطين العرب والعجم، حافظ عباد الله، حارس بلاد الله، معز أولياء الله، مذل أعداء الله، غياث الدنيا والدين، ركن الإسلام والمسلمين، تاج ملوك العالمين، قامع البغاة والمشركين، مغيث الدولة القاهرة، مزيل الأمم الكافرة، محيى السنن الزاهرة، باسط العدل والرأفة، ناصر السلطنة والخلافة، عماد ممالك الدنيا،

مُظهر كلمة الله العليا، مُرْفِه الخلائق بالإنصاف، مزيل الجور والاعتساف، القائم بتأييد الحق، الناظم لصلاح الخلق، ظل الله فى الأرض، محيى السنة والفرض، سلطان البر والبحر، ملك الشرق والغرب، انا سلطان شاه بن جمشيد بن اسعد بن قيصر أمير المؤمنين.

آخر: مولانا ولى النعم بهاء الدولة والدين، جلال الإسلام والمسلمين، ناصر الملوك والسلاطين، غياث جيوش العالمين، قاتل الخوارج والمشركين، قوام الملة، نظام الأمة، قطب المملكة، معز السلطنة، عدة الخلافة، بهلوان إيران وتوران، أبو سِنان سفاوس بن أسعد بن قيصر قسيم أمير المؤمنين.

آخر: مولانا ولى النعم، قسيم الدين، يمين الإسلام، صمصام الدولة، قوام السنة، نصرة الملوك، بهاء الأمراء، كردو أبو المظفر أسعد بن قيصر برهان أمير المؤمنين.

آخر: مولانا ولى النعم، جلال الدولة والدين، مغيث الإسلام والمسلمين، معز الملوك والسلاطين، سيف السنة، بهاء الملة، تاج الأمة، نظام المملكة، معين الخلافة، فخر الأمراء منير باريك أبو شجاع نامشاد بن أسعد بن قيصر نصرة أمير المؤمنين.

آخر: مولانا ولى النعم والأمين الأجل المؤيد ناصر الدين عماد الإسلام علاء توران، حسام السنة جلال الملوك، غياث الأمراء، زنده أبو الفتح كيقباد بن محمد ابن قيصر معز أمير المؤمنين.

آخر: والمولى محيي الدين معز الإسلام ركن الدولة عضد الملوك مغيث الأمراء أبو سعيد قيصر بن رستم بن قيصر عمدة أمير المؤمنين.

آخر: والمولى سيف الدولة والدين، غياث الإسلام والمسلمين، تاج الملوك والسلاطين، ناصر السنة، نظام الملة، عماد الأمة، ركن المملكة، نصرة الخلافة، مغيث الأمراء، ملك العرب والعجم، أبو الصمصام، عاد بن شداد بن جمشيد بن أسعد بن قيصر، يمين أمير المؤمنين.

آخر: والمولى تاج الدين، ناصر الإسلام والمسلمين، مجد الملوك والسلاطين، معز السنة، محيي الملة، غياث الأمة، عماد المملكة، يمين الخلافة، جلال الأمراء، ملك الهند واليمن أبو الملك تاج الدين جمشيد بن أسعد بن قيصر، ظهر أمير المؤمنين.

آخر: والمولى عماد الدولة والدين، محيي الإسلام والمسلمين، ظهر الملوك والسلاطين، نظام الملة، ومظهر السنة، جمال الملوك، معز الأمراء، أبو الوفاء كذار شاه بن هزاراسب يمين أمير المؤمنين.

آخر: والمولى معز الدولة والدين، تاج الإسلام والمسلمين، ركن الملوك والسلاطين، قوام السنة، غياث الأمة، ناصر المملكة، محيي الأمة، عماد الخلافة، مجد الأمراء، أبو البركات الحارث هزاراسب بن جمشيد بن أسعد حسام أمير المؤمنين.

فهؤلاء الملوك ملوك العجم الذين تولوا ملك عدن.

بنـــاء الجامـع

ومما ذكره عمارة بن محمد بن عمارة فى كتاب المفيد فى أخبار زبيد قال:

إن جامع عدن بناه عمر بن عبد العزيز وجدده الحسين بن سلامة، والأصح أن ما بنى الجامع إلا الفرس، وكان السبب فى بنائه أنهم وجدوا فى زمانهم قطعة عنبر كبيرة مليحة فأُتى بها إلى صاحب عدن فقال لهم: وما أصنع بها؟ بيعوها وابنوا بثمنها جامعًا، فلست أرى درهمًا أحل من هذا الدرهم، ولا يخرج فى وجه أحق من هذا الوجه، فباعوا العنبر وبنوا بثمنه جامع عدن فى طرف البلد.

فإن قال قائل: لِمَ لا بُنى فى وسط البلد؟ قلت: لأن فى وسط مدينة عدن عين ماء ماد من البحر إلى المملاح، ولنا على قولنا دليل أن من بقايا العين موضع الملح الذى يجمد فيه الملح بالمملاح.

قال ابن المجاور: ورأيت وراء حمام المعتمد رضى الدين محمد بن على التكريتى أن سيلا عظيما غسل أرض الوادى فظهر به مدابغ جملة من أيام الفرس كانت قد علت عليها الأرض من طول المدى.

وحدثنى ريحان مولى على بن مسعود بن على قال: إنه ظهر عند حبس الدم بقرب جبل حُقّات حمام كبير عظيم ذو طول وعرض، وقد كانت علت عليه الأرض، من بناء العجم، وكانت الناس فى أيام دولة العجم يجدون العنبر الكثير إلى باب المندب، وكان الصيادون يجدونه، فإذا مر بهم مركب أو تاجر يقولون له: تشترى منا حشيش البحر؟ يعنون به العنبر، ويقال: إن الشيخ شبير الصياد وجد قطعة

عنبر ولم يعرف ما هي فجاء بها إلى بيته فعازه الحطب فأوقدها تحت القدر عوض الحطب، فعلم به الناس فعُرف الشيخ بوقّاد العنبر، وقد انقطع جميع ذلك في زماننا هذا من سوء ظننا وقُبحِ فعالنا ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً ﴾[1] فعند زوال أيام العجم ملكها العرب.

ذكر اخبار آل زريع بن العباس بن المكرم ولاة عدن

نسبتهم من همدان، ثم من جشم بن يام بن أصبا، وكان لجدهم العباس بن المكرم بن الذئب سابقة محمودة في قيام الدعوة المستنصرية مع الداعي على بن محمد الصليحي، ثم مع ولده المكرم، عند نزوله من صنعاء إلى زبيد وأخْذِ أمه أسماء بنت شهاب بن أسعد من الأحول سعيد بن نجاح.

وكان السبب في ملكهم لعدن أن الصليحي لما افتتحها وفيها بنو معن أبقاها في أيديهم، فلما قُتِل الصليحي نافقت بنو معن في عدن فسار المكرم إليهم أحمد ابن على فافتتحها وأزال بني معن منها وولاها العباس ومسعود ابني المكرم، وجعل مقر العباس تعكر عدن وهو يحوز البر والباب، وجعل لمسعود حصن الخضراء، وهو يحوز الساحل والمراكب واستحلفهما للحرة السيدة ابنة الملك أحمد، لأن الصليحي كان قد أصدقها عدن حين زوجها من ابنه المكرم سنة إحدى وستين وأربعمائة.

(١) الآية: ١٧ من سورة الكهف.

ولم يزل خراج عدن يصل إليها وهو مائة ألف دينار يزيد ولا ينقص إلى أن مات المكرم أحمد، ثم وفى لها بعد موت المكرم العباس ومسعود ابنى المكرم، فلما ماتا تغلب على عدن زريع بن العباس وأبو الغارات بن مسعود فسار المفضل بن أبى البركات إلى عدن وجرت بينه وبينهما حروب كان آخرها المصالحة على نصف خراج عدن.

ولما مات المفضل تغلبت أهل عدن على النصف الباقى فسار إليهم أسعد بن أبى الفتوح ابن عم المفضل فصالحهم على ربع الخراج للحرة، ولما ثارت آل زريع فى التعكر تغلب أهل عدن على الربع الذى للحرة ولم يبق لها فى عدن شىء لموت رجالها، ولم يقدر على بن إبراهيم بن نجيب الدولة على شىء من ذلك، والله أعلم وأحكم.

ذكر ما شجر بينهم

نزل المفضل بن أبى البركات فى بعض غزواته إلى زبيد وكان معه زريع بن العباس وعمه مسعود بن المكرم، ولهما يومئذ صبيان فى عدن، فقُتلا جميعاً على باب زبيد، ثم تولى الأمر بعدهما بعدن أبو السعود بن زريع وأبو الغارات بن مسعود، ثم ولى الأمر بعدهما الأمير الداعى سبأ بن أبى السعود ومحمد بن أبى بكر بن أبى الغارات ثم ولده علىٌ الأعز ثم علىّ بن أبى الغارات، ثم الداعى محمد بن سبأ، وهو آخر بنى داود، ثم ولده عمران، وصفت بعده لآل زريع محمد وأبى السعود ابنى عمران، وهما طفلان، والله أعلم وأحكم.

ذكر السبب فى زوال ملك على بن أبى الغارات وحصولها للداعى سبأ

كان محمد بن الجزرى نائبًا لعلى بن أبى الغارات فى نصف عدن، وأحمد ابن غياث نائب سبأ فى نصف عدن، فقاسط ابن الجزرى فى قسمة الخراج أحمد ابن غياث فامتدت أيادى أصحاب على بن أبى الغارات إلى ظلم الناس وعاثوا وأفسدوا وأطلقوا أيديهم وألسنتهم بمذام الداعى سبأ، فحينئذ قام القائد بلال بن جرير المحمدى إلى ولاة عدن، وقد أمره الداعى أن يهايج القوم ويحرك القتال بعدن ففعل بلال ذلك وجرت بينهم وقائع عظيمة فى لحج آخرها قتل الداعى سبأ بن أبى السعود علىّ بن أبى الغارات بها سنة خمس وأربعين وخمسمائة، وأوصى بالأمر لولده علىّ الأعز، وكان على الأعز مقيمًا بالدملوة فهمّ أن يقتل بلالاً بعدن، فمات على الأعز وأوصى بالأمر لأولاده وهم: حاتم وعباس ومنصور، وكانوا صغارًا فجعل كفالتهم إلى أنيس، خادم حبشى.

وكان محمد بن سبأ قد هرب من أخيه فاستجار بالأمير منصور بن مفضل بن أبى البركات فأجاره، وحين مات على الأعز فى الدملوة سيّر بلال من عدن رجالاً من همدان فأخذوا محمد بن سبأ من جوار المنصور بن المفضل ونزلوا إلى عدن فملكه بلال واستحلف له الناس، وزوّجه بلال ابنته، وجهزه فى جيش فحاصر أنيسًا ويحيى العامل بالدملوة فملكها وأطاعته البلاد كافة، ثم مات فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وتملك بعده ولده عمران بن محمد ثم مات سنة ستين وخمسمائة وخلّف ولدين: محمد وأبا السعود، وتولى أبو الندا بلال بن جرير المحمدى سنة أربع وثلاثين ومات فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة عن أولادٍ رجال منهم: مدافع وياسر، وهم آخر الدولة.

ويقال فى رواية أخرى: وبعدهم ملك عدن سبأ بن أبى السعود ومحمد بن أبى الغارات، من بنى زريع، فكان أحدهم يجبى ما دخل من البر والثانى يجبى ما دخل من البحر، وكانت البلد بينهما بالسوية، يأخذ كلٌ حقه من المكوسات، وكان يجرى بين القوم فتنة عظيمة لأجل الماء والحطب وقتال شديد فى الدخل والخرج، وذلك فى السائلة، فبقوا على حالهم إلى أن جهز ملك الجزيرة قيس دوانيج وبرمات شبه أبرام النارنجيات ونهابيق.. لأخذ عدن من أربابها، فلما وصلت الدوانيج أرسوا تحت جبل صيرة وأنفذوا رسولهم إلى بنى زريع، يعنى أصحاب التعكر والخضراء وقالوا لهم: اعلموا أن ملك كثر أنفذنا على أخذ عدن، فإن جئتم بالصلح وإلا جئناكم بالفتح، وهو أقبح، فقال لهم صاحب حصن الخضراء: أنا عبدكم والبلد بلدكم وولوا فيها من شئتم.

فلما سمع القوم هذه المقالة نزلوا من الدوانيج والبرمات إلى السواحل وقلوبهم آمنة بالأمان والطاعة، وأنفذ لهم صاحب حصن الخضراء الإضافة التامة، وأرسل لهم بالدقيق والغنم والنبيذ فخبز القوم وطبخوا ودارت الأقداح بين القوم.

فلما رأى مقدم الجاشو فعل أصحابه قال لهم: كفوا عما أنتم عليه عاكفون، ولا شك أنها حيلة عليكم أيها الجاهلون! فأنفق عليهم خبزاً ولحماً ونبيذاً وجاشوا كما قال:

إني بُليتُ بأربعٍ ما سُلطوا إلا لحتفي أو بلاى وشقائي
الهم والدنيا ونفسي والهوى كيف التخلص من يدى أعدائي

فصل: فلما أرست الجاشو مرسى عدن أنفذ صاحب التعكر إلى ابن عمه صاحب الخضراء وقال له: ما نصنع وهذا العدو قد دهمنا؟ فقال له: غلطنا في الكيل فشرد منا الحيل واعمل برأيك فيما ترى، فقال: انزل من الخضراء وأنا أكفيك شرهم، فنزل النحس شبه ألف جعس وسلم الحصن إلى ابن عمه، وأنشد المنصور بن إسماعيل الأبزى يقول:

الناس بحر عميق والبعد عنهم سفينة
وقد نصحتُك فانظر لنفسك المسكينة

وحدثني الشيخ بلال بن جرير المحمدى قال: لما ملكت حصن الخضراء بعدن وأخذت الحرة بهجة أم على بن أبى الغارات وجدت عندها من الذخائر ما لم يقدر على مثله، وعدن كلها بيدى في مدة متطاولة.

قال بلال: وبين عدن وبين لحج مسيرة ليلة، فأذكر أني كتبت من عدن بخبر الفتح وأخذ الخضراء وسيّرت بشيراً بالبُشرى إلى مولانا الداعي سبأ بن أبي السعود، وفي اليوم [الذى] كان فيه فتح الخضراء فتح مولانا مدينة الرعارع فالتقى رسولي ورسوله بالبشرى، وذلك من أعجب التأريخ سنة خمس وأربعين وخمسمائة.

واشتغلت الجاشو بالأكل والشرب ودار السُّكْر بينهم، فصار مقدمهم ينادى أصحابه: كفوا عما أنتم عليه مشغولون، فلم يسمع منه إلا من له لب وفهم، وبقى

الباقون غادون على حالهم إلى أن نزل صاحب حصن التعكر مع جمع من الخلائق، فركبوا السيف على الجاشو فلم يسلم منهم إلا كل طويل العمر، فكانت جماجم رءوسهم ملء تلك الأرض، فكان إذا أشكل على رجل من أهل عدن موضعًا قال: أين من الجماجم؟ فعُرف الموضع بالجماجم، والمعنيّ بالجماجم رءوس الجاشو.

فلما انتصرت بنو زريع هذا النصر نزلوا من الحصون وسكنوا الوادى وبنوا الدور الملاح، وهم أول من بنى الدور الحجر والجص بعدن، وكان يُجلب الحجر إلى عدن من أعمال أبين لأجل العمارة، ولم يُظهِر لأهل عدن المقلع إلا أبو الحسن على بن الضحاك الكوفى، فلما أن سكن عدن اشترى عبيداً زنوجًا يقطعون الحجر من جبال عدن، وكانت الجوارى تنقله على أعناقها، فمن حينئذ قطعوا الحجر بها وصارت مقالع يُعرف كل مقلع بصاحبه: مقلع على الأنكى، ويوسف الأردبيلى، ومقلع ريتيه النحار، ومقلع إسماعيل السلامى، ومقلع حميد بن حماسة، ومقلع عبد الواحد بن ميمون، ومقلع أبى الحسن بن الدورى، وتملكوها إلى أن صارت لهم ملكا ومستغلاتٍ.

فصل: ولما قبض شمس الدولة توران شاه بن أيوب بن شاذى على عبد النبى ابن على بن مهدى، وهو آخر من تولى من العرب أرض الخصيب، وجاء به مسلسلاً إلى عدن، وقبض على ياسر بن بلال بن جرير المحمدى، مولى الداعى محمد بن أبى السعود بن زريع، وهو آخر من تولى من الدعاة، أقعد كل واحدٍ منهم فى خيمة وحده، فالتفت عبد النبى فوجد ياسر بن بلال يسارقه بالنظر فقال: يا عبد السوء ما تنظر إلا إلى أسد مقيد بقيد من حديد ومسلسلٍ بسلاسل حديد.

وكان أبناء زريع يؤدون الخراج إلى الخلفاء الفاطميين، وهو لأجل المذهب لأن القوم كانوا إسماعيلية، وكل من تولى بأرض اليمن من بنى زريع يسمى الداعى، أى يدعو الخلق إلى المذهب، والملاحدة الذين هم ملوك كِرْدكُوه وألَمُوت، وهما حصنان على جبل على مُدور لهم ـ أى للملاحدة ـ يأخذون الخراج من جبل السماق الذى لهم بأعمال الشأم، ومن القرامطة الذين بالسند، ومن التورسنا الذين هم بأعمال نجران، وإن كانوا كفاراً فهم على عقيدة واحدة، وبعدهم ملك الغز البلاد وبنوا المنظر على جبل حُقات بعد رجوع شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن إلى مصر، وسلم عدن إلى فخر الدين، أبو عثمان، عمر بن عثمان بن على الزنجبيلى التكريتى.

ذكر بناء سور عدن

حدثنى عبد الله بن محمد بن يحيى قال: أرسى مركب من المغرب إلى عدن فى الليل فنزل الناخوذة من المركب فدار عدن فإذا هو بدار عالية وبه شمع يَقِدُ وعود يبخر فدق الباب فنزل الخادم ففتح له وقال له: هل لك من حاجة؟ قال التاجر: نعم، فاستأذن الخادم له، فقال له صاحب الدار يصعد، فصعد فسلّم كلٌ على صاحبه، من غير معرفة، وجرى الحديث، فقال الناخوذة: إنى قدمت الليلة من المغرب وأريد من إنعام المولى أن أخفى عنده بعض التحف، قال: ولِمَ؟ قال: خوفًا من الداعى، وقال له: أقبل ولا تخف من الظالمين، انقل جميع ما معك إلى الدار الفلانية، فنزل التاجر فصارت البحارون ينقلون المتاع من المركب إلى

الصناديق إلى الدار إلى أن يخلوا ثلثي ما في المركب، فلما أصبح الناخوذة وجد صاحبه البارحة الداعي بعينه، وقال في نفسه: خفت من المطر فوقعت تحت الميزاب، وتشوش خاطره واسودّ ناظره، فأنفذ الداعي إليه وقال له: أنا صاحبك البارحة وأنا الداعي مالك عدن، اليوم طيّب قلبك واشرح صدرك، عشور مركبك هبة مني إليك مع الدار التي نزلت فيها، وهذه الف دينار تنفقها ما دمت في بلادنا، وحرام عليّ أخذ شيء منك، لا على وجه الهبة ولا على وجه البيع والشرى، فقال له الناخوذة: وعلام[1] هذا كله؟ قال: لدخولك علينا البارحة منزلنا في نصف الليل، وأمر أن يُمد سور من الحصن الأخضر إلى جبل حُقات فأدير سور ضعيف وارتدم بعضه على بعض واهتدم لدوام الموج عليه، فلما خرب أدير عليه سور ثانٍ من القصب شُبّك، وبقي على حاله إلى أن بناه أبو عثمان عمر بن عثمان بن علي الزنجبيلي التكريتي دائراً على جبل المنظر إلى آخر جبل العُر ورُكّب عليه باب حُقات، وأدار سوراً ثانياً على الجبل الأخضر، وحده من حصن الأخضر إلى التعكر على رءوس الجبال، وأدار سوراً على الساحل من الصناعة إلى جبل حُقات، وركب عليه ستة أبواب: باب الصناعة، وباب حومة، وباب السكة، وهما بابان يخرج منهما السيل إذا نزل الغيث بعدن، وباب الفرضة ومنه تدخل البضائع وتخرج، وباب مشرف، لا يزال مفتوحاً للدخل والخرج، وباب حيق، لا يزال مغلقاً، وباب البر، قد تقدم ذكره، وبنى سورها بالحجر والجص، وبنى الفرضة وجعل لها بابين.

---

(١) في الأصل: «على ما» والصواب هو المثبت، لأنه يجب حذف ألف «ما» الاستفهامية إذا جُرّت مع إبقاء الفتحة دليلا عليها، فرقًا بينها وبين الموصولة، وإذا كان الجار قبلها مختوماً بألف مقصورة أُبدلت ألفاً محضة مثل: «إلامَ ـ علامَ ـ حتامَ».

فصل: قال ابن المجاور: وخروج الإنسان من البحر كخروجه من القبر، والفرضة كالمحشر، فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد، فإن كان رابحًا طاب قلبه، وإن كان خاسراً اغتم، فإن سافر في البر فهو من أهل ذات اليمين، وإن رجع في البحر فهو من أهل ذات الشمال.

فإذا كان هذا حال المخلوق في عالم الكون والفساد مع مخلوق كذا، فكيف حال المخلوق بين يدى الخالق غداً في هول العرض الأكبر، اللهم لا تناقشنا يا كريم.

وبنى ابن الزنجبيلى قيصارية العتيقة والأسواق والدكاكين ودور الحجر ورجعت عدن في زمانه، فلما دخل سيف الإسلام إلى عدن أوقف ابن الزنجبيلى جميع الأملاك على مكة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وبنى الملك المعز إسماعيل ابن طغتكين بن أيوب بنية جميعها دكاكين بالباب والقفل للعطارين قيصارية جديدة، ثم بناها المعتمد رضى الدين محمد بن على التكريتى على اسم الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبى بكر، وكثر الخلق بها فبنوا الدور والأملاك وتوطن بها جماعة عرب من كل فج عميق.

وبنى المعتمد محمد بن على حمام حسين وحفرت الناس بها الآبار وبنوا بها المساجد وأقاموا المناير ورجعت طيبة.

والأصح إنما عمرت إلا بعد خراب فرضة أبين وهرم، وانتقل التجار من هاتين المدينتين وسكنوا قلهات ومقدشوه فعمرت الثلاث المدن حينئذ، والله أعلم.

وصورة عدن على هذا الوضع والترتيب:



صـــفة عـــدن وذكـــرها

بناء البلد في وادى البحر مستدير حوله هواؤه كَرِبٌ ولكنه يقطع خل الخمر فى مدة عشرة أيام، وماؤها من الآبار وشيء يُجلب من مسيرة فرسخين، والله أعلم.

ذكـــر الآبـــار العـــذبـــة

داخل عدن بئر حلقم عود السلطانية، وبئر على بن أبى البركات بن الكاتب قديمة، وبئر أحمد بن المسيب، وبئر ابن أبى الغارات قديمة، عند باب عدن، وبئر المقدم قديمة، وثلاثة آبار لداود بن مضمون اليهودى، وثلاثة آبار للشيخ عمر بن الحسين، وبئر لعلى بن الحسين الأزرق، وبئر جعفر قديمة طولها أربعون ذراعاً، وبئر زعفران، اشتريت بمدنه وأوقفت على المسلمين.

فصل: حدثنى عبد الله بن محمد بن يحيى قال: إنه كان ينقل ماء بئر زعفران إلى سائر بلاد اليمن، قال لأن سيف الدين، أتابك سنقر مولى الملك المعز إسماعيل بن طغتكين، شرب عند المعتمد محمد بن على التكريتى نبيذاً أعجبه طعمه فقال له: مم عملت هذا النبيذ؟ قال: من ماء زعفران، إذا أُقلت فى هذا الماء داذىٌ وتُرك فى الشمس يرجع نبيذاً كاملا، ولا يحتاج إلى عسل ولا إلى شىء، أى وضعة، فمن الحين كان ينقل له هذا الماء إلى الجَـنَد وتعز وصنعاء وزبيد يعملون منه نبيذاً، والأصح ماء الترب.

ويقال: إنه في الأصل كان عذباً فراتاً والآن قد علته ملوحة بعض الشيء من سوء أفعال الخلق.

وبئر السلامي، بئر حفرها الشيخ إسماعيل بن عبد الرحمن السلامي، وبئر روح قديمة، وبئر عود قديمة، وبئر ابن الذؤيب صهر الشيخ معمر بن جريج، وبئر الحمام حفرها محمد بن علي التكريتي، وبئر الحمام الثانية قديمة، وبئر مور قديمة، وبئر جلاد قديمة، وبئر الخضامي قديمة.

فصل: حدثني محمد بن زنكل بن الحسن الكرماني عن رجل من أهل عدن قال: حدثني عبد الله بن محمد الإسحاقي الداعي أن بداخل عدن مائة وثمانون بئراً حلوة ولكنها مانعة، والله أعلم.

ذكر الآبار المالحة بعدن

بئر وضاح قديمة، وبئر ثانية إلى جنبها، وبئر مين عند مرابط الخيل، وبئر أم حسن قديمة، وبئر قندلة على طريق الباب، وبئر سنبل قرب الحمام، وبئر سالم، وبئر حندود، وبئر فرج، وبئر الزنوج، وبئر الأفيلة وحفرت سنة عشرين وستمائة، وبئر ريش السواني، وبئر في قرب دار القطيعي السلاطة، وبئر الشريعة.

ذكر آبار ماؤها بحر عدن

بئر في حافة الدياكلة، وبئر عند باب مكسور، وثلاثة آبار للبرابر، وبئر عند

الجامع، وبئر عند مسجد أبان، وبئر مسجد المالكية، وبئر حبس القاضي، وبئر أبي نعمة، وبئر الجماجم، وبئر الصناعنة، وبئر سوق الخزف، وثلاثة آبار عند بيت ابن فلان، وبئر سنبل، وبئران عند مسجد النبي، وبئر الأديب ظفر، وبئر حُقات، وبئرا حساس، وبئر الجرائحي، والصهريج عمارة الفرس عند بئر زعفران، والثاني عمارة بني زريع على طريق الزعفران أيمن الدرب في لِحْف جبل الأحمر، إذا حصل المطر تقلب السيل إليه يومين ويُضمن كل عام بسبعمائة دينار.

قال ابن المجاور: وضمن بعضهم هذا في منتصف ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وستمائة بألف وثلاثمائة دينار، فقصصت هذه الحكاية على الكرماني الحفار فقال: يمكن أن تكون مزورة، قلت له: الدليل عليه أن الغيم والشمس لا يزالان يعلوانه وكلما تقصره الشمس يحلو، قال: أليس أن الشمس تأخذ ما خف من المياه؟ قلت: فما أخف في المياه من الماء المالح ولا أثقل من الماء الحلو، قال: أريد على هذا برهاناً، قلت: لو لم يكن ماء البحر خفيفاً لجاف، ولو جاف لما كان أحد يسلكه فمن خفته ثبت على حال واحد.

والوجه الرابع: حدثني عبد الله بن مسلم ساكن المياه وعبد الله بن يزيد الحجازي وغزي بن أبي بكر وعمرو بن علي بن مقبل قالا جميعاً: إن وراء جبل العر فضاء وعليه جبل دائر والبحر مستدير حول الجبل وفي صدر الوادي، أي في لحف الجبل، يخرج منه عين ماء عذب يغلب إلى الوادي، وقد نبت على نداوة هذه العين شجر الأراك والتنضب والعشر وقد يرجع عقدة، قلت: فلم لا يستقي منها أهل عدن؟ قال: ليس إلى هذا سبيل ولا عليه طريق الرجالة تتعلق في لحف الجبل،

قلت: وما علمكم بهذا؟ قال: إن عامًا من الأعوام خالفت عدن وغلقت أبوابها ونحن فى المياه فهربنا بجمالنا إلى هذا الوادى، قال: فحينئذ حبر ابن المملا وهذا هو الأصل فى البينة، وسلم من ساعته.

ذكر الآبار الحلوة بظاهر عدن

بئر أحمد العشيرى قديمة طيبة الماء، بئر أحمد بن المسيب حُفرت سنة أربع عشرة وستمائة، وبئر العقلانى حُفرت سنة خمس عشرة وستمائة، وبئر خيط عتيقة، وبئر عقيب وتسمى بئر الكلاب، ويقال: إن الكلاب نبشت الأرض فى هذا الموضع فحُفرت عقيب ذلك فى ذلك المكان بئر عرفت البئر ببئر الكلاب، وجدد عمارتها أحمد العشيرى سنة اثنتين وستمائة، وبئر الجديدة حفرت سنة إحدى وعشرين وستمائة، وبئر السلامى حفرت سنة سبع عشرة وستمائة، والآبار التى بطريق اللخبة آبار اللخبة بئر السماكين على الطريق فى قرب المسجد، حُفرت سنة ست عشرة وستمائة، وبئر الموحدين فى أول شط اللخبة، وبئر أصحاب العمارة، حفرت سنة أربع عشرة وستمائة لأجل ضرب اللبن، وبئر الشيخ على بن عبيد، فى وسط اللخبة، حفرت سنة عشر وستمائة، وبئر السعفة، حفرت على طريق المفاليس قديمة، ولم يُستق منها إلا إذا غلا الماء بعدن، وبئر العماد على طريق أبين قديمة، يُستقى منها أيام الموسم.

وغالب سكان البلد عرب مجمعة من الإسكندرية ومصر والريف والعجم والفرس وحضارم ومقادشة وجبالية وأهل ذبحان وزبالع ورباب وحبوش، وقد التأم إليها

من كل بقعة ومن كل أرض وتمولوا فصاروا أصحاب خير ونعم، وغالب أهلها حبوش وبرابر.

ولم يكن في سائر الربع المسكون والبحر المعمور أعجب من نساء البرابر ولا أوقح منهن، والله أعلم.

القول على وقاحة نساء البرابر

إذا تخاصم بعض نساء البرابر مع أخرى تخلع ما عليها من الثياب وتلطم صدرها وتصفق وتقفز وتسلق عينيها في وجه صاحبتها وتغدو كل واحدة منهما تارة تنام وتارة تنحني وتارة تضحك و[تارة] تبكي وتارة تعبس وتارة تلطم، وتنتف شعرتها تذره في الهوى وتدخل إصبعها في رحمها وتلعق صاحبتها من رحمها أو تدس إصبعها في ثقبها، تشِمّ صاحبتها الخراء، وأيش ما عملت إحداهن عملت الأخرى مثل الأولى، فما رأيت أوقح ولا أوسخ ولا أقل حياء من البرابر، لا جزاهم الله عن الإسلام خيراً، وقال النبي ﷺ: «الحياء من الإيمان» وقال حكيم: إذا لم تستحيِ فاصنع ما شئت، وقال بعض العجم في هذا المعنى شعراً:

جه نيكو كفت خسرو با سپاهي

چو شرمت نيست رو آن كن كه خواهي

فصل: نساء بين الصورين بالموصل ونساء النقّاطات ببغداد إذا خاصمت إحداهن الأخرى تصعد السطح عريانة وتقف على الطف وتضرب يدها على رحمها وتقول: اضربي من خرئي لبن ومن شعرتي تبن، ونساء يتربون في الخانات،

يسمونهم العجم كام سرواني، إذا خاصمت إحداهن الأخرى تضرب إصبعها في جعصها وتشم صاحبتها، ونساء السناكمة في اليمن إذا خاصمت إحداهن الأخرى ترفع إزرتها وتقف على أربع وتقول للتي تقابلها: بالله يا ستي أبصري الهلال قد طلع والخزا قد انقطع، ونساء سيوستان تخلع ثيابها وتنزل السيل عريانة تسبح، ونساء القرامطة إذا قعدت لقضاء حاجة تغطي وجها وتكشف قماشها كله، ونساء النهروان تمدد قائمةً قدام المزين ويحلق لها شعرتها، وإذا أرادت أن يحلق لها شعر استها يدس المزين في استها أكرة صغيرة فيها خيط ممدود وتضم المرأة شعرتها على الأكرة ويمد المزين الخيط بيده اليسرى فحينئذ تخرج شعرتها فيحلق الشعر بيده اليمنى وكذلك الرجال، ونساء الروم يدخلن الحمام مع الرجال فتدخل المرأة مع زوجها عريانة، والسماكات في الديول، فإذا تخاصمت امرأة مع أخرى تدس السمك في رحمها، والنساء اللاتي يَبِعْنَ الخضر تدس في رحمها فجلة.

ملبوسهم الكتان والعمائم الملس، وأما العجم فتتعمم بذؤابة بر الذؤابة فتغرزها في العمامة ثانية، وهكذا أصحاب الشيخ عدي بالموصل، وعلى كتف كل واحد منهم كرأى مصلى أو منديل مطرز.

وقيل لرجل من أهلها: تعال معي إلى فلان، قال: أنا عريان، قال: أليس ثيابك عليك؟ قال: صدقت، ولكن ليس معي كرو.

لبس نسائهم الحجل، وهو الخلخال، والحراف، ويسمى عند العجم مسحه، والدملج.

وأنشد بعضهم في حلي أهل اليمن:

يا بدر تم طلعـــا ونور فجرٍ سطـــعا
ويا قضيبًا ناعـــمًا على كثيب مـــرعا
وبارقًا من ثغـــر من يهواه قلبي لمـــعا
ويا غزالاً مـــر بي عصرًا يجر الخلَـــعا
محجلاً مدملـــجًا محرقًا مملجَـــعا
مشيعًا مظـــرقًا مطوفا مقنـــعا
معبلاً محجـــلاً مكحلاً مشـــرعا
منعمًا معطـــرًا ملطفًا مســـرعا

ومادتهم من الهند والسند والحبشة وديار مصر، ومأكولهم الخبز وأدمهم السمك، غاية عمل نسائهم القفاع، ورجالهم تبيع العطر والقنبار، وبناء دورهم مربعة، كل دار وحدها طبقتان السفلى منهما مخازن والعليا منهما مجالس، وبناؤهم بالحجر والجص والخشب والملح والجص.

فصل: اختفت الكلاب فيها بالنهار، وذلك أن كلبًا كُلِبَ فأكل بعض أولاد البرابر، فاستغاثت المرأة البربرية إلى رضي الدين المعتمد محمد بن علي التكريتي، فأمر المعتمد بقتل كل كلب في عدن، فقتل في اليوم خمسة وعشرون كلبًا وهرب الباقون إلى رءوس الجبال وبطون الأودية، وسكنوا طول النهار ويخرجون في الليل يدورون البلد بالليل، وذلك في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، يأكلون ما يجدونه مرميا في السناديس، لأن سناديس القوم على وجه الأرض، كما قال ابن عباد الرومي:

يربين القطاط بغيـــر نفع ليأكلن الذي يرمين سقطا
فهن قبـــور أولاد الزواني إذا أسقطتهن لشمن قطا

ولم يظهر بمكة كلب بالنهار بل يأوون في الجبال، وتأوى الكلاب في الكوفة بالنخيل، وفي مقدشوه بالمقابر، وأما كلاب عدن فنعوذ بالله من عضهم، لأنهم رجعوا سما ناقعاً لقلة شربهم الماء، وإذا حصل لهم ماء يكون مالحاً، وهو أشد من كل شديد.

ذكر وصول المراكب إلى عدن

إذا وصل مركب إلى عدن وأبصره الناظرون والناطور على جبل نادى بأعلى صوته: هيريا! وهو آخر جبل الأخضر الذى بنى عليه الحصن الأخضر، ويسمى في الأصل سيرسيه، وما يقدر الناطور ينظر إلا عند طلوع الشمس وغروبها لأن في ذلك الوقت يقع شعاع الشمس على وجه البحر فيبان عن بعد مسافة ما كان، ويكون الناطور قد عرض عوداً قدامه، فإذا تخايل له شيء في البحر قاس ذلك الشيء على العود، فإن كان طيراً أو غيره زال يميناً أو شمالاً أو يرتفع أو يهبط فيعلم أنه لا شيء، وإن كان الخيال مستقيماً على فيء العود ثبت عنده أنه مركب أشار إلى صاحبه وهو ينادى: يا هيريا! وأشار صاحبه إلى رفيقه وأشار الرفيق إلى جراب بإعلام المركب، فحينئذ يوصل الجراب خبر المراكب إلى والى البلد، فإذا خرج من عند الوالى أعلم المشائخ بالفرضة، وبعدهم ينادى بأعلى صوته من على ذروة الجبل: هيريا هيريا هيريا! فإذا سمع عوام الخلق الصوت ركب كلٌ جبلا وصعد سطحًا يشرف يميناً وشمالا، فإن كان ما ذكره صحيحاً يُعطَى له من كل مركب دينار ملكى، وذلك من الفرضة، وإن كان كاذباً يُضرب عشرة عصى.

فإذا قرب المركب ركب المبشرون الصنابيق للقاء المركب، فإذا قربوا من المركب صعدوا وسلموا إلى الناخوذة ويسألونه من أين وصل؟ ويسألهم الناخوذة عن البلد ومَن الوالي وسعر البضائع؟ وكل من يكون له في البلد أهل أو معارف من أهل المراكب إما أن يهنوه أو يعزوه له وعليه، ويقدم مبشر نحو الناخوذة ويكتب اسم الناخوذة وأسماء التجار ويكون الكراني قد كتب جميع ما في بطن المركب من متاع وقماش فيسلم إليهم الرقعة، وينزل المبشرون في الصنابيق راجعين إلى البلد كلهم رأسًا واحدًا إلى الوالي ويعطونه رقعة الكراني مع ما كتبوه من أسماء التجار ويحدثونه بحديث المركب ومن أين وصل وما فيه من البضائع، ويخرجون من عنده يدورون في البلد يبشرون أهل من وصل بجمع الشمل ويأخذ كلٌ بشارته.

فإذا وصل المركب المرسى وأرسى تقدم إليهم نائب السلطان ويصعد المفتش يفتش رجلا بعد رجل، ويصل التفتيش إلى العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الآباط ويضرب بيده على حجرة الإنسان ويدخل يده بين أليتيه ويشتمه على قدر المجهود، وكذلك عجوز تفتش النساء تقرب بيدها في أعجازهن وفروجهن.

فإذا نزلت التجار إلى البلد نزلوا بدبشهم من الغد، وبعد ثلاثة أيام تنزل الأقمشة والبضائع إلى الفرضة تُحل شدة شدة وتُعد ثوبًا ثوبًا، وإن كان من بضائع البُهار يوزن بالقبّان ويُضرب في جميع ما أشكل عليهم الشبح لئلا يبقى شيء وقد عاهدوا الله عز وجل أن يبذلوا المجهود قدام المشائخ.

قال ابن المجاور: وحينئذ يظهر على التاجر الحِراف ويقتله الحزن ويبقى في وادي الدبور بما يعملون معه من الفعل الذي يطير منه البركة والسعادة.

ذكر العشور

ثم ضرائب وقوانين، استجدت من أيام دولة بني زريع، ويقال: أول من استجده فلان اليهودى، وقيل: يسمى خلف اليهودى النهاوندى، فبقيت الخلق تجرى على قواعدهم وضرائبهم إلى يوم الدين، يؤخذ فى بهار الفلفل ثمانية دنانير عشوراً ودينار شواني، وخروجه على الفرضة ديناران، وعلى قطعة النيل أربعة دنانير شوانى، وخروجه من الفرضة ربع، وعلى بهار الأنكزة، وهو الحلتيت ثمانية دنانير، وعلى بهار قشر المحلب ثلاثة دنانير ونصف، وعلى بهار الطباشير أحد وعشرون ديناراً إلا ثلث ودينار شواني، وعلى عود الدفواء نصف المبلغ، وعلى فراسلة الكافور خمسة وعشرون ديناراً ونصف وسدس، وعلى بهار الهيل سبعة دنانير، وعلى فراسلة القرنفل عشرة دنانير وشواني دينار، وعلى الفراسلة عشرة أمنان عنها عشرون رطلا، وعلى فراسلة الزعفران ثلاثة دنانير وثلث، وعلى بهار الكتان سبعة دنانير ونصف.

وإذا ابتاع مركبًا يؤخذ من البائع من المائة عشرة دنانير، ويؤخذ من الحديد عشور النصف استجد فى أيام دولة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، أول من أُخذ منه من أبى الحسن البغدادى، ويقال: من فلان الفروانى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ومن الملاك الربع، ويقال: الثلث وديناريين استظهاراً، ومن بهار الفوة اثنى عشر ديناراً استجد فى أيام دولة الملك المعز إسماعيل بن طغتكين، وكان عليه قبل ديناران، ويقال: ثلاثة، وعلى بهار الحمر ثلاثة جوَز، وعلى العشرة المقاطع ديناران ونصف، وعلى العشر العقدات نصف وربع جائز، وعلى الرأس الضأن ربع،

وعلى الحصان إذا دخل البلد خمسون دينارا استجد في دولة الملك الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب، ويؤخذ في خروجه إلى البحر سبعون دينارا، وعلى الرأس الرقيق ديناران، وإذا خرج من الباب نصف دينار، وعلى العويلي السندابوري ثمانية دنانير ودينار شواني، ويؤخذ في الخروج من الباب على العوملي نصف دينار وهو لضامن دار النبيذ، ويؤخذ على شقق الحرير من عمل زبيد نصف دينار وجائز، وعلى الثوب الظفاري ربع وجائز، وعلى الشقة البيضاء ثُمن، وعلى السوسي ثلاثة قراريط، وعلى فوط السوسي ربع وجائز، وعلى كورجة المحابس أربعة دنانير، وعلى كورجة الأحواك ديناران ونصف، وكذلك السباعي، وعلى كورجة الثياب الخام الهندي ديناران ونصف، و[يؤخذ] على سواسي الكتان الكبار جائزان وقيراط وعلى الصغير جائزان وفلسان، وعلى كل قفعة ذرة ثمن، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر تخريج عشور الشواني

لم يكن ملوك بني زريع يعرفون الشواني وبقوا إلى أن دخل شمس الدولة توران شاه بن أيوب اليمن ودخل معه شوانٍ، فلما خرج ولي عثمان بن علي الزنجبيلي التكريتي عدن وبقيت عنده الشواني إلى أن هرب دخل سيف الإسلام طغتكين بن أيوب اليمن، فأشار عليه بعض أرباب العقل فقال له: وبِمَ تستحل أخذ العشور من التجار؟ قال: أجري على ما كانت عليه ملوك بني أيوب فيما تقدم من الأيام، فقال له: إنهم كانوا يأخذون الناس بيد القوة ولكن خذ ذلك أنت على رأي تُشكر به عند الخلق، قال: وما هو؟ قال: أنفذ بهذه الشواني إلى البحر يحموا التجار من السراق

ويكون لهم بعض الشيء على السداد بدل ما هي بطّالة تقرعها الشموس، فقال: والله لقد جئت برأى حسن، فأخرج الشوانى إلى الهند، فكانت الشوانى تقف على رأس المنادخ يحفظون مراكب التجار من سطوة السراق، فبقوا على حالهم إلى سنة ثلاث عشرة وستمائة.

ودخل بعض الأكابر وقال: خلد الله ملك مولانا السلطان، إنه يخرج من خزانة المولى كل عام لأجل الشوانى خمسين وستين ألف دينار بطّال فإن أخذ المولى هذا القدر من التجار لم يضرهم ذلك، قال: فكيف العمل؟ قال: كل ما أُخذ من العشور ألف دينار يأخذ منه الشوانى مائة دينار، فهو يجتمع للمولى ولم يَبِنْ للتاجر.

وأُسس ذلك فى أيام دولة الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبى بكر بن أيوب، وبقى إلى سنة خمس وعشرين وستمائة، كتب الشريف إلى الملك المسعود: إن مال الشوانى يحصل إن سافرت الشوانى وإن لم تسافر، فكتب الملك المسعود وقال: إن كان الأمر على ما ذكره مستقيماً فأبطلوه، فبطل الشوانى وصار عشوره يؤخذ إلى يوم القيامة مع الشواني، والله أعلم.

الذى لم يؤخذ عليه عشور

الواصل من ديار مصر: الحنط والدقيق والسكر والأرز والصابون الرقى والأشنان والقطارة وزيت الزيتون وزيت الحار والزيتون المملح وكل ما يتعلق بالنقل إذا كان قليلاً، والعسل النحل إذا كان قليلاً.

والذى يجلب من الهند: كل ما يراسل فى البحر والهليلج المربى والأكرارا

والمخاد والمساور والأنطاع والأرز والكجرى، وهو الأرز والماش مخلوط، والسمسم والصابون.

ومن البضائع المغر: الكلاهي والنشم وحطب القرنفل وثياب العرابية، تعمل في بدقلي، ومن معاملة الشجر: التمر المقلف، وهو الذى استخرج نواه، والسمك المملح، إن كان برأس أُخذ عليه، وإن كان لا رأس لم يؤخذ عليه، ونعال الهندية، إن كان بشراك أُخذ عليه وإن كان بلا شراك فليس عليه، والتيس والمعز ليس عليه.

وكان الموجب أنه قدم سفارة الحبشة بغنم عدوها فلما اشتغل المدادون بالعدد قام تيس يشق الجمع وجاء وقعد وراء ظهر ياسر بن بلال بن جرير المحمدى، والأصح وراء الداعى عمران بن سبأ، فلما فرغوا من العدد أرادوا أن يعدوا التيس مع الغنم فقال الداعى: معاذ الله أن نأخذ عليه شيئاً لأنه قد استجارنى فأزال عنه العشور، والأصح أنه أبصر لحيته فقال: حاشا أن يوزن على لحيته عشور، والخرز الذى يجلب من الديبول وغلمان حودر يُجلبون من الهند.

ذكر ما استجد فى عدن من الوكالة ودار الزكاة

لما كان بتأريخ جمادى الأولى سنة أربع وعشرين، والأصح سنة خمس وعشرين وستمائة أسس فى عدن دار وكالة وعلى كل بضاعة لم يؤخذ عليها عشور

يؤخذ منها زكاة فصار الآن يؤخذ خمس عشورات في مرة واحدة: عشور قديم، وهو بال الفرضة، وعشور الشواني، ودار الوكالة من الدينار قيراط، ودار الزكاة، والدلالة.

فصل : قدم الناخوذة عثمان بن عمر الآمدي من المصر وجد معه منّان عود دون أخذوه منه، فلما جاء وقت المحاسبة قُوم المن العود بستة دنانير خرج عشوره دينار ونصف وخرج شواني نصف وربع وقُوم في دار الوكالة بخمسة وعشرين ديناراً، صحت الوكالة ثمانية دنانير ودانقين، وخرج زكاة دينار وربع وخرج دالة نصف دينار وصح المبلغ خمسة عشر ديناراً خرج منه ثمن العود ستة دنانير فضل عليه تسعة دنانير، حلف الناخوذة عثمان بن عمر الآمدي يمين بالله العظيم: إني لم أزن منه شيئًا ولا فلسا واحداً، ما يكفي أنكم تأخذون مني منين عود بلا شيء وتطالبونني بتسعة دنانير أخرى، ودخل الأمير ناصر الدين ناصر بن فاروت وجماعة في ذلك فقالوا لهم: إنه رجل متردد إلى عدن ونحن نأخذ منه أضعاف ذلك، ودخل المتوسط بينهم حتى خرج رأس برأس.

وضُمن كل ما في عدن ما خلا السمك والماء لا غير، وزيد في القبان سدس بهار عما كان في الأول، وغُير جميع مكاييل اليمن ووضعوه على عيار زبدي الجند وغيروا الأوعاد كلها في سنة خمس وعشرين وستمائة، والفرضة هي مع القوم بالأمانة.

ويقال: إنه وصل مركب وزن عشوره ثمانون ألف دينار، وكان يرسي في كل عام تحت جبل صيرة سبعون ثمانون مركباً تزيد ولا تنقص.

وكان يرفع من عدن في كل عام أربع خزائن إلى حصن تعز: خزانة قدوم

المراكب من الهند، وخزانة دخول القوة إلى عدن، وخزانة خروج الخيل من عدن إلى الهند، وخزانة سفر المراكب إلى الهند، وكل خزانة من هذه الخزائن يكون مبلغها مائة وخمسين ألف دينار تزيد ولا تنقص، وانقطع ذلك في زماننا هذا سنة خمس وعشرين وستمائة.

وكان معاملة عدن في أيام بني زريع ذهب الستعانى على عيار البسطامى وأقل منه، ونقد البلد ذهب ملكي يسوى الدينار المصرى أربعة دنانير ونصف ملكى ويحسب الدينار أربعة أرباع، كل ربع ثلاثة جوز كل جائز ثمانية فلوس كل فلس بيضتان.

ويقال: أول من ضرب الدينار الملكى أحمد بن على الصليحى بصنعاء، ويباع الروسى بالقصبة، طول القصبة أربعة أذرع بالحديد، ويباع الألواح الساج بالذراع الحديد، وكل ما يباع في المنادى خرج وأمانة ومن زاد ركب، وكذلك العبيد والجوارى.

صفة بيع الجوارى

تبخر الجارية وتطيب وتعدل ويشد وسطها بمئزر ويأخذ المنادى بيدها ويدور بها في السوق وينادى عليها ويحضر التجار الفجار يقلبون يدها ورجلها وساقها وأفخاذها وسرها وصدرها ونهدها، ويقلب ظهرها ويشمر عجزها ويقلب لسانها وأسنانها وشعرها ويبذل المجهود، وإن كان عليها ثياب خلعها وقلّب وأبصر، وفي آخر الأمر يقلب فرجها وجحرها معاينة من غير ستر ولا حجاب، فإذا قلب ورضي واشترى

الجارية تبقى عنده مدة عشرة أيام زائد وناقص، فإذا رعى وشبع ومل وتعب وقضى وطره وانقطع وطره يقول زيد المشترى لعمرو البائع: باسم الله يا خواجا، بيني وبينك شرع محمد بن عبد الله، فيحضرا عند الحاكم فيدعى عليه العيب.

ذكـــر البيـــع والعيـب

حدثني الحسن بن علي حزور الفيروزكوهي قال: إني بعت جارية هندية بعدن على رجل اسكندراني بقيت عنده مدة سبعة أيام فلما شبع استعيب فيها وأحضرني إلى الحاكم وادعى عليّ بالعيب، فقال الحاكم: وما عيبها؟ قال: هي واسعة الرحم رهلة الفرج، فقلت له: إذا كان أيرك صغيراً وأنت تتباخل على الجارية بشِرَى الماء فما يصنع فرجها السمين الأبيض المنتوف الطيب، فلما سمعها الحاكم قال لمن حضر: أخرجوهم، فخرجنا ورحت إلى شغلي وبقيت الجارية في كيسه ولم أدر ما فعل الدهر بهما.

وإذا اشترى زيد ثوباً واستغلاه فرّق طرفه ورده على صاحبه لاستظهار عيبه، ويأخذ الدلال دلالته عند القاضي عنفاً وكرها، ويحكم له الحاكم على كل دينارين فلسين دلالة، فإن باع على دكانك له من كل دينار فلس، وإذا باع جملة فعلى المائة دينار دينار، ولهم في كل قطعة نيل ربع.

ولو أراد بعض الناس الخروج لوداع مسافر من الباب لما قدر إن لم يكن معه خط جواز وضامن يضمنه بما يظهر عليه بعد وقت من مال أو عشور ويكتب في الرقعة علامة الوالي ويخرج بعد ذلك، وإن لم يكن له ضامن وإلا أخذ مناد ينادي

عليه في الأسواق: إن فلان بن فلان خارج من الباب فكل من له عليه شيء يطالبه، فإن ظهر عليه شيء كفى الله المؤمنين القتال، وإن لم يظهر عليه شيء خرج إلى أي موضع شاء، كما قيل في المثل: المفلس في أمان الله، وكما قال الشاعر :

قليل الهمّ لا ولدٌ يموتُ ولا أمر يحاذره يفوتُ
قضى وطر الصبا وأفاد علمًا فغايته التفردُ والسكوتُ

ذكر خراب عدن

يفيض البحر فيغرق جميع البلد وترجع المدينة لجة من لجج البحر، كما ذكر في مبتدأ الخلق أنه يجوز عليها المراكب مقلعة خاطفة فتقول أهل المراكب فيما بينهم: إنا سمعنا في قديم الأيام أنه كان في هذا الغب بلد عظيم عامر لأهله مقيم سهل سليم ومقام كريم، فيقول أحدهم: ما تسمى؟ فيقول له: شذ عني اسمه.

وبعد خرابها يعمر مرسى غلافقة، والأصح الأهواب، إلى أن يرجع أحسن من عدن.

حدثني أحمد بن عبد الله بن علي بن الحمامي الواسطي قال: ما بقي من عمارة عدن إلا اليسير، قلت: ولِمَ؟ قال: لأني قرأت في بعض الكتب: إلا إذا اتصلت عمارتها إلى بابها.

قال ابن المجاور: وقد اتصل إلى الباب بعض العمارات.

وقال آخرون: عدن تخرب سنة سبع وعشرين وستمائة، ودل على تصديق المقالة دخول نور الدين عمر بن علي بن الرسول إلى عدن يوم الأربعاء السادس

والعشرين من شهر رجب سنة أربع وعشرين وستمائة، وفي يوم الاثنين الثاني من شعبان طرح الفوة على كل من كان في عدن من غريب وقريب وقوى وضعيف ورجل وامرأة حرة ومفسودة على سعر البهار مائتي دينار وثمانين ملكي، وضرب الخلق بالخشب، وكانت الأيام شبه أيام المحشر كل منهم محتشر ينادى: أين المفر؟.

فلما كان سنة خمس وعشرين وستمائة أخذ جميع فلفل التجار وجميع الخف والنحاس والبربهار حسب الفلفل البهار بأربعين ديناراً وطرحه على أهل الكارم بستين ديناراً، وأخذ الصفر من أهل الكارم على سعر البهار بستين ديناراً وطرحه على أصحاب الخف بثمانين ديناراً، وأعطى أصحاب الفلفل الفوة على سعر البهار بأربعة وثمانين ديناراً، ويأخذ البهار بهاراً وربعًا، وإذا أعطى أعطى البهار بهاراً إلا ربعًا، ويخرج بعد ذلك من هذه البضائع الواصلة العشور والشواني ودار الوكالة ودار الزكاة والدلالة، يفضل مع التاجر لاش في لاش، ويحسب التاجر جميع حسابه بحديده والأرض، وأخذ جميع عُطُب من وصل من الهند مع التجار مستهلك لا بيع ولا شرى.

وضُمن القبان السنة بعشرين ألف دينار، والسليط على كل بهار يصل خمسة دنانير، وسوق الخضرة والجوار والرطب واللحم وجميع الدواب بأحد عشر ألف دينار، ولم يبق شيء يدور عليه اسم وحرف إلا وقد رجع فيه ضمان ما خلا الماء والسمك.

مـــن عـــدن إلى المفاليـــــس

من عدن إلى المياه ربع فرسخ، وإلى المزف فرسخ وطوله ثلاثمائة ذراع وستون خطوة بناه شداد بن عاد لما بنى عدن، ويقال: بناه العجم لما أطلقوا البحر على المياه حتى غرق ما حول عدن من الأراضى فجدد العمارة الشيخ عبد الله بن يوسف ابن محمد المسلمانى العطار وأوقف على عمارته مستغلات بعدن.

وإلى المملاح ربع فرسخ وهو موضع يجمد فيه الملح وكان مخلص رجع الآن على ضمان، ويقال: إن بعضه صار للسلطان لأن أتابك سيف الدين سنقر اشترى نصفه بألف دينار.

وإلى المجدولى ربع فرسخ، وإلى اللخبة ربع فرسخ، ومنها ينقل الآجر والزجاج إلى عدن، بناها أبو عمرو عثمان بن على الزنجبيلى، وإلى الحجر العر فرسخ، وهو مقدار مائة حصاة ممدودة على أيمن الدرب.

وإلى بئر الرجع فرسخان، ويعبر برمل يسمى المغاوى، وأما وادى الرجاع فوادٍ نزه ويسمى عند العرب الحردة بين أشجار أثل وأراك، وقد بُنى على البئر مسجد حسن.

حدثنى الحسن بن محمد بن الحسن بن على بن الحسين المحفنى قال: إن الأديب ظفر بن محمد بن ظفر بنى المسجد والبئر فى الرجاع.

ويقول أهل البلاد، وهم العقارب: ما يتفق ماء الحدرة وعيش، أى لم يتفق أكل خبز وشرب ماء بئر الرجاع، لأن هذا الماء يغنى عن أكل العيش.

وإلى النويعم فرسخان، والنويعم وادٍ نزه ونخيل وشجر سدر، حدثني بعض أهلها أنهما واديان: أحدهما النويعم، والثاني وادى مرحب، وهما آخر الوطاءة وأول الجبال.

وإلى المفاليس فرسخان، قصبة مختصرة بنيت في شعب جبل مثلث، وبنى سيف الإسلام على ذروة هذا الجبل حصن مختصر يسمى المصانع يقال: إنه قديم البناء، وهو ذو إحكام ومكنة، وليس يكون لأهلها بيع ولا شراء إلا أيام الوعد لا غير.

صفة بناء الجب

عرب التهائم من موزع إلى أعمال أبين مع جميع العقارب، وهم عرب هذه البلاد يسمون بنو الحارث، يدعون المحبة لله وفى الله، وإذا وجد أحدهم غزالا ميتة أخذها وغسّلها وكفّنها ودفنها وبقى للغزال عزاء فى جميع القبائل مدة سبعة أيام مشققين الجيوب مقطعين الشعور يذرون التراب على المفارق، فقيل لهم فيما هم فيه فقالوا: نحن نمشى على الأصل ونقول بترك الفرع، كما قال قيس بن الملوح:

فعيناك عيناها وجيدك جيدها		ولكن عظم الساق منك دقيق

ولم يأكل أحد من أهلِ هذه القبيلة خبزاً مقابل امرأة ولا يشرب، ولو مات جوعًا وظمأً، ومن هذا الحد يخلى الجمال ويركب الحمير إلى قدام، وما اشتق اسم المفاليس إلا من الإفلاس، كما قال أبو نواس:

أريد قطعة قرطاس فتُعْوِزُنى		وجُلُّ صحبىَ أصحابُ القراطيسِ
لحاهم الله من ود ومعرفةٍ		إن المياسير منهم كالمفاليسِ

من المفاليس إلى تعز

من المفاليس إلى نقيل الحمر فرسخ ونصف، بناه الشيخ أحمد بن الجنيد بن بطال، حدثنى يحيى بن عبد الرحمن الزراد قال: إنما بناه محمد بن سليمان بن بطال، ويقال: إنه ثلاثمائة وستون ملوىً، أى فركة، ذُبح على كل ملوى رأس بقر فدية وستة أحمال حنطة وخرج ثلاثمائة دينار، ويقال: إنه خرج كل ملوى بألف دينار، وبُنى على كل ملوى سقاية ومسجد، فلما أتمه طالبته زوجته بمهرها فقال لها: ما تريدين منى؟ قالت: أريد أن تعطينى ثواب عملك وأنت فى حل من المهر، فأعطاها ثواب ما عمله، وتم سنة عشرين وأربعمائة، ويقال: سنة عشرين وخمسمائة، وهو بناء عجيب حسن.

صفة الحجر الذى فى النقيل

وفى النقيل حجران فيهما على هيئة فرجى امرأتين، سألت المكارى عن حالهما فقال: إنما كانتا امرأتين مُسختا حجرين، إحداهما بانت فى ضرس جبل، والثانية قُطعت وفُرشت فى جملة بناء المدرج، وبين الحجر والحجر مقدار عشرة أذرع، تحيضان كل شهر، ويقال: كل حول.

قال ابن المجاور: ورأيت فيه شيئاً شبه الدم ولم يتحقق عندى أنه دم أو غيره.

حدثنى أحمد بن المهنا الصفار الحلى ثم القدسى قال: يمكن أن يكون ذلك الدم موميا بنى آدم، لأن موميا ابن آدم الأصل فيه هو الذى يعقد من الحجر ويسيل.

وقال بعضهم: إنه يشم من الحجر رائحة كريهة، شممت ذلك ووجدته

بخلاف ما قالوا، والحجران هما على مائتين وثلاثين ملويًا، وهما على يمين الصاعد من المفاليس إلى الجوة، وعلى يسار النازل من الجوة إلى المفاليس قدر مائة وثلاثين ملويًا، وعلامتهما أن نبت على رأس الحجر الواحد شجرتان سلم فيصل فيؤها إلى الحجر الثاني الذى أدخل في جملة البناء.

وبقى النقيل على حاله إلى أن دخل شمس الدولة توران شاه بن أيوب اليمن فخربت العرب بعض النقيل لئلا يعبر أحد من الغز، وبقى مهدومًا إلى أن تمكن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب من المُلك وجدد عمارته من ماله، والأصح أنه أمر تعقب بانيه بالجلالة.

وكان قبل أن يعمر الشيخ محمد بن سليمان بن بطال الركبى هذا النقيل طريق حرز، وهو أن يخرج على لحج يدخل واديًا ولا يزال يسير فيه إلى الجوة فى شعاب وأودية ووطاءة قريب المسافة، وما قطع الناس مسير طريق حرز إلا من شدة الخوف بها لأنه لا يزال مسافره يحرز رأسًا، فلذلك سمى طريق حرز، وسنذكره فى أعمال الجوة.

وإلى أسفل النقيل فرسخان وبه موضع منحدر يسمى المجرية، وفيه أنشد بعضهم يقول:

قطعنا الحمراء والمجرية ... مع تلك الجبال والأودية

وإلى الحنشين نصف فرسخ، وهما خطان أبيضان فى لحف جبل مستقيمان، يقال: إنهما كانا حنشين ملتقيين فضربهما البرق فمُسخوا خطين أبيضين.

وإلى الحواض فرسخ، وطاءة ذات خوف شديد، وإلى الجوة نصف فرسخ، من أعمال الدملوة، وإلى الدملوة فرسخ، والله أعلم.

تم القسم الأول من

تاريخ المستبصر

ويليه القسم الثاني

إن شاء الله تعالى

الموضـــــــوع	الصفحـــــة

الموضـــــــوع	الصفحـــــة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحـــــة
ذكر ما كانت عليه عدن فى قديم العهد	١٢٥
صفة نقر الباب وحفر النهر	١٢٧
المدن التى كانت حبوسا للملوك	١٢٨
جبل صيرة	١٣٠
فصل (زوجة رام جندر والعفريت هنومث، حكايات شتى فى حفر السرب)	١٣٠
المعجلين	١٣٣
بحيرة الأعاجم	١٣٤
بناء عدن	١٣٤
فصل (القمر، أهل سيراف ودخولهم عدن)	١٣٥
ألقاب ملوك عدن من العجم	١٣٦
بناء الجامع	١٣٩
أخبار آل زريع	١٤٠
ما شجر بينهم	١٤١
زوال ملك على بن أبى الغارات وحصولها للداعى سبأ	١٤٢
(غارة ملك جزيرة قيس إلى عدن)	١٤٣
فصل (قتل الجاشو)	١٤٤
فصل (قبض توران شاه على عبد النبى وياسر بن بلال)	١٤٥
بناء سور عدن	١٤٦
فصل (خروج الإنسان من البحر)	١٤٨
صورة عدن	١٤٩
صفة عدن	١٥٠
الآبار المذبة	١٥٠
فصل (بئر زعفران)	١٥٠

الموضوع	الصفحة

القسم الثاني

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بنـاء حصـن الـدملـوة

حدثني يحيى بن علي بن أحمد الرداد قال: إن النواب ظلموا امرأة بدوية صاحبة نعم ومواشٍ، فلما شاهدت المرأة اجتراء القوم في أخذ نعمها ساقت ما بقي معها من المواشي وصعدت الدملوة وسكنت المكان، فلما جاء وقت أخذ الراعي من المواشي أبت على أداء ما عليها من حق وباطل ولزمت مكانها، فلما رأوا قوة بأسها مع شدة ناموسها صعد لها قوم فلم تمكنهم من الصعود ونزلوا حولها فحاصروها فلم يعمل فيها شيء، فلما سمع والي العهد خبر المرأة وتمنعها عن أداء ما عليها من الضرائب المعهودة والقوانين القديمة ورأوا قوة الموضع أنفذ لها ذمة لها ولمن معها وأن يزال عنها وعن مواشيها الخراج ويطيب قلبها، فنزلت المرأة فبني الوالي على الموضع حصنًا منيعًا وهو بذاته قوي مكين سُمي الدملوة لدوام مكث طالبيه تحته على أخذه.

وأنشد محمد بن زياد المازني يمدح أبا السعود بن زريع يقول:

يا ناظري قل لي تراه كما هوْ	إني لأحسبه تقمّص لؤلؤهْ
ما إن نظرتُ بزاخر في شامخ	حتى رأيتك جالسًا في الدملوهْ

ولم يقدر أحد من العرب على أخذه إلا سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بعد أن حاصرها ست سنين، وآخر الأمر اشتراها من القائد كافور مولى الداعي بمائة ألف دينار على شرط أن يأخذ جميع ما فيه ويسلم له الحصن شبه جوف حمار، وهو من الحبشة.

فلما استوفى المبلغ نزل بحرم الداعى وبجميع ما كان إلى العارة وولى فيه المعلم أحمد الصلوى وجارية، ويقال: خادم حبشى، فركب فى المركب وتعدى إلى أرض الحبشة وأنفذ خاتمه إلى سيف الإسلام وأنفذه إلى المعلم أحمد الصلوى بتسليم الحصن، فقال أحمد الصلوى المعلم: لا سمع ولا طاعة، لا لسيف الإسلام، ولا للقائد كافور، أما اليوم فأنا ملك لتملكى هذا الحصن، فرد سيف الإسلام [بأن] نزل على الحصن وحاصره ستة أشهر أخرى فلم يقدر على غرر المعلم، فلما انحصر اشترى الحصن من المعلم ثانى مرة بستين ألف دينار وملك الحصن فهدمه وأعاد بناءه ثانية، وركّب عليه ستة أبواب، ومن جملتها باب الذراع وباب نيهان وباب الأسد وباب الغزال، وحفر فيها ثلاث برك، إحداها فى الشمس على قلة الجبل والاثنتين الأخرين فى الفىء، وغرس فيها بستاناً حسناً، وبنى ميدان وحصنها غاية التحصين، وآخر من اشتراها فارس من جوزا زوجة أتابك سيف الدين سنقر بمبلغ عشرين ألف دينار بعد أن حاصرها عاماً تامّا فى دولة الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبى بكر، فلما صار فى حوزه وقبضته وأدار حول جميع الحصن سوراً ثانياً لإحكام الحصن سنة أربع عشرة وستمائة.

وقد غرس سيف الإسلام تحت الحصن بستاناً يسمى الجنان ويقال الجنات فيه من جميع الفواكه ويطلع فيها وزن كل أترنجة عشرة أمنان.

من الجوة إلى عدن
راجعا على طريق حرز

من الجوة إلى العايرين فرسخان، وإلى نقيل حرز فرسخ، وما عرف بهذا الاسم إلا أنه إذا جاز عليه أحد يحرز أن يؤخذ، وهو تسهيل الملك.

وإلى الماء الحار نصف فرسخ، وهو عين يخرج من معينه حار، عُرف الموضع به، وقد نبت على الموضع جمل من شجر الكاذى لله وفي الله.

وإلى الدعيس أربع فراسخ، وهو من معاملة لحج، وأما أعمال لحج فإنها معاملة طويلة عريضة تصح مقدار عشرين فرسخاً، وقرى كبار ومن جملتها الرعارع، وفيه يقول على بن الحسين الأعرج:

خلَتِ الرعارع من بني مسعودْ وتبدلت بعد القرود أسودْ

فقال له الداعي سبأ بن أبي السعود: بل تبدلت بعد الأسود أسود، وهو ابن منيع ابن مسعود بن المكرم، وكان صاحب لحج، فتغلب عليها سبأ بن أبي السعود بن زريع بن العباس بن المكرم، وقور الدعيس لم يدخلها ناموس، ويرفع منه في كل سنة ألف دينار ملكي إلي بيت المال.

واستولى عليها ناصر الدين محمد بن عمر بن المهدى الرازى فأخربها ونهب أهلها وأحرقها في غرة شوال سنة أربع وعشرين وستمائة، وانتقل جميع أهلها إلى عدن وتفرقت بدوها في تهائم اليمن.

وإلى عدن أربع فراسخ.

مــن الجــوة إلـــى تعـــز

إلى وادى ورزان فرسخ، وهو نهر يفرق بين ثلاثة أعمال: أعمال الجوة وأعمال الجندية وأعمال تعز.

وإلى أكمة همدان فرسخ، وإلى الحمراء نصف فرسخ، وإلى الحوبان نصف فرسخ، وقد بنى بها أتابك سنقر بركة مربعة.

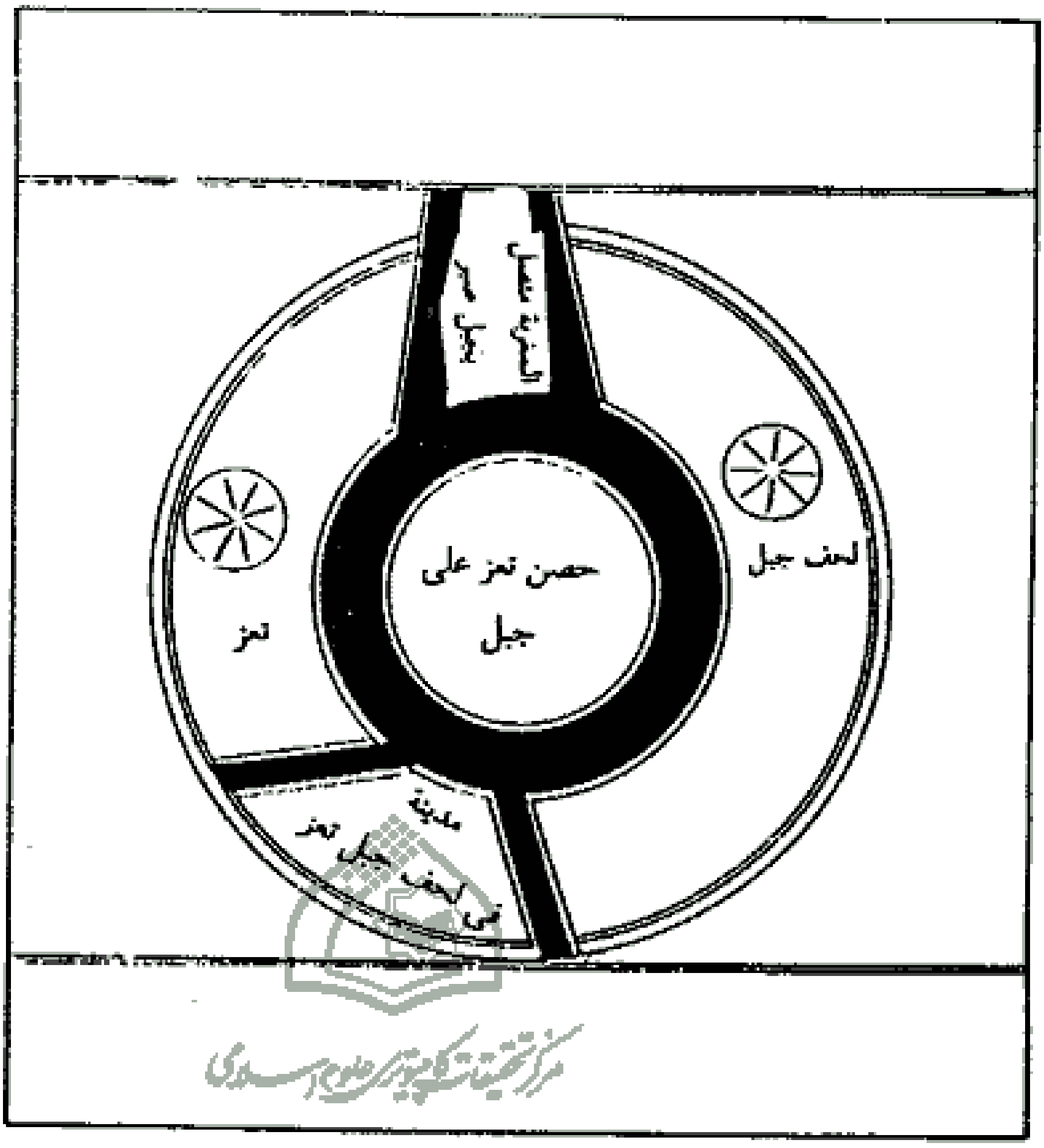
وإلى تعز ربع فرسخ، وتسمى هذه الأعمال حيز الأخضر لكثرة عشبها ومياهها وخضرتها.

صفــة حصـــن تعـــز

حصن بُنى على طريق جبا يسمى الجبل الأخضر ذو مكنة بالجص والحجر بأبواب وأسوار وثيقة عامرة، وليس فى جميع اليمن أسعد منه حصناً، لأنه سرير الملك وحصن الملك.

قال ابن المجاور: ورأيت في المنام أن قائلاً يقول لى: إن حصن تعز يسمى تل الذهب، أو قال: جبل الذهب، فتأملت قوله فوجدته حقًا، لأن أموال جميع اليمن مكنوزة به.

وقال حكيم: إنه قلعة وضع بين مدينتين إحداهما المغربة والثانية في لحف جبل صبر على هذا الوضع، وصورته على هذا الوضع والترتيب.



صفة جبل صبر

جبل مدور يصح دوره ثلاثة أيام رفعته ذات طول وعرض، وفيه من القرى والحصون ما شاء الله وبساتين وكروم وزورع، ولها أربع مسالك: إحداها الخشبة وبرداد وعتدان وجبأ، وما عدا هذه الطرق لم تسلك لوعرها وخشنها، لا لراجل ولا لفارس، وهو جبل طيب، وفيه أنشدت شمس النهار بنت أحمد بن سبأ بن أبي السعود، ويقال: سبأ بن سليمان تقول:

عاتبتني فقالت: كيف طاب لك النأى وخليت الوطنْ
يترك الحبيب الحبيبة ويطلب الإقامة في عدنْ
واعتضتَ من صيد الظباء صيود أرباب السفنْ
واعتضتَ صيرة من صبر سلطان أجبال اليمنْ

وفى بعض كهوفها أصحاب الكهف والرقيم، وهم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾[1].

وأسماؤهم: مكسلمينا ويمليخا وتمرطموس وكسرطويوس وفرورس وححمسميثا، واسم الكلب: دير، ويقال: قطمير، ويقال: حمران وانطبيس والحاين.

وقال آخرون: واويس ولماطونس ومكسلمينا وساوالحاير وكمطظوس ويمليخا، ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ وعلى باب الغار مسجد، وعلى باب المسجد عين تسمى: عين الكوثر، وهو موضع فاضل مزار فى العاشر من رجب.

فإن قال قائل: ليس القوم فى هذا الإقليم، قلنا: بلى، لأن دقيانوس هو الملك الذى أسس مدينة الكدراء وسكن الجند، وكان القوم من أهل الأفسوس، فلما تم لهم ما تم وخرجوا من مدينتهم صعدوا جبل صبر فأووا إلى كهف وجرى عليهم ما جرى، وكلبهم معهم، كما قال الله تعالى: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا﴾[2]، كما قال:

---

(١) الآية: ٢٥ من سورة الكهف.

(٢) الآية: ١٨ من سورة الكهف، ونقول: إن هذا الأمر ليس توقيفيا، فليس هناك ما يؤكد أسماء أهل الكهف أو عددهم أو مكانهم على وجه التحديد، إنما هى أمور اجتهادية، ولا طائل من وراء معرفتها، لكن العبرة فى التمثل بهم فى قوة تمسكهم بدينهم.

كثر الشك والخلاف وكلٌ يطلب الفوز بالصراط السويَ
واعتقادى أن لا إله سواه ثم حبى لأحمد وعليَ
فاز كلبٌ بحب أصحاب كهفٍ كيف أشقى بحب آل النبيَ

وقال دعبل بن على الخزاعى:

ملوك بني العباس فى الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتبُ
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعة كرام إذا عُدوا وثامنهم كلبُ

وينزل ماء تعز من جبل صبر حين اشتراه سيف الإسلام طغتكين لهذا الماء من أصحابه بعشرة آلاف دينار وسبّله، ويسمى ماء الخشبة، وهو ماء خفيف هنيء مريء، ويقال: إنه عين كسر كثير الماء نصفه يُقلب إلى تعز ونصفه ينزل إلى مدينة جبأ، وهو أصح من ماء الخشبة الذى يقلب إلى تعز وأجود منه، وليس يمنّ أهل جبأ على الغرباء إلا بشرب هذا الماء لا غير من طيبه، وينزل جميع فواكهها وأحطابها وأخشابها التى للعمارة لأن الغصن ميال والغيم هطال، ومن يوم يدخل الإنسان الدربعاء إلى أن ينحدر إلى نقيل الحمراء يهب عند كل عصر هواء بارد يحيي الفؤاد وبعده تكلل الأفق بالغمام وينزل الغيث ساعة زمانية ثم يصحو، ويبقى العالم على هذه الصفة مدة ستة أشهر الصيف.

فصل: إذا رأيت الهلال في الماء يضرب إلى الحمرة فإنه يدل على هبوب الريح، فإذا رأيت في وسطه سواداً دل على الغيث، وإذا رأيت عين الشمس حين طلوعها في وسطها شيء من الغيم دل على مطر وصحو جميعًا، وإذا رأيت الشمس تغرب وعليها وحولها قطع قطع من السحاب يدل على المطر، وإذا رأيت سحاباً متفرقًا دل على الغيث، وإذا كان الهلال ابن ليلتين أو ثلاث، فإن رأيت في قرنى الهلال أو كأنه مظلم ملطخ بدم دل على الشتاء وكثرة المطر.

ذكر بلاد ينزل فيها الغيث كثيرا

ينزل الغيث فى أعمال ماردان دائم، وفى أعمال كلاب مدة عشرة شهور، وفي أرض بني سيف مدة أربعين يومًا فى إقليم اليمن ويدبس شهرين، فلذلك سمي البوالة، وإقليم المينا ومدة أربعة أشهر، وإقليم الجاوة ينزل الغيث من الغيم شبه أفواه القرب ولا يستدل سفّارة البحر على إقليم الجاوة إلا بكثرة لمع البرق، وفى إقليم خور فوفل أربعة شهور، وفى العينين ينزل دبس رفيع شبه الصماق دائم، وينزل في جزيرة الخضراء وجزيرة منفية دائم، وفى بلاد السند مدة أربعين يومًا، ويكون فى جميع الهند تارة صحواً وتارة غيثاً، فى نهار واحد مقدار عشر مرات، وتمطر على دار ولا تمطر على أخرى، ويقال: إنها قد تمطر على أحد قرنى الثور ولم تمطر على الآخر، وينزل الغيث فى جبال اليمن ستة شهور ما بين الظهر والعصر.

ذكر المياه والرياح
وما يتعلق بكل كوكب وبرج

فصل الحمل والميزان النيران المشعلة، الجوزاء رياح طيبة ورياح الجنوب، والسرطان المياه العذبة والأمطار الكثيرة الحركة وما ينزل من السماء، الأسد، النيران التى تدخن فى الكوانين وعلم الهوى والنيران التي فى الأحجار، السنبلة كل ما جارى الميزان الرياح التى تلقح الأشجار بهبوبها وتسمن الثمار وتدل على طيبة الجو، والعقرب المياه الجارية التى ينزل إليها بالمراقى مثل الصهاريج والسيول والقرب وما يعجن من الطين، والقوس الأنهار والنيران الغريزية فى أبدان الحيوانات، الدلو

المياه الجارية والبحار والرياح العواصف المؤثرة قلع الأشجار مفسدة للنبات، الحوت المياه الراكدة والبحريات ويدل على الأشجار المعتدلة الطول.

ويسمى أعمال معاشر تعز الشعبانيات وحدوده إلى وادى ورزان وبركة الحوبان، وبه أنشد سليمان شاه بن شاهنشاه بن شاذى يقول:

بُليتُ بها دون الحسان فمهجتى — تذوب وبى من جرة البين بَلْبالُ
أقمتُ بأكناف الخُصيب وأصبحتْ — بحصن تعزٍ ذا التفرق قَتَّالُ

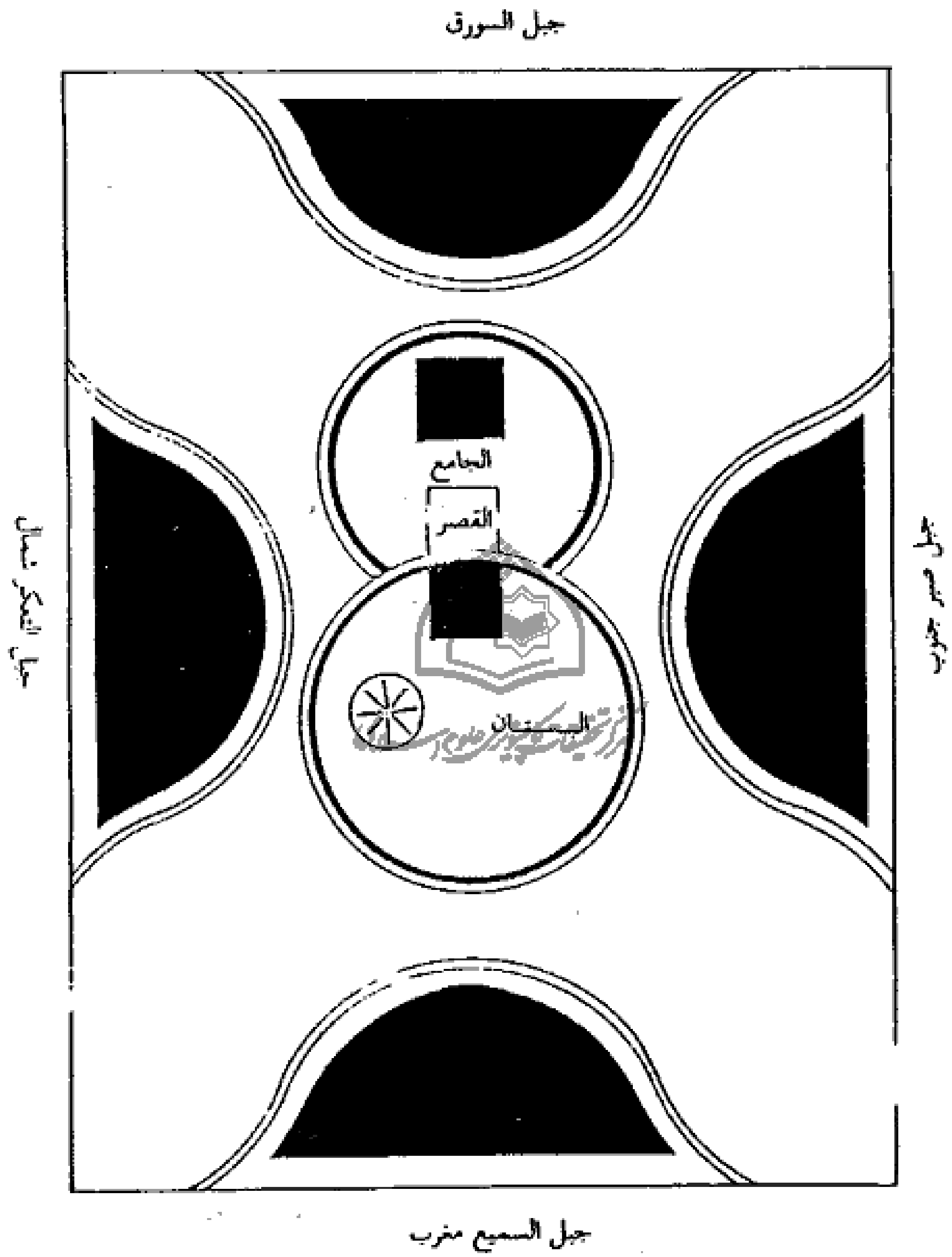
من تعز إلى الجند

من تعز إلى بركة الحوبان ربع فرسخ، وإلى وادى السمكر ربع فرسخ، والسمكر كان رجلا يهوديا قتله على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وفى هذا الموضع أراضي تغلب عليها المياه إحداها ......[1] وإلى الجند نصف فرسخ، والله أعلم وأحكم.

بناء الجند

غرست الأوائل فى فضاة الجند نخلا وحمل فلما دار الدهر رجع عقدة، وبقى النخل على حاله إلى أن ظهر دقيانوس الملك وقطع النخل وبنى فى فضاة الجند بلداً عظيماً سماه الأفيوس، وبه كانت وقعة أهل الكهف مع دقيانوس الملك والله أعلم، وصورته على هذا الوضع والترتيب:

(١) بياض بالأصل.


جبل السورق
الجامع
القصر
البستان
جبل صبر جنوب
جبل السميع مغرب

ويقال: إن القوم في كهف من كهوف جبل صبر نيام إلى الآن، وهم الذين قال الله عز وجل عنهم: ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجمًا بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾[1]، وقد تقدم ذكرهم في الأفسوس ... [2] عامر إلى أن ملك اليمن أخو المعز بن معن بن زائدة الشيباني، فقام المتولي ومد يده إلى أخذ المال واستباحة النساء بالفحش من العمل وقبح الأمل، فلما رأوا العرب منه ما رأوا قتلوه وعصوا في البلاد، فعلم أخوه معن بن زائدة الشيباني فعلم الخبر فركب وجاء في خيل ورجل فملك اليمن بعد أن ركّب السيف على أهلها وأخرب الجند، وسد في الجبال ثلاثمائة غيل، أي عين عذبة، ويقال: إن غيلاً منه سده بالملح فملح ماؤه وصار يحمل منه ملحا إلى هذه الغاية.

فلما تولى معاذ بن جبل ولاية اليمن من قبل النبي ﷺ بناها مدينة (سميت باسمه جبل غير أن البانون أبدلوا اللام دال، فسميت الجند)[3] لأنها مسكن الجند.

حدثني عبد الله بن محمد بن يحيى قال: إن في الأصل يسمى قارع الأجناد لأن أهلها كانوا جند اليمن لم يسمع أحد منهم كلام صاحبه ولم يرضوا بحكومة بعضهم بعضاً، فلما كثر القال والقيل بين زيد وعمرو وخرج نصر وجعفر إلى النبي ﷺ برضى خالد وزبير وطلبوا منه رجلاً يؤدون له الزكاة ويعلمهم الشرائع

---

(١) الآية: ٢٢ من سورة الكهف.

(٢) بياض بالأصل.

(٣) هكذا وردت الجملة بين القوسين في الأصل، والأقرب للصواب أن تكون: «سُمّيَتْ باسمه جبل فغيروا الباء إلى نون، وأبدلوا اللام دالا، فسميت الجند» والله أعلم.

والدين ويتحاكمون إليه أنفذ النبي ﷺ معاذ بن جبل، فقلت له: أريد على هذا برهانًا، قال: يقول الشاعر:

يا بني مسعود شدوا الـ ـــخيل من قارع الأجنادْ
ما عليكم يا موالي من نباح الكلب في الوادْ

حدثني رجل من أهلها أن كل ما كان يحفر في الغيل حبط....[1] زبدى تراب، أي من تراب، كان يعطيه رغيف خبز وعظم، أي قطعة لحم، ودراهم، وقيل: دينار، ولا يزال على حاله إلى أن جرى الماء من الغيل وعمر، وبقي البناية على حالها إلى أن تولى سيف الإسلام طغتكين بن أيوب فأدار عليها سورًا من الحجر والجص وأعلاه طين ولبن سنة سبع وتسعين، والأصح ثلاث وتسعين وخمسمائة، وركب على السور خمسة أبواب: باب المنصورة، وباب الحديد، بناية الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبي بكر، وباب الأقطع، وباب السر، ينفذ إلى بستان السلطان.

صفة جبل البقر

وهما جبلان وراء الجند لمسافة ربع فرسخ بنى بها العرب حصنين وسائر القوم يصبح به الجند صباحًا ومساءً ليلاً ونهارًا، وبقيت أهل الجند معهم في عناء وتعب إلى أن مُلكت من ملوك العرب هدمت وأردمت آبارها، وبقيت الآن جبلْين قائمين خرابيْن لا بهما داعٍ ولا مجيب.

(١) بياض بالأصل.

صفــة أكمـــة سليمــــان

وبئر النخر، وكان فى قرب الجبل حصن مانع يسمى أكمة سليمان، من بناية سليمان بن داود، عليهما السلام، فلما عصت العرب على معن بن زائدة الشيبانى تحصنوا بالحصن مما يلى البحر بئر ماء ذات عمق وسعة وطول، وقد بنى على دورانة القلعة إلى قرار هذه البئر دَرَجٌ ينزل إليه الخيل والرجل، والبئر مشترك ما بين الفريقين إلى أهل البلد فشربوا منه باطن وعسكر معن بن زائدة ظاهر، فنزل فى بعض الأيام فارس بحصانه إلى قرار البئر يرويه فلما شرب الحصان حوض الماء نخر الحصان من غمق الماء فسميت بئر النخر لأجل ذلك، فلما علم معن بن زائدة شركية البئر فيما بينهم أفلت فى الماء نفطاً فصار كل من شرب منه مات، فسلم له الحصن، فلما ملك الحصن هدمه والبئر معاً وجمعاً.

صفـــة الجامـــع

وأول من بنى الجامع معاذ بن جبل مع أهل الجَـنَد وما حوله من القرى، وأعاد بناءه القائد الحسين بن سلامة، وجدده الأمير المفضل بن أبى البركات بن الوليد سنة ثمانين وأربعمائة بالحجر المنقوش واللبن المربع، وأحرقه على ابن المهدى سنة أربع وخمسين وخمسمائة، ويقال: إن الخلق سعت وشفعت فى إبقائه فقال: قد استوجب النار، قيل: ولِمَ؟ قال: لأنه قد خطب على منبره الإسماعيلية، يعنى ملوك بنى زريع أى ولاة عدن، فهم أنجاس ينجس الجامع بذكرهم وكل من هو

نجس طُهِّر وقد طهرناه بالنار، فأعاد بناءه سيف الإسلام، ومع ذلك رفع سقوفه بالآجر والجص بعد أن ذهّبه، وأجراه بالذهب واللازورد سنة ثلاث وستمائة في دولته الملك الناصر بن طغتكين بن أيوب.

وقال حكيم: خذ من جامع تعز المنبر ومن جامع الجَنَد السقف.

ويجتمع في أول جمعة رجب في جامع الجند من كل الأعمال ناس يصلون فيه ويبلغ ذلك اليوم في الجامع مقدار ما يسع رجل واحد درهم فيقال: دينار ليصلي ركعتي الجمعة، ويكون فيه ذلك اليوم نور مشهود.

وأهل الجَنَد وما حوله من القرى يروون في فضل هذا المسجد أخباراً من جهة زيارته في أول جمعة في رجب تعدل عمرة، بل قالوا: حجة، ولم يزل الناس يزورونه في كل سنة في أول رجب حتى أثر ذلك ...[1] وصار صفي الدين حاتم ابن علي بن محمد بن المعلم حتى أسقاه في بطيخة، ويقال: إنه أخذ إبرة مسمومة وغرز فيها خيطاً مسموماً وصار يغرز الإبرة في جوانب البطيخة ويجرها والخيط معاً، وجاء ها إلى سيف الإسلام وهو قائم على بناية المنصورة فجلا سكيناً فوق البطيخة ليأكل منها، فتناول منه سيف الإسلام البطيخة فقطع وأكل وأحس بالشر به فقال لعلي بن حاتم: الله المستعان على ما تصفون، فقال له: كل يا مولاي، ما هو إلا خير، وغاب الشيخ حاتم بن علي بن محمد بن المعلم من ساعته، فأوجعه فؤاده ومات، رحمه الله تعالى.

وحدثني عبد الله بن محمد قال: إنه كان يقرأ في النزع: ﴿ما أغنى عني

(١) بياض بالأصل.

ماليه * هلك عني سلطانيه * خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾[1] إلى تمام الآيات.

وحدثني إنسان جبلي من آل الصليحي قال: إنه قرأ: ﴿**الذى جمع مالاً وعدده * يحسب أن ماله أخلده * كلا لينبذن في الحطمة * وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التى تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * في عمد ممددة**﴾[2] وصار يكررها إلى أن مات رحمه الله تعالى.

بقيت النيابة على حالها إلى أن توفي الملك المعز إسماعيل بن طغتكين بن أيوب فردَ الأراضي على أربابها، ويقال: إنما ردها إلا بعد أن أسقى الشيخ على بن حاتم بن على بن محمد بن المعلم في زبيد، ويقال: إنما سقى ابن المعلم إلا لإدراك سيف الدين سنقر بعد قتله الملك المعز في زبد.

فصل : كان يقال: فى زمان سيف الإسلام طغتكين بن أيوب: إنه لا يموت حتى يملك قسطنطينية ويعمرها ، فلأجل ذلك طال أمله في الدنيا وزينتها، وأسس المنصورة فبينما الفعلة يحفرون الأساس إذ خرج عليهم صخرة حجر عليه مكتوب: إن فلان بن فلان الشقى بنى مدينة قسطنطينية، قال: ومات ودفن بتأريخ الشهر والسنة، فسأل عن اسمها الأصل، قالوا: إنها تسمى قسطنطينية، قال: متنا ورب الكعبة! وسُقى عليها ومات ودفن بمغربة تعز، وما أراد بيناء هذه البلدة إلا أنه يخزن فيها جميع غلال الجبال، على ما تقدم ذكره.

(١) الآيات: ٢٨ ـ ٣٢ من سورة الحاقة.

(٢) الآيات: ٢ ـ ٩ من سورة الهمزة.

فصل : نزل الأمير الأغر على بن محمد الصليحى بقرية من أعمال المهجم يقال لها: أم الدهيم وبئر أم معبد.

قال سعيد بن نجاح: فلما دخلنا المهجم لم يشعر بنا إلا عبد الله بن محمد ابن على فركب وقال لأخيه: يا مولانا اركب فهذا والله الأحول بن نجاح، فقال على لأخيه عبد الله: إنى لا أموت إلا بالدهيم وأم معبد، يعتقد أنها أم معبد التى نزل بها النبى ﷺ حين هاجر ومعه أبو بكر، فقال له فلان بن فلان: قاتل عن نفسك فهذه والله بئر الدهيم بن عبس وهذا المسجد خيمة أم معبد بنت الحارث العبسى[1] فحينئذ قُتل بها، وكان فى طالع الملك المعز أنه لا يُقتل إلا فى العراق بعد أن يملكها أموى مزيل دولة بنى العباس، فلما تيقن عنده ذلك قتل بوادى العرق من زبيد، وفيه أنشد المحننى يقول:

الموت فى كل حين ينشر الكفنا　　ونحن فى غفلة مما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وزينتها　　وإن توشحت من أثوابها الحسنا
اين الأحبة والجيران ما فعلوا　　أين الذين بها كانوا لنا سكنا
سقاهم الموت كأسًا غير صافية　　فصيرتهم لأطباق الثرى رُهُنا

وإلى قلعة ضراس نصف فرسخ، وإلى وادى ورزان نصف فرسخ، وإلى ذى جبلة نصف فرسخ، ويصعد نقيل ذى جبلة ويسمى النقيلين وهما جبلان يسمى أحدهما نقيل تدران والثانى نقيل العكائف، وما اشتهر بهذا الاسم إلا أنه كان به عجائز معتكفات، والله أعلم.

---

(١) سبق ذكر هذه القصة فى ص ٩١ برواية قريبة منها.

بنــــاء ذى جبلـــــة

ذى جبلة من مخلاف جعفر، وجبلة كان رجلا يهوديا يبيع الفخار في الموضع الذى بنيت فيه دار العز، وبه سميت المدينة، وأول من اختط ذى جبلة عبد الله بن محمد الصليحى المقتول على يد سعيد الأحول بن نجاح مع أخيه على الداعى ابن محمد بن على يوم المهجم، وكان أخوه قد ولاه حصن التعكر، وهذا الحصن مطل على ذى جبلة وهى سفحه، وهى مدينة بين نهرين جاريين فى الصيف والشتاء، واختطها عبد الله بن محمد سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وبها كانت تسكن الحرة الملكة السيدة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى.

فصل : وما كان فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ابتاع الداعى محمد بن سبأ من الأمير منصور بن مفضل جميع المعاقل التى كانت لبنى الصليحى وهى ثمانية وعشرون حصنًا ومدائن ومن جملتها مدينة ذى جبلة، واشتراها منه بمائة ألف دينار، ونزل الأمير منصور بن مفضل حصنيه صبر وتعز، وطلق زوجته الصليحية وهى بنت عبد الله بن عبد الله بن محمد الصليحى وصعد الداعى المخلاف وسكن فى ذى جبلة وتزوج امرأة الأمير منصور بن مفضل، وأكثر الشعراء تهنيته ومدحوه بالمعاقل والعقيلة المذكورين، وطاش فرحًا بما صار إليه، وبسط يده فى العطايا، والله أعلم.

بنـــاء المخلاف ونجـــا

كما يقال: أعمال اليمن، ويقال: مخلاف تعكر ومخلاف جعفر، أي من أعمال تعكر، وأعمال كل حصن بذاته يكون صعودا، أُدخلت تلك الأعمال إلى ذلك الحصن، فما كان حول كل حصن من القرى والزراعات فهو مخلافة، والمخلاف عند أهل اليمن عبارة عن قطر واسع، وليس تعرف المخاليف إلا بجبال اليمن وأما في التهائم فليس يُعرف، والله علم.

ذكر تغلب الفقهاء في حصن التعكر

ولما خرج المنصور بن ...[1] بن نجاح من زبيد بأخيه عبد العزيز بن جياش هاجر هو وعبيده إلى الملك المفضل بن أبي البركات والتزموا له على النصرة ربع البلاد، فسار المفضل معهم فأخرج عبد الواحد وملكهم، ثم همّ أن يغدر بهم ويملك زبيد.

فحين خلا التعكر وطالت إقامتهم بتهامة وفي التعكر نائب له يسمى الجمل، وكان هذا الجمل متمسكا بالدين، فصعد إليه إلى التعكر سبعة من إخوانه الفقهاء، منهم: محمد بن قيس الزجاجي، ومنهم: عبد الله بن يحيى، ومنهم: إبراهيم بن زيدان، وكانت له البيعة، فأخذوا الحصن من الجمل، وكانت الرعايا قد قالت

(١) كلمة مطموسة في الأصل.

للفقهاء: إذا حصلتم في رأس الحصن فأوقدوا النار، ففعل ذلك ليلاً فأصبح عندهم على رأس الحصن عشرون ألفاً، واستولت الفقهاء على ذلك ولم يعهدوه.

ووصل الخبر إلى المفضل بتهامة فسار مسير ظبي لا يلوى على أحد إلى التعكر، فقامت خولان في نصرة الفقهاء، وأقام الحصار عليهم، فلما طال ذلك قال إبراهيم بن زيدان: لن أموت حتى أقتل المفضل ثم أهلاً بالموت، فعمد إلى حظاياه من السراري فأخرجهن في أكمل زى وأحسنه وجعل بأيديهن الطارات وأطلعهن على سقوف القصر بحيث يشاهدهن المفضل ويسمع هو وجميع من معه من تلك الأمم أصواتهن.

وكان المفضل أكثر الناس غيرة وأنفة، فقيل: إنه مات في تلك الليلة، وقال آخرون: امتص خاتماً كان معدّا عنده فأصبح ميتًا والخاتم في فِيه، وكان موته في رمضان سنة أربع وخمسمائة.

ولما مات المفضل طلعت الحرة من ذى جبلة وخيمت على باب التعكر، وكاتبت الفقهاء ولاطفتهم إلى أن كتبت لهم خطها بما اقترحوه من أمان وأموال، واشترطوا عليها أن ترحل هى وجميع الحشود وتوصل إليهم من ترضاه واليًا، وولى لها التعكر مولانا القائد فتح ابن القائد فتح.

حدثني السلطان ناصر بن منصور قال: حدثني إبراهيم بن زيدان أنه وصل نصيبه من العين خمسة وخمسين ألفاً، يعني ديناراً لمّا تركوه من حصن التعكر.

صفــة بنــاء ذى جبلــة

بنى بذاك الصليحى فى مخلاف جعفر وحدودها بالطبول من نقيل صيد إلى مصايح[1] وبالعرض من سوق وصفات إلى حصن الطريمة[2] إلى ذى الأسود من حدود مخلاف حب، وتسمى قلعة النهرين لأن جبل التعكر ما بين أيمن البلد وشماله ومجمع النهرين فى آخر البلد عند موضع يقال له وادى ميتم، كما قال المازنى فى بعض قصائده، حيث يقول:

ما مصر ما بغداد ما الطبرية كمدينة قد حازها النهرانِ
حدود لها شأم وحَبٌ مشرقٌ وكذاك تعكرها المنيف يمانى

وله يقول:

ليس الخَورَنَق والسدير وبارق كطرمسحى

كلا ولا النعمان مثل الدنسا هَطِل اليدين

وقال مضطبع الدولة مواهب بن جديد المقرئ يمدح الملك المفضل بن أبى البركات بن علاء الحميرى:

فرفضتُها شوقًا إلى ذى جبلةٍ وتركتُها لملوك أهل المشرقِ

(١ ، ٢) غير منقوطة فى الأصل.

ونذكر عجائب إقليم اليمن وما فيها من الغرائب ومن جملتها حصن أشيح

ومما ذكره عمارة بن محمد بن عمارة فى كتاب المفيد فى أخبار زبيد قال: حدثنى المقرى سليمان بن ياسين، وهو من أصحاب أبى حنيفة قال: بت بحصن أشْيَح ليالى كثيرة وأنا عند الفجر أرى الشمس تطلع فى المشرق وليس فيها من النور شىء، وإذا نظرت إلى تهامة نظرت عليها من الليل ضباب يمنع الماشى أن يعرف صاحبه من قريب، وكنت أظن ذلك السحاب والبخار وإذا هو عقائل الليل، فأقسمت أن لا أصلى الصبح إلا على مذهب الشافعى، إن أصحاب أبى حنيفة يؤخرون الصبح إلى أن تكاد الشمس تطلع على وهاد تهامة، وما ذاك إلا أن المشرق مكشوف لأشيح من الجبال وذروته عالية.

وهو مقر الداعى سبأ بن أحمد بن على الصليحى، وفيه يقول عبد الله بن الحسن بن على بن القم شعرا:

ولما مدحت الهبرزى بن أحمد ... أجاز وكافانى على المدح بالمدحِ

فعوضنى شعراً بشعرى وزادنى ... عطاه فهذا رأس مالى وذا ربحى

شققتُ إليه الناس حتى رأيته ... فكنت كمن شق الظلام إلى الصبحِ

فقبِّح دهرٌ ليس فيه ابن أحمد ... ونُزِّه دهرٌ كان فيه من القُبْحِ

ونجـــد الحنشـــين

من أرض بني نجاح، وكان في قديم العهد تسمى هذه الأعمال أعمال نجد، وما عرفت بالحَـنَـشَـيْن إلا أن صاحبيه تقاتلا وتعاقرا، فبينا هم في قتالهم إذ وقع عليهم لمع برق أحرقهم، ويقال: بل خُسف من تحتهم فنزلوا في الخسف، والخسف باقٍ، وهو في قدر بئر عظيم ليس يوجد له قرار، عُرف النجد بالحنشين، ونجد الحنشين من أعمال الحقل والكفل.

وحصـــن ثـريـــد

بناه سليمان بن داود، عليهما السلام، في أرض بني سيف وهو سور دائر على سنام جبل عالٍ شاهق في الهوى، وفي وسط الحصن بحيرة ماء قديم خلقه الله على ظهر الجبل لم يُعلم له قرار، وهو ماء عذب، وقد يُرى فيه من الأسماك ودواب البحر وموج هائل، وقد بُني على السور على ساحله مستدار بالبحيرة، وبني من داخل السور ثلاثة دور، لا غير، يسكن في أحدهم ثلاثة رجال، وفي الثاني أربعة، وفي الثالث خمسة رجال، يصح عدد القوم اثنى عشر رجلا رتبة، ولم يقدر أحد من ملوك الغز على أخذها من أربابها بني سيف، ويقال: إن به شجرة يصح طولها ثلاثة أذرع، قط ما أوكر عليها طير إلا وقع من ساعته ميتاً، ولا يزال تحتها طيور موتى من كل فن.

حدثني أحمد بن محمد بن المهنا الصفار قال: إني رأيت في بلاد البرابر شجرا

يوجد تحتها قردة ميتة فسألت بعضهم عن حال قصة القرود فقال: إن تلك الشجرة شجرة السم الذى يغلي حطبه يستخرج منه سم ويجعلونه فى نشاشيبهم، فمن أصابه من تلك النشابات ولم يقوّر اللحم والجرح معاً مات من ساعته، فتجىء القردة تأكل من ثمرها، لأنه يكون حلواً فيموتون كما ترونهم.

قال ابن المجاور: وما يموت من القردة إلا كل من يكون فى بطنه جراح أو مرض يصل سم الشجرة إلى الجرح فيختلط بالدم ويموت ويرجع بسببه مرميا شبه جذع نخل منصرم.

ولا شك ان هذه الشجرة شجرة سم.

قال ابن المجاور: ورأيت فى المنام ليلة الاثنين العشرين من شهر رمضان سنة عشرين وستمائة كأن قائلاً يقول لى: إن فى أرض الزنجبار شجرة تسمى نار ولا يمسها احد إلا احترق من وقته.

وما اشتق حصن ثريد إلا من ثريد الخبز واللحم، أى كل من يملك هذا الحصن يبقى إقليم اليمن قدامه شبه جفنة ثريد يأكل ما أراد، أى يملك ما اشتهى وأراد.

وفى سنة خمس عشرة وستمائة زرعت جميع جبال اليمن الفوة وبطّلوا زراعة الغلال، لأن أحدهم كان يزرع الحنطة والشعير، وما كان يغل كل جريب إلا خمسة دنانير ملكية فزرعوا الفوة فغل لهم الجريب ستين ديناراً، وابتاعت الفوة سنة اثنتين وعشرين وستمائة بعدن البُهار بستة وسبعين ديناراً، فلما رأت الخلق ما رأت قالوا: نترك غيره ونزرعه فزرعوه حتى الخدم والجوارى والنساء والمشائخ

والغنى وبقوا إلى أن ملك الملك المسعود يوسف بن محمد من ديار مصر، فأخذ جميع القوة ولم يخل لأحدٍ وزن أوقية، وجميع ذلك مباح مستهلك وذلك فى سنة أربع وعشرين وستمائة.

ومثابة فيه بدر الفضة

وأهلها قوم يقال لهم بنو نِهْم، وفى سوارق صعدة اتباع ولو أنه من كان، ويقال: إنه جلب زيد عبدا يريد بيعه في السوق فقال العبد لسيده زيد: اصعد على هذا الحجر نادِ على زيد، فلما صعد نادى العبد على زيد: من يشترى هذا العبد؟ فاشترى منه فباع العبد لزيد وأخذ ثمنه وراح.

من ذى جبلة إلى صنعاء

من ذى جبلة إلى القرين فرسخ، وإلى السحول فرسخان، وهو الذى ينسج فيه الثياب السحولية، وكُفن رسول الله ﷺ في ثوبين منها، وهذا الوادى لبنى أصبح، قوم الفقيه أبى عبد الله مالك بن أنس الأصبحى، إمام دار الهجرة.

وإلى ذراع الكلب فرسخ، وإلى قلعة إبّ فرسخان، وإلى المغربة فرسخان، بناية الملك المعز إسماعيل بن طغتكين، وإلى المعبر فرسخ، وإلى حصن سماوَى فرسخ، وإلى جدرة نقيل صيد فرسخ، وهو مدرّج، دَرّجه الملك الأعز على بن محمد الصليحى، وقال:

وأسكنتُ العراقَ خيارَ قومي وأسكنتُ النبيطَ قُرى قَتابِ

وقتاب هو من جملة الحقل والحقل من وادى صيد، وينزل من ذروة النقيل عين ماء تسمى بالجبل إلى حوض وفي الحوض حوض صغير وفي الحوض الصغير سرب ينزل الماء فيه، لم يعلم أحد إلى أين يجرى.

وإلى ضربة عمرو فرسخ، وهى ضربة عمرو بن عبد ود العامرى في حجر غاص سيفه في لب الحجر كما تغوص الشفرة فى قالب جبن طرى، وكان السبب فى ضربه الحجر أنه تبعه قوم من العرب، والأصح سيف بن ذى يزن، ويقال: الحبوش، فلما ضجر منهم ضرب الصخرة ضربة، فلما رأت الحبوش ذلك ردوا على أعقابهم راجعين، ويقال: لما نظر سيف بن ذى يزن الضربة علم أنه لا يصح له منه شيء إلا بيدٍ غالبة فخرج إلى العراق مستنجداً بكسرى فأعطاه كسرى جيشاً ملك بهم اليمن.

فلما ثبت سيف بن ذى يزن فى ملك اليمن وخرج عمرو بن عبد ود إلى الحجاز، وهو الذى برز إليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضوان الله عليه، وكبّر النبى ﷺ ثلاثا وقال: برز الإيمان كله إلى الشرك كله، وقُتل على يد أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى الوقعة[1] كما قال:

كن ابنَ من شئتَ واكتسب أدبًا من عجم كنتَ أو من العربِ

إن الفتى من يقول: ها أنا ذا ليس الفتى من يقول: كان أبى

---

(١) كان ذلك فى غزوة الأحزاب، أو الخندق.

وإلى منزل الأصم فرسخ، وما عرف بهذا الاسم إلا أنه وصل إلى هذا الموضع رجل أصم، أي أطروش، فسمع دوى جرى الماء تحت الأرض فحفر آباراً، ويقال: أنهراً، وسكن به فعرف به، وإلى دار الضيف فرسخ، سكنها رجل من الأعراب وكتب على بابه في الصخر:

ألا من وصل إلى الدار فلا يُعَدّى　　لأن في الدار رجلا يُغَدّى

قال ابن المجاور: وعجبت منه كيف لم يكتب:

ألا من وصل إلى الدار فلا يُمَشّى　　لأن في الدار رجلا يُعَشّى

والكتب إلى الآن باقٍ على حاله.

وقال أبو فراس بن حمدان في المعنى:

نار على شرفٍ تأجّجُ للضيوفِ السارية
يا نارُ إن لم تجلبي ضيفا فلستِ بنارية

وصفة جبل.. السلطان الأعظم بهرام بن شاه بن مسعود ما وهب لأحد مال إلا وهب مع المال خلقًا استوجبوا القتل، فقيل له في ذلك، قال: أما المال الذى ليس له عندى قيمة ولا قدر ولا محل إلا لو وهبت الأرواح، كما قال الباركل في المعنى:

كلٌ له ثمنٌ يُباع بمثله　　إلا النفوس فما له أثمانُ

فأخذ هذا المعنى الحكيم فضل الله الغزنوى يقول:

زابتـــداى كـــون عـــالم تا بوقت پادشـــاه
از بزركـان عـفـو بودست از فـرو دستـان كناه
خـاصـة اندر عـصـر شـاهى كز پى انصـاف او
كـهـربارا نيـست آن ياراكـه كـردد كـرد كـاه
من كه از تدبير خصمان خورده بودم تير قصد
زنده مـا ندم تا بروز مـحـشـر از اقـبـال شـاه
جان من بخشـيـده شـاهيـست كندر عـصـر او
چند شـاه تاج بخش اسـت يا امـيـر داد خـواه
خـســرو سـيـاركـان بايدكـه اين شش بيت را
باز كـرداند بكلك تيـر بر رخـسـار مـاه
تا بيـامـوزند شـاهانى كـه زر بخـشندو سـيم
رسم جان بخشيدن از سلطان دين بهرام شاه

وإلى الملاوى ثلاثة فراسخ، وإلى الحزيز فرسخان، وإلى مدارة فرسخ، وإلى نقيل سلح فرسخان صعود، وإلى حداران فرسخ حدود، وإلى حبارى فرسخ، وإلى غيل البرمكي فرسخان، ماء جارٍ، فلما قتل الإمام أبو محمد هارون الرشيد جميع البرامكة هرب إنسان منهم وسكن صنعاء، فلما وجد قلة الماء على أهلها اشترى أرض قاع عبّاد بن الفخر وحفر بها نهراً عظيماً، ويقال: إن معين النهر هو من أرض العراق، فلما تم جريان الغيل أوقفه على ضعفاء صنعاء، فعرف الغيل بالبرمكي، ويقال: بل الذى حفره برمك الذهب، أى ما قصر فى جرح الذهب على حفره.

وإلى صنعاء فرسخان.

بنـــاء صـــنعاء

حدثني يحيى بن علي بن عبد الرحمن الزراد قال: إن شيث بن آدم، عليه السلام، بنى مدينة صنعاء وغرس بظاهرها بستانين أحدهما أيمن الدرب والثاني أيسره، وهما بطول من صنعاء إلى العراق مسيرة سبعة أيام.

حدثني السلطان جميل: بنى به سام بن نوح، عليه السلام، لأنه استولى عليه ولم يكن يقدر على المقام في مدينة واحدة فكان يدور العالم على موضع هوى خفيف الماء معتدل الأرض في الصحة ليسكن ما به من الألم، فوجد أرضاً موافقة لطبعه، فلما نزل صنعاء زال عنه الألم، وحينئذ صعد على جبل نُقُم فسكنه وقال لأهله وأشياعه وأتباعه:

ليعمر كل منكم مسكناً يسكنه، فعمرت الخلق المساكن فرجعت مدينة طولها وعرضها مسيرة سبع فراسخ، وكانت أعمالها تنفذ إلى البصرة، وبقيت الطريق مسلوكة عامرة إلى أن علاه الرمل فقطعه.

وبنى هود، عليه السلام، في جامعه بئراً، وهي أول بئر حُفرت في عالم الكون والفساد، وأدار سورها الملك الأغر علي بن محمد بن علي المعلم الصليحي بالحجر والجص وركب عليه سبعة أبواب:

باب غُمدان ينفذ إلى اليمن، وباب دمشق ينفذ إلى مكة، وباب الشيخة ينفذ إلى محلة الشيخة، وهم المجذومون، وباب خندق الأعلى يدخل منه السيل، وباب

خندق الأسفل يخرج منه السيل يسقي الأرض، وباب النصر ينفذ إلى جبل نقم وبراش، وباب شرعة ينفذ إلى بستان السر، والله أعلم.

ذكر قصر غمدان

أول من ابتدأ في بنائه سام بن نوح، عليه السلام، لما بنى صنعاء، ويقال: سليمان بن داود، عليهما السلام، لما دخل اليمن يتزوج بلقيس، وكانت التبابعة من ملوك اليمن لهم رغبة نفيسة وهمة عالية في عمارته، وكل ملك تولى منهم كان يُعلِّي قصرا على قصر حتى ارتفعت تلك القصور اثنين وسبعين سقفًا، ويقال: ثلاثة وتسعين سقفاً.

وآخر من بنى به أسعد الكامل، ويقال: أسعد الخزاعي، قصر من زجاج وهو الخاتمة.

أنشدني عبد الله بن داري بن أبي بكر العنبري ليلة الأحد الخامس من صفر سنة ثلاث وعشرين وستمائة:

لا يأخذ الثأر إلا كابن ذي يزنٍ   إذ صيّر البحر للأعداء أحوالا
أتى هرقلاً وقد شالت نعامته   فلم يجد عنده النصر الذي سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد سابعة   من السنين يُهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يقدمهم   تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
غُلْبٌ أساورةٌ بيضٌ مرازبةٌ   أُسْدٌ تربب في الغيطان أشبالا
لله درّهم من عصبة صُبر   ما إن رأيت لهم في الناس أمثالا

أرسلت أسْداً على سُود الكلاب فقد أضحى وشيكهم في الأرض فلالا
فالطِطْ بمسك إذا شالت نعامتهم وأسْبِلِ اليوم في برديْك إسبالا
واشرب هنيئًا عليك التاج مرتفقًا في رأس غمدان داراً منك محْلالا
تلك المكارمُ لا قَعْبانِ من لبن شِيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

حدثني قاضي الجبل من آل الصليحي قال: حدثني رجل سمع من لفظ أبي محمد عبد الله بن حمزة الحسيني قال: إن أواخر فيء قصر غمدان كان يصل إلى وادي الظهر، قلت: كم يكون بينهم من المسافة؟ قال: مثل من زبيد إلى الزريبة، ومن زبيد إلى الزريبة مقدار فرسخ زائد لا ناقص.

قال ابن المجاور: ولا شك أنه كان يصل فيء القصر إلى وادي الظهر إذا قربت الشمس للغروب، لأن في مثل ذلك الحين يكون الظل والفيء إلى أن يرجع مثل الشيء ثلاث [أو] أربع مرات، كما يقال، بنيانه بل ضياء سرجه كان ينظر من المدائن وقيل: إلى المدينة.

وبقي القصر على حاله إلى أيام خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قعد بعض الليالي بظاهر المدينة إذ نظر في الجو شيئًا يضيء شبه كوكب دري، فسأل عنه فقال بعض من حضر مجلس أمير المؤمنين وفي خدمه: إن ضوء هذا ضوء شمعة تشعل على أعلى قصر غمدان بصنعاء، فأمر بهدمه فهُدم، فالآن بقي تل عظيم، وقد بنى موضع القصر بدر الدين حسن بن علي بن رسول قصراً عظيم الهيكل سنة ثمان عشرة وستمائة.

حدثني يحيى بن علي بن عبد الرحمن الزراد قال: ما بنى قصر غمدان إلا

امرأة تسمى الزباء وأمرت ان يجعل فوق كل قصر قصر طويل، كل قصر أربعون ذراعا بالعمرى في عرض مثله في ارتفاع مثله.

قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد اللغوى الأزدى في ذلك:

واستنزل الزباء قصراً وهى من ... عقاب لوح الجو أعلى منتما

وسيف استعلت به همته ... حتى رمى أبعد شأو المرتمى

فجرع الأحبوش سمًا ناقعًا ... واحتل من غمدان محراب الدما

وقد ذكر المسعودى في كتاب مروج الذهب ان قصر غمدان يعمر ثانية أحسن مما كان في الأول.

فصل: حدثني سلامة بن محمد بن حجاج المذحجي أن الأوائل بنت في بيت بئر فأس العوامل قصراً وأعلاه سبعين سقفاً بالحجر الرخام الأبيض، ضرب فيه بعض الحبوش ناراً أحرقه وأخربه وارتدم بعضه على بعض فرجع كشبه جدار عظيم، وكان ينظر منه إلى مكة، وبنى الإمام أبو جعفر المنصور القبة الخضراء ببغداد لسبع طباق، كلها عقود، لئلا يرميها الهوى من علوها في الجو، وكان ينظر إليها من هيت وتكريت، وبنى ملوك العجم إيوان كسرى في المدائن، وكان ينظر منه إلى حلوان.

ويقال: إن العمانية وصفها مذكور مشهور ولو لم تكن مشهورة كنا ذكرناها على التمام والكمال.

وبنى الكوالى قصر ادور حورهر في قلعة كواليور على تسع طبقات وينظر منه مسيرة عشرة أيام، وهو إلى الآن قائم عامر، وكان في سالف الدهر على رأس قبة

المسجد الأقصى درة فإذا أظلم الليل غزل نساء حَوران فى حوران على ضوئها غزلا رفيعاً، بناه سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ وخربه بختنصر البابلى، وكان يُنظر منه مسيرة عشرة أيام.

وقلعة ماردين تبان من الفرات مسيرة ستة ايام.

وكوارى حصن جاهلى بنته بنتُ بِكر من الهنود وبينه وبين السند... وراواسان يبان من توران يعدى شط السند مسيرة خمسة عشر يومًا، وبنى مهراست بن ارجاسب فى أيام درست الحكيم وجمة تول ادر فى بلخ ونصب على قبة الوجمة علماً أخضر فأخذ شدة الهوى العلم ورماه إلى الأرض على مسيرة خمسة وعشرين فرسخاً، وذلك لعلوها.

صفة جبل المذيخرة

وبلغنى أن فى أعلاه نحو عشرين فرسخاً، وطاقتها المزارع والمياه وفيه ينبت الوَرْس وهو كالزعفران، ولا يُسلك إلا من طريق واحد، وكان محمد بن المفضل الداعي المعروف بشيخ لاعة، وهذه لاعة إلى جنبها قرية لطيفة يقال لها: عدن لاعة، وليست عدن أبين الساحلية، قال عمارة بن محمد بن عمارة: إنه دخل هذه، عدن لاعة، وهي أول موضع ظهرت فيه الدعوة العلوية باليمن، ومنها منصور اليمن ومنها محمد بن المفضل الداعي.

وممن وصل إليه من دعاة الدولة الفاطمية أبو عبد الله الحسن بن أحمد الشافعي الشيعي الكوفي صاحب الدعوة العلوية بالمغرب.

وفيها قرئ على محمد بن محمد بن على المعلم الصليحى فى صباه، وهى دار دعوة باليمن، فكان محمد هذا، محمد بن المفضل الداعى غلب على جبل المذيخرة وخطب فيه لدعوة العلوية سنة أربع وثلاثمائة، ثم استرجعه منه أصحاب أسعد بن يعفر صاحب صنعاء.

صفة جبل شبام

وهو منيع جدًا، وفيه قُرًى ومزارع وجامع كبير، وهو معاملة نفيسة، ويُرفع منه العقيق والجزع، وهى حجارة مغشّاة، فإذا عوملت[1] ظهر جوهرها.

وممن امتنع به من عمال ابى الجيش اسحاق بن زياد سليمان بن طرف صاحب عثر وهو من ملوك تهامة، وأعماله مسيرة عشرة أيام في عرض يومين وهو من الشرجة إلى حلى، ومبلغ ارتفاعه فى العام خمسمائة ألف دينار عثرية، وكان مع امتناعه عن الوصول إلى أبى الجيش إسحاق بن زياد يخطب له ويضرب السكة على اسمه ويُحمل إليه مبلغ من المال فى كل عام وهدايا لا يُعلم مبلغها، وأما الذى سلم لابن زياد من اليمن حين طعن فى السن فله من الشرجة إلى عدن طولاً وله من غُلافقة إلى صنعاء عرضاً، ورأيت مبلغ ارتفاع أعمال ابن زياد بعد تقاصرها فى سنة ست وستين وثلاثمائة ألف ألف دينار عثرية خارجًا عن ضرائبه على المراكب الهندية والأعواد المختلفة والمسك والكافور والصندل والصينى، وخارجًا عن ضرائب العنبر على السواحل بباب المندب وعدن وأبين والشّحْر، وخارجًا عن

(١) مضطربة فى الأصل، وما أثبتناه أقرب لسياق المعنى.

ضرائبه على معادن اللؤلؤ وعن ضرائبه على جزيرة دَهْلَك، ومن بعضها منها ألف رأس منها خمسمائة وصيف وخمسمائة وصيفة نوبية، وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر تهاديه وتستدعي مواصلته.

ومات أبو الجيش هذا سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة عن طفل اسمه عبد الله، وقيل: إبراهيم، وقيل: زياد، تولت كفالته أخته هند بنت أبي الجيش، وعبده أستاذ حبشي يدعى رشيد، وكان من عبيد رشيد هذا وصيف من أولاد النوبة يدعى حسين بن سلامة، وهي أمه، وبها كان يُعرف، ونشأ حسين هذا حاذقاً عفيفاً، فلما مات مولاه رشيد توزّر لولد أبي الجيش ولأخته هند، وكانت دولتهم قد تضعضعت أطرافها وتغلبت ولاة الحصون والجبال على ما في أيديهم منها، فأقام الحسين بن سلامة يحارب أهل الجبال حتى دانوا ودان سليمان بن طرف وابن الحِرامىّ واستوسقت له مملكة ابن زياد الأولى.

صفة صنعاء

صفة شرب أهل صنعاء من غيل البرمكي، وقد تقدم ذكره، موافق لمن شربه، وأهويتها باردة تشبه أهوية خراسان موافق لجميع البضائع لم يضر شيئاً، وخاصة الزعفران تبقى فيها ما شاء الله، ويوجد بها من جميع الأثمار من التفاح والمشمش والخوخ والإنجاص والسفرجل والعنب والتين والكمثرى والورد والنرجس والياسمين وسائر المشمومات والرياحين والبقول.

حدثني قيصر، مولى جمال الدين والدولة جوهر، أنه يباع بها الفجل مشقق

أربع، قلت: ولِمَ؟ قال: لأنه وُجد امرأة تستعمله في فرجها، فعلم بشرح حالها والى المدينة فأمر أن لا يباع الفجل إلا مشققاً وأسسوها سُنة.

ويجمد بها الماء، حدثني سليمان بن منصور قال: إن الماء يجمد على الورا والكرامى ولم يبن من أبدانهم سوى رءوسهم، فحينئذ يأتي درين، وهو الثعلب، على الجليد يقطع رءوس الطيور.

قال ابن المجاور: وهذا شيء مستحيل لأن كل بدن فيه الروح لم يجمد عليه شيء لأن الحرارة الغريزية تغلب البرودة ولم يجمد الماء إلا على شيء مات لأن طبع الحياة حار لين وطبع المـوت بارد يابس، فإذا كان الأمر على ذلك لم يستقم قوله ولا يستبين فعل درين.

وأهلها من نسل العجم خرجوا من الحبوس والقيود في دولة يزدجرد بن شهريار ابن بهرام، ويقال: كسرى بن قُباد مع سيف بن ذى يزن لاستفتاح اليمن من الحبوش، وحكايتهم مشهورة مذكورة فى كتاب مسطور، وليس جميع اليمن مدينة أكبر ولا أكثر موافقة وأهلاً من صنعاء.

وهو بلد فى حد الاستواء سواءً، وهو من الاعتدال في الهوى بحيث لا يتحرك الإنسان من مكان واحد طول عمره صيفاً وشتاء، وتتقارب ساعات الشتاء والصيف، وكان لها بناء عظيم خرب.

فصل: خرج أهل اليمن فى أيام سعد الخزاعى، وهو من جملة التبابعة لاستفتاح المغرب، فلما استفتحوها طابت لهم سكناها، ومن جملتها مدينة صنهاجة، ولما كسر النبى ﷺ الأصنام من الكعبة سرقت بنو مقبل لمناة وأدخلوه

الهند وتفرقوا بأعمال البلد وسكنوها، وتنصرت بنو جفنة في أيام أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، رضى الله عنه، لأجل لطمة دخل بعضهم إلى القسطنطينية وإلى بلاد الادعوان وهم مناجمين [كذا] أهل المغرب، وفيهم قال أبو تمام: ولما دعا إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام - لولده يعقوب بالنبوة اغتاظ العيص فدخل حرز الإفرنج مع جماعة من بنى إسرائيل توطنوها فولد الإفرنج منهم، وبنو عجل أخرجهم ربيعة، والأصبع المرقعة، أسكنوها خراسان، وصار ملك خوزستان على الرعية انتقلوا إلى أعمال الكر سكنوها.

وخرج جيش عرب من بنى تميم في أيام عمر بن عبد العزيز بن مروان استفتحوا السند، فلما طابت لهم سكنوها فظهر منهم الكوكر والحمت والسنه وحاجر، وخرج جيش من أنطاكية في أيام عبد الملك بن مروان إلى المغرب، فلما طابت لهم سكنوها، وظهر منهم الملثمون، ويقال: إنهم من نسل مظلوم بن الصحصاح بن جندب الكلابي في الترجمة، وهم من أخيار وكبار خوارزم، أخذهم السلطان محمود بن سبكتكين، نفاهم إلى أرض الهند، فلما طابت لهم سكنوها، ولما خرجت الإباضية على عليّ بن أبي طالب بأرض اليمن، من أعمال العراق، ولوا الأدبار وما زال السيف وراءهم إلى أن عبّرهم البحر وسكنوا إقليم عمان.

وأهل طرابلس المغرب تحولوا في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، إلى بارى وتولية، وبنو كنانة وأخرجوا الإفرنج من عسقلان وسكنوها، فلما تخربت تفرقوا في أكناف البلاد، وبنو حية خرجوا من الشأم في أيام دولة الإمام أبي عبد الله جعفر المنصور وسكنوا المغرب.

ولما غزا بختنصر بني إسرائيل الشأم سكن اليهود نهر السبت مما يلي ظهر الحجاز، ولما قويت صولة السلطان معز الدنيا والدين أبو المظفر محمد بن سالم على الخوارزمية نزل من نيسابور ألف رجل مكتّفين الأيدي مكشّفين الرءوس حُفاة مشنقين في حبال المنجنيقات شتت شملهم ومزق جمعهم في أقاصي إقليم الهند.

ولما قويت شوكة السلطان علاء الدين أبو الفتح محمد بن تكش على الخِطا والتتار ساق منهم من أراد وأسكنهم أعمال كرمسل، ولما قويت شوكة الترك على السلطان علاء الدين محمد نقلوا المسلمين من خراسان إلى بغداد وأوراق الشجر والقصران إلى أن عبّرهم سيحون.

شـــــعر:

خليليّ نومي عن جفوني مُسهّد وقلّ اصطباري بعدهم والتجلدُ
فقلبي عن الأحباب لا يقبل العزا وجفني قريح بالدمع مُسهّدُ
وإني حزين كلما مر ذكركم بتولِكم بعضي وبعضي مُفرّدُ
لئن جمعتْ بيني الليالي وبينكم وعاد زمان الوصل بالوصل مُسْعَدُ
أصوم لوجه الله دهري تطوعًا وألصق وجهي بالتراب وأسجدُ

وبعض أهل صنعاء وجميع أهل المشرق على مذهب الزيدية، وهو مذهب الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وينسلخ من الزيدية المخترعة والمطرفة، وهم الذين يقال لهم الصالحية والجارودية، لبسهم الخام لبرودة البلاد، ولبس شبابهم الفتوحي، والله أعلم.

ذكـــر تفصـــيل الفتـــوحـــي

جاءت عجوز بأبي سعيد بن الحسين بن أحمد بن بهرام الجباهي، والأصح علي ابن فضل، إلى خياط يعلمه الخياطة، فكان الصبي يأخذ الثوب المفصل من أستاذه الخياط يخيطه في موضع لا يراه أستاذه، فلما طال ذلك سأله الخياط عن انفراده وغيبته، قال له علي بن المفضل: إني لآخذ الثوب منك فأصعد على أعلى ذروة نقُم أخيط هناك وأفكر وأشرف إذا ملكتُ صنعاءَ من أي باب من الأبواب أدخلها، فلما سمع الخياط لفظ علي بن فضل قال له: قم نسكن جبل نقم فسكناه، وصار كل من يقتل أو يهرب من دَين أو مظلمة صعد إليهم فأَمِنَ، فما زالوا على حالهم في مكانهم إلى أن التأم إليهم وانضاف إليهم خلق وعصوا في الجبل، وصارت سرية القوم تصابح صنعاء وتماسي، فلما استقوى وضعف حال ولاة صنعاء تملكها فتولاها، فإذا هو على مذهب القرامطة، وكان مولعًا بحب النساء، يفصل لهم الفتوحي، وكان يوقف النساء حلقة دائرة ويدخل هو في كم إحداهن ويتفرج على نهودها وأعكانها وأركانها ويمسك قماشها ويخرج من كمها إلى كم صاحبتها، ولا يزال إلى أن يدور على الجميع ولم تنكشف إحداهن إلا كلٌ عندها ما عند صاحبتها وكلٌ بروحها مشغولة، ويسمى الفتوحي لاستفتاح صنعاء، ويقال: إنه فتح الخياط، وكانت تلبسه نساء بغداد إلى أواخر دولة الإمام أبي محمد الحسن المستضيء بنور الله، أمير المؤمنين، ولبس نساء جميع العرب وجميع التركمان والكرد والباذج ونساء أهل سيستان إلى الآن منه، ولهذا يقال للصنعاني: يا أبا حسان.

حدثني يحيى بن عبد الله الخياط قال: زرع أسعد الصنعاني في أرض له شعيراً، فلما بلغ الحصاد قال للحُصّاد: ألا كل من أراد حصاد الحنطة، فالتأم معه خلق، فلما وصلوا الزرع وإذا به شعير، قال: فنادى بعض الحصادين بعضهم: يا أبا حسان، يعنون صاحب الزرع، لأن كنية أسعد أبو حسان، أي كذب أبو حسان، فمن الحين والوقت سنة اثنتين وعشرين وستمائة، ويقال بالعجمية: كندم نما جو فروش، أي يُظهر عين الغلال وحنطة ويبيع شعيراً، وهذا عيب عظيم، ولهذا يقال صنعاء محاصرة.

حدثني سليمان بن منصور قال: إذا وقع في لحية إنسان من العرب، يعني زيد، شيء من فتات الخبز أو قشر أو شيء لا يليق به يقول عمرو لزيد: صنعاء محاصرة! فيمسك زيد لحيته يهزها ليقع ذلك الشيء منه ويقول: حاشا صنعاء تحاصر، وهذه اللحا باقية، وهي إشارة بين القوم كما قال:

وما زلت أطوى مَهْمَهًا بعد مهمهٍ ... على حسرة حتى وقعت على صنعا

كما يقال في الشأم: حلب محاصرة.

عجائب ذمار

لم يوجد فيها حية ولا عقرب وإذا دخل إنسان بحية إلى ذمار فعند دخوله الباب تموت الحية، ويقال: إذا أخذ من تراب ذمار وشذر في سلة الحواء موّت جميع حياته، وهذا أعجب شيء يكون.

ويقال: إن أرضها كبريتية لا يقيم فيها من المؤذيات شيء إلا هلك، ومنها يُجلب الكبريت إلى سائر أعمال اليمن، ويكون طول آبارهم ثلاثة أذرع.

صفة جبل لشى

وهو جبل الشب، ومشارق ذمار بمسافة فرسخين جبل يسمى لشى، وجميع حجره ومدره ويمينه وشماله وشأمه ويمنه قطعة واحدة لحب، وفي صيد منه أى ضرس منه كهف، وفي الكهف بحر ماء حار يغلى، وكل مريض يمرض من أهل البلاد يأخذ منه فدًى، كلٌ على قدره، يعرى ثيابه على باب الغار وينزل وبعد ذلك يسبح في الماء وما يخرج منه إلا وهو متعافٍ، وفوق منه مدينة مدور من جبالها يستخرج وتسمى المعدن والمقر، ومغارة صنعاء جبل اللوز وسرير ملك مدينة نعمة، ومن ورائها مثابة[1] وهى مدينة ذات طول وعرض، وجميع هذا الجبل يحمل اللوز لا غير.

صفة نكاح اهل هذه الأعمال

إذا خطب زيد بنت عمرو وأنعم له بذلك يقول زيد لعمرو: أريد أشاهد جمال كريمتك، فيقول له عمرو: اقدم إلى السوق الفلاني فإنها تتوعد به تشاهدها فى بيعها وشراها وجمالها، فيتقدم زيد إلى السوق الذى دله عمرو عليه فيقعد على

(١) هذه الكلمة غير منقوطة فى الأصل.

قارعة الطريق، فتُقْبِل خطيبته وعلى ظهرها كارة وعلى قدر شيلها تحط في السوق فتبيع ما معها وتشترى حوائجها، وترفع كارتها على ظهرها، ويرجع خطيبها وراءها تقطع الجبال والأودية والشعاب والسهل والجبل واللين والوعر، وهذا كله ولم تحط الكارة من ظهرها ولم تسترح، فإذا أعجب الرجل حالها وجمالها وشيلها وبيعها وشراها وقوة صبرها على شيل الثقيل فعند ذلك يملك بها ويدخل عليها وتبقى على شغلها ذلك إلى الممات.

وهذا زى القوم في البدو والبادية، ولبسهم الخام لبرودة البلاد، ويقال: إن رجلا قال: اشتهيت على الله عز وجل مياه صنعاء في عدن وأحطاب عدن في صنعاء وكلاهما ملكي، ولم تعرف أهلها شعلا لسراج.

حدثني محمد بن منصور بن محمد الواسطي قال: يطلع في أعمال تعز وصنعاء قضبان تسمي شوحط، إذا أشعل رأس القضيب اشتعل شبه الشمع، ولم يشتعل في سائر الأعمال طول الدهر إلا الشوحط لا غير عوضاً عن السراج والفتل.

مأكولهم الحنطة والحلبة واللحم، والشراب لا يقطعونه لا صيفاً ولا شتاء، لا ضعيف ولا قوى، سفرهم إلى عدن وشراؤهم الحطب والعطر والهندوان، وغاية اشتغال القوم في معرفة الجواهر وعلم الكيمياء وعلم النجوم والنحو والمنطق والفلسفة والهيئة والهندسة وحساب الضرب والجمّل، وقوم يدّعون الحكمة وفصل الخطاب.

وبناؤهم بالحجر القديم لا يحفرون الأساسات القديمة ويستخرجون منه ألواح حجر طول اللوح أربعة أذرع في عرض مثله، تكسر تلك الحجارة وتُعمل ويبنى بها، وبناؤهم على تقاطيع بغداد في التفريض والتذهيب.

صـــفة وادى الظهـــر

حدثني عبد الله بن مسلم الزبيدى الوكيل قال: في أعمال صنعاء وادٍ يسمى وادى الظهر، ففي بعض السنين مطر غيث طَخْطاح رَخراح فسالت منه الأودية ورَوِيَت منه البلاد وسُقي منه العباد، وسال أواخره إلى الوادى، فمن حدة جريانه غسل الأرض من التراب والحصى فظهر في بطن الوادى صخرة كبيرة عليها مكتوب:

أنا الذى قـــد أفنى ثمـــودًا   وعـــادًا ثم أفنى جِـبـــلًا
فمن يعمل قبيحًا أو جميلًا   به يلقـــاه مكتـــوبًا سِـجِـــلًا

فبقيت الصخرة في بطن الوادى يقرأها زيد وعمرو ويعتبر منه قيصر وجعفر عدة شهور، وبعد انقضاء هذه المدة جاء سيل أعظم من الأول طم الصخرة بالحصى والتراب ورجع إلى ما كان ولم يعرف أين كان إلى الآن.

مــن صــنعاء إلــى المحــالب راجعـــا

من صنعاء إلى حصن ثُلا ثلاث فراسخ، بناء مشائخ بني معن.

حدثني منصور بن مقرب بن على الدمشقي قال: إن تبع بنوا حصونًا سبعة، فمن جملتها كوكبان وحَب وجبأ ونكور وصحم وعزان وثلا.

وإلى عزان فرسخ ونصف، بناه الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة الحسيني، وإلى مسك أربع فراسخ، وإلى حجة فرسخان، وأما إقليم حجة فطويل عريض، ومن

جملتها مائتان وثمانون حصناً، وتسمى المقطوعة والجاهل والاغرابى وقرن عشار والشرفة والقطيع وجبل عمرو والظعين والرهبة والعيار.

حدثني سليمان بن منصور قال: إن جميع ما تقدم ذكره حصون مانعة أعطاها الملك المسعود أبو المظفر يوسف بن محمد بن أبى بكر مع ثلاثين ألف دينار حتى سلّموا إليه حصن بكور سنة ست عشرة وستمائة.

وإلى الذنائب خمسة فراسخ، ويكرى بهذه الأعمال الشقة الشقدف التي تلي الجبل بدرهم واحد، والتي تلي الوادى بدينار، قلت: ولِمَ؟ قال: لأن الآساد في هذه الأماكن كثيرة، يكمن الأسد على سقيف جبل مشرف على المحجة فلم يحس الإنسان إلا والأسد قد اختطفه مكابرة والعين ترى العين، والذى مما يلى الوادى مُخْلَص من خوف الأسد فإنه قاعد على تل السلامة، ويقال: إن أسود هذه البلاد متأسدة، أي سحرة يقلبون صورهم على صورة الأسود.

حدثني على بن معالى الدلال قال: إن أسود هذه البلاد قط لم تفترس حماراً ولا بقرة ولا ضأناً، ولم تقصد إلا ابن آدم، فإذا قصد الإنسان شجرة نزل الأسد تحتها ويبقى مدة ثلاثة أيام، أربعة أيام، وينتظر الإنسان متى يتعب وينزل فيأكله وترى الإنسان يقول للأسد: بالله عليك إلا ما عفوت عني، وهو يريد نزوله ويضرب بيديه الأرض والشخص يحلفه بمعبوده إلى أن يعدو عليه، قلت: فما السبب في تأسد القوم، فإن الثواب في الظلم للعشيرة؟ قال: يتعلم السحر من بعضهم البعض ويتأسد الإنسان ويجتهد في إيذاء الخلق بأوحش الصورة والخلق، وإنهم طول حياتهم بينها حكاية طويلة عريضة، وقد قال النبي ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً».

وإلى المحالب خمسة فراسخ.

من صنعاء إلى مأرب

حدثني سلامة بن محمد بن الحذجاج المحجي قال: من صنعاء إلى مسور أربع فراسخ، أرض بني باهش، والي وادي جنات أربع فراسخ، وإلى المأزمين أربع فراسخ.

ذكر هد سد المأزمين

حدثني محمد بن سلامة بن حجاج قال: سدّت أهل شداد وعاد منفذ جبلين بالحجر والرصاص وصعدوا في ارتفاعه إلى أن حاذى الحائط ذروة الجبلين، فصارت السيول تفلت فيه والماء يستجمع إلى أن رجع بحراً مسدوداً، وكانوا يسقون منه أراضيهم وأنعامهم، ويقال: إنهم كانوا يسقون منه إلى قرب الشأم بساتين ذات أعناب ونخل وزرع وقرى متصلة بعضها ببعض، وبقي الإقليم عامراً إلى أن أخربه الله، وكان الموجب ما ذكره الرازي أنه خرجت قافلة من الشأم وإذا بفأر قفز من الأرض ركب ظهر جمل من بعض الأجمال التي في القافلة، وما زال الفأر ينتقل من جمل إلى جمل ويعبر منزلا بعد منزل إلى أن وصل مدينة مأرب فقفز الفأر من الجمل ودخل السد وصار يعمل فيه عمله.

ويقال: إن النعمان خرج يوماً في طلب الصيد فحصّل في طرد الصيد فوجد الفأر بأنياب حديد يحفر السد، فلما رجع إلى أبيه المنذر قص عليه حكاية الفأر وصفة أنيابه أنها من حديد يحفر السد، فقال المنذر: صح يا بني ما وجدناه في

الكتب أن ما يخرب سد مأرب إلا فأر أنيابه من حديد، وأريد منك إذا دخلنا يوم الأحد إلى الدير والكنائس والناس فيه مجتمعون فقم إليّ وشاكلني في أمر من الأمور وطوّل لسانك عليّ، فإذا رأيت الأمر قد طال فقم إليّ والطمني براحة كفك على خدي.

قال النعمان: وكيف يمكن ذلك؟ قال: يا بني افعل ما أمرتك به، لأن لي فيه رأياً، ولك فيه مصلحة، ففعل الولد ما أمره به والده.

فلما لطم الشيخ غضب الشيخ، فمن الحين سمي الملطوم، فقام الشيخ بين الجميع وقال: يا وجوه العرب، ما بقي لي معكم سكن، فقالوا له: ولِمَ؟ قال: وكيف أقيم وصبي كسر حشمتي بينكم وحرمتي!.

ومن ساعته نادى على السد فتألبت والتأمت قبائل العرب في شراه، قالوا: بِكَمْ؟ قال: تغمدوا سيفي هذا! وغرس ذؤابة سيفه على الأرض وصارت العرب تنقل الذهب والفضة والمصاغ إليه، وما زالوا على حالهم يصبون الذهب إلى غمد سيفه بالذهب، فأخذ الشيخ المال وصعد الجبل وسكن مقابل السد، والجبل يسمى جبل حقا، وهو وأهله فيه ينتظرون خراب السد، ولما تمكن الفأر من السد وخرقه أخربه وضرب السيل[1].

حدثني سلامة بن محمد بن حجاج قال: لما دفع السد أخذ الماء في جملة ما أخذ ألف صبي أمرد على ألف حصان أبلق غير البيض والشقر والدهم والخضر، كما قال:

(١) أورد ابن كثير هذه القصة في البداية والنهاية، المجلد الأول، بصورة أكثر إيضاحاً.

تهدم سد المأزِمَين وقد مضى ... زمـانٌ وهو ينقـاد حـيث يُقـادُ

وإلى مأرب أربع فراسخ، وتسمى الحصنَين، ومن هذه البلدة نقلت الجن عرش بلقيس إلى أرض فارس، في زمن سليمان بن داود، عليهما السلام، كما قال عز وجل: ﴿أهكذا عرشك قالت كأنه هو﴾[1] فقال:

مـــولاتنا ووليـــة آلِ الذى ... طالت كما طالت علاً بلقيس

وقد قال الأديب الصاير في مدح السلطان أتْسِزْ بن ألب أرسلان، حاجب السنجرى:

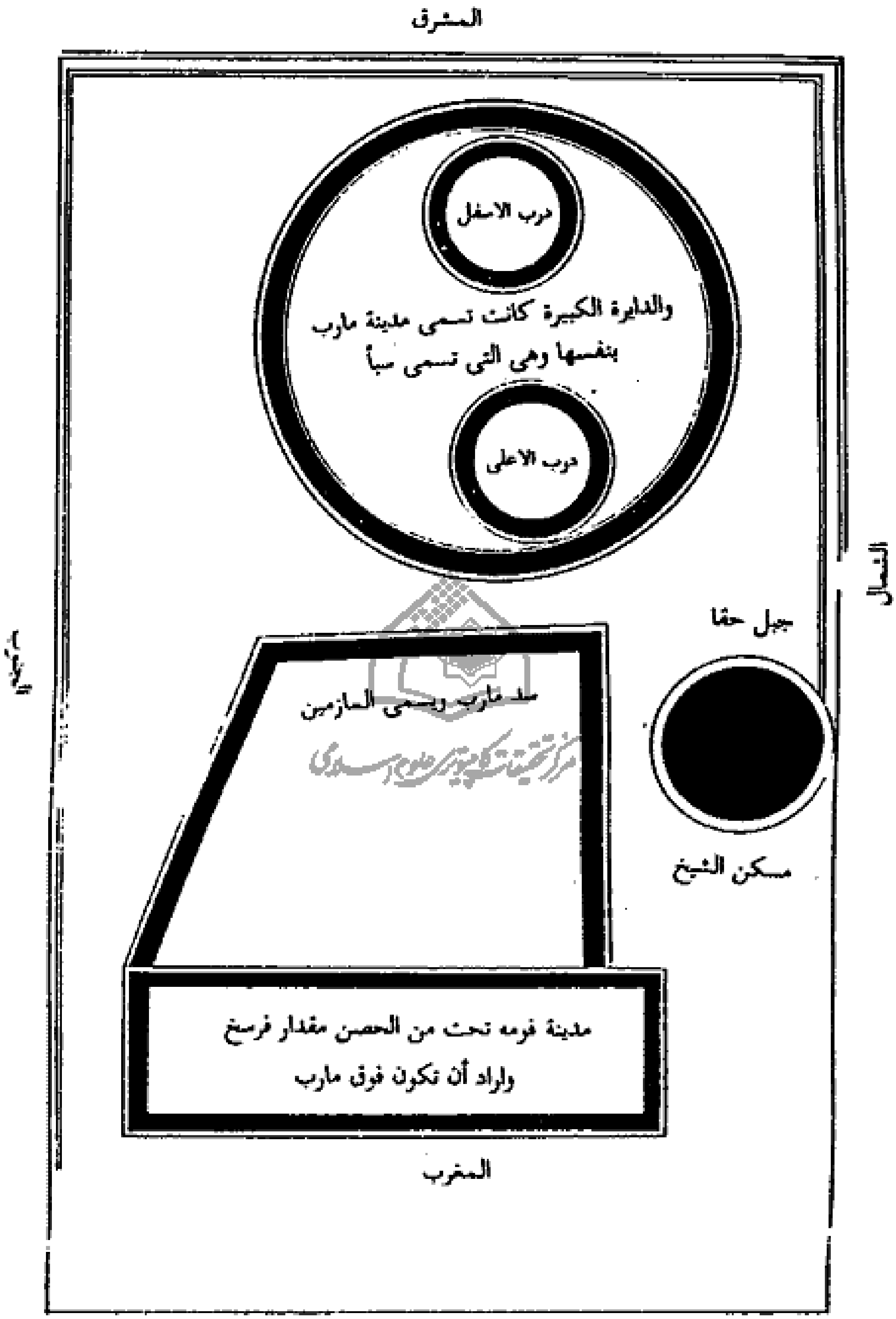
وبن صوركه ماندهى كسدمى كارم دل لسانه والان يسرى

فلما اندق السد أخذ مأرب في جملة ما أخذ، فلما زال شر الماء وضرره دارت الخلق على موضعيْن سليميْن منه صوران يسمى أحدهما درب الأعلى والثانى درب الأسفل، وفى درب الأعلى شارع يقال له: شارع الفضول، كل من تلاكم وتعربد وضُرب وضَرب لا يؤخذ له ولا يؤخذ منه حق، فإن كان خارجاً عن الشارع وجب على كلٍّ حقه في الأخذ والرد.

قال: وحدثنى رجل مغربى قال: وكان حسام الدين على لؤلؤ فى صنعاء والياً يقال له: والى الفضول، كل من كان يتعلق عليه بحجة فكان يأخذ من كل واحد دينار.

وهو على هذا الوضع والترتيب.

(١) الآية: ٤٢ من سورة النمل.


المشرق
درب الاسفل
والدايرة الكبيرة كانت تسمى مدينة مارب
بنفسها وهي التي تسمى سبأ
درب الاعلى
الشمال
جبل حقا
مسكن الشيخ
سد مارب ويسمى العازمين
مدينة فومه تحت من الحصن مقدار فرسخ
واراد أن تكون فوق مارب
المغرب

ويقال: إن مدينة مأرب بناها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ويقال: عابر، وهو: هود، عليه السلام، ويقال: إنما سمي سد مأرب لأن قوم عاد لما سلط الله عليهم الريح العقيم وكان يقف على السد كل يوم كذا وكذا من رجل ليردوا عن أصحابهم البلاء، وكانت الريح تضرب بعضهم على بعض، كما قال الله عز وجل: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾[1] فبنوا السد ليرد عنهم قوة الماء، فلما عذب تلك الأمة اجتمع السيول فيه وكثرت المياه فبقي جرياً للماء فبني عليه قرى وعمارات وزراعات إلى حدود الشأم وكان يسقى منه جميع ذلك.

فصل: ولد لحصيص بن حصن ولد في مأرب أمسى علمه في حضرموت مسيرة ثمانية أيام، لأن كل ناطور زرع كان يخبر صاحبه حتى اتصل الخبر بحضرموت، وذلك من عمارة البلاد وكثرة العباد.

بأعمال العواهل جبل يسمى المعدن، وهو معدن الفضة، وجبل يسمى سرواح معدن الذهب وترابه أصفر يشبه الزرنيخ لم يعرف أهل زماننا هذا عمله، ويقال: إن قوم عاد كانوا يستخرجون الذهب والفضة من هذين المعدنين وهم في هذه الأعمال، ما بين إقليم العواهل، ووادي بيحان جبل ملح لم يكتل عرب مذحج والبدو والبلاد إلا منه، ويقال: بل يكتال منه عرب نجد وما حولها من البدوان، ويوجد بهذه الأراضي النعام والفهود والظباء والأيائل كثيرة، وجميع بناء القوم بالحجر الرخام المنحوت المنجور، وكان ينقل في قديم العصر من جبل يام، وهو مقارب براقش مسيرة أربع فراسخ، حصن أبيض.

(١) الآية: ٤٢ من سورة الذاريات.

من مأرب إلى الجوف

من مأرب إلى ورسان اربع فراسخ، بئر صغير من بناء قوم عاد، وإلى براقش اربع فراسخ من اعمال الجوف، وإلى معين فرسخ، وإلى هرم فرسخ، وفيه يقال:

مـــا بين مـــعـــين وهرم ــــبـــعـــون بئـــراً لابن لخم
مطوية بالساج من جوف القدم مـــا برحت لحم حـــاب لحم
غلبت عليها هُذيل وعَقيل وجُــشَم

وإلى الجوف الأعلى أربع فراسخ، أرض بني دعام، وبه من القرى العادية معمور درب الظالم والسوق ودار عصية ووحسان وسمموم وصهيد، والقاع يزرع به الحنطة والكمون، وكل هذه القرى عامرة بأهلها، ولا يزال القتال بينهم دائمًا، ومشائخ البلاد يدعون أموالهم بأرواحهم والضعفاء يزرعون ويحصدون، والتي هي خالية من السكان السوداء وحراضة ودرب بني محرم والعاصة، وفي الجوف السوداء والبيضاء ومعين وهرم وسرال وبراقش ودرب أقصى ومقعد الفيل والجار وبردا وحمضة وحمض والهجيرة، والله أعلم.

صفة هذه الأعمال

مساكن شداد وعاد والتبابعة الجبابرة، بناؤهم بالحجر والرخام والرصاص وشيء منها نقر في الجبال كما قال الله عز وجل: ﴿ **وتنحتون من الجبال بيوتًا**

فارهين﴾(1) ويقال: إنه كان يلين لهم الحجر في العام شهر زمان، والأصح عشرة أيام، ففي هذه المدة كانوا يعملون منه ما أرادوا، فلما كفروا نعمة الله، عز وجل، خُسف بهم وتفرق شملهم وتشتتوا في أقاصي الربع المسكون وأداني البحر المعمور، شرقًا وغربًا وشمالا وجنوبًا، كما قال أبو نواس، الحسن بن هانئ، المعروف بالمذحجي، في ذلك:

في فتية كالسيوف هَزَّهمُ ... شرخ شبابٍ وزانهم أدبُ
لما أراب الزمان فاقتسموا ... أيدى سبا في البلاد فانشعبوا
لم يُخلف الدهر مثلهم أبدًا ... على هناتٍ لشأنهم عجبُ
لما تيقنتُ أن روحهمُ ... ليس لها ما حييتُ منقلبُ
أبليتُ صبرًا لم يبله أحدٌ ... واقتسمتني مآربٌ شُعَبُ

فرجعت الدور قبورًا والمساكن مساكن فارتدمت بعضها على بعض، وتقلعت النخيل والأشجار وطلع بدله العشب والأراك وسكنت البدوان ببيوتها الشعر، وصارت الإبل ترعى بين عامر الخراب وتشرب ظباؤها من الندا والسراب، لبئس الشراب وساءت مرتفقًا، كما قال بعضهم في المعنى:

يا صاحبيّ قفا المطيّ قليلا ... يشفى العليل من الديار غليلا
هذى طلولهم أطلن صبابتي ... وتركن قلبى من عراىَ طُلولا
ولئن خلت منهم مرابعهم فقد ... غادرْن قلبي بالغَرام أهيلا
لو أن عيسهم غداةَ رحيلهم ... حُمّلن وَجْدى ما أطَقْنَ رحيلا

(1) الآية: ١٤٩ من سورة الشعراء، وقد وردت في الأصل: ﴿...بيوتًاآمنين﴾ وهو تداخل مع الآية: ٨٢ من سورة الحجر.

إن الظعائن يوم جَزْعِ مُفحش أبقينَ لي جَزَعًا بها وعويلا
من كل رئم لا عديل لحسنها رحلتْ فكانوا للفؤاد عليلا
كالبدر وجهًا والغزال سوالفًا والرملِ ردفًا والقناة ذُبولا

ولآخر يقول:

يا قلب هل منك إن سليتَ سلوانُ
أم أنت في غمرات الحُب ولهانُ
والله ما طاب لي عيشٌ أسر به
حتى يعودَ أصحابي كما كانوا
هيهات بانوا فلا والله ما طمعتْ
نفسي بقربكمُ من بعد ما بانوا
يا لَهفَ نفسي على عيشٍ نعمتُ به
أيامَ لي فيه أوطار وأوطانُ
أقسمتُ ما سرَّ قلبي بعد فرقتهم
خلقٌ ولا لاح للإنسان إنسانُ

ويسمى هذا الإقليم إقليم العواهل، وهو بالطول من نجران إلى بيحان وبالعرض من روضة نسر إلى حضرموت.

من مأرب إلى صنعاء راجعا

من مأرب إلى بئر موهل فرسخان، وإلى حرنين فرسخان، وإلى طبال العاشر فرسخان، وإلى الرحبة فرسخان، وإلى صنعاء فرسخان.

من صنعاء إلى صعدة

على الطريق القديم.

قال ابن المجاور: وكان هذا الطريق يُسلك في أيام الجاهلية، فلما ظهر الإسلام بطل.

من صنعاء إلى مرمل ثلاث فراسخ، سرير ملك أعمال الخشب، وهو مساكن ثمود، والأصح مساكن التبابعة، وجميع ما بُني بالحجر والجص المدن منها والقرى طول كل لوح حجر منه عشرة أذرع، زائد لا ناقص، وهو الآن كله خراب يناه.

وإلى ثريد ثلاثة فراسخ، من أعمال تومين، وهما واديان، وإلى رأس نقيل عجيب ثلاثة فراسخ درجة أسعد الكامل، وإلى نقيل الفقع فرسخ، وإلى المصيرع فرسخ، وفيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صرع الكفار، وأنشد بعض العرب المصرعين يقول:

كُلينا يا سباع وجرجرينا فوالله يا سباعُ لتفقدينا
علينا البيض والدرق اليماني وأسيافٌ تُجَرُّ وتعذرينا

وإلى نجد فرش فرسخان وهو نقيل مدرج، وإلى العميشة ثلاث فراسخ، وإلى الدرب فرسخان وإلى صعدة فرسخان، والله أعلم.

ذكـــر خـــراب صـــعدة القـديمـــة

فلما جرى على ذات النحيين ما جـرى ورأى عمرو بن معديكرب الزبيدى ما تم على المرأة حمّل جمالا رملا وقدم بها وقت الصبح الصادق إلى صعدة وقال لبني عمـه: إذا دخلتـم صعـدة فاسفقـوا الزوامـل الرمل بين دروقى الباب، ففعلوا ما أمرهم به وامتلأ دروقى الباب رملا، فعلم البدوى فأمر بغلق الباب، فلما غُلق الباب لم يجئ معهم الأكياس الرمل بين دروقى الباب، فحينئذ دخل عمرو بن معديكرب الزبيدى إلى أرض الحجاز فتبعه رجل من البدو، فلما دهمه جذب السيف وضرب الصخرة التى تقدم ذكرها فعرفت بضربة عمرو، فلما نظر الرجل الضربة رجع عنه، وتم على قوة إلى أن خرج إلى الحجاز وأسلم على يد النبى ﷺ، ويقال: على يد بعض الخلفاء، وخرج فى فتح العجم مع سعد بن أبى وقاص، وقُتل بأعمال نهاوند من إقليم العراق، فلما تم على أهل صعدة ما تم تراجعت الخلق من كل فج عميقٍ فعمّر كلٌ منزله ومسكنه وسكن فيه، فلأجل ذلك هى خمسة دروب، ويقال: إن صعدة القديمة كانت فى الابتداء عند حصن تلمص مع خراب صعدة وأعاليها بناها الهادى يحيى بن الحسين.

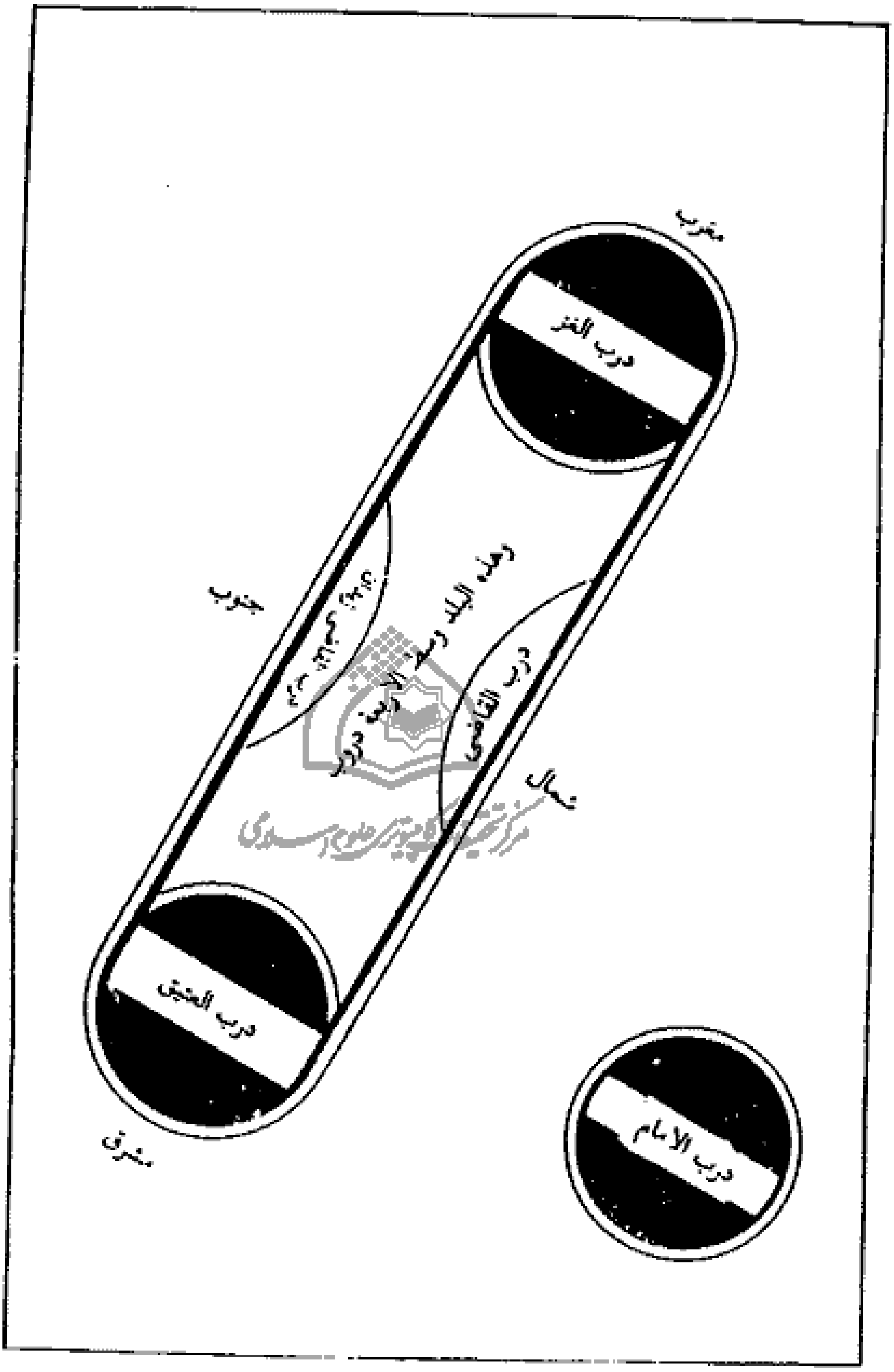
بنـــاء صـــعدة، بنـــاء الشـــرف

بُنى فى دولة الإمام أبى موسى محمد الأمين بالله، أمير المؤمنين، ويقال: بنى قديم بناء الجاهلية، والأصح أنه بُنى فى أيام بناء صعدة صنعاء، ولا شك أنها بناء

سام بن نوح، عليه السلام، وأما صعدة هذه فإنها لما خربت صعدة القديمة وتم على أهلها ما تم ثم جاء يحيى الهادى بن الحسين أراد بناء مسجد فى هذه الأرض فجاء إليه تاجر فقال: وكلني على بنائه، فوكله وبنى التاجر المسجد، فلما فرغ بناؤه قال له الهادى: أحسبتَ حساب الخرج؟ قال التاجر: معاذ الله أن آخذ على بناء بيت الله أجرة وثمنًا.

وسكن الهادى يحيى بن الحسين المسجد بمقامه فسكنت معه الخلق فكثرت الأمم فبنوا مدينة وأسواقًا ودورًا وأملاكا، فلما رأوا ذلك أداروا عليه أربعة دروب: الدرب العتيق، ودرب القاضى، ودرب الفر، بُنى فى أيام سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، ودرب القاضي بن زيدان، ويحوى هذه الأربعة الدروب درب واحد وهو السور، ورُكّب على السور باب الدرب العتيق وباب عليّ بن قاسم، وباب درب المعز، وباب درب القاضى ابن زيدان، وباب حوث، وباب درب الإمام، وأما درب الإمام فهو حصن بناه أبو محمد بن عبد الله بن حمزة ما بين الشمال والمشرق منفردًا بذاته لم يخالطه شيء قريب من البلد لم يسكنه إلا الإمام وعترته.

وصورته على هذا المنوال فى الصفحة الثانية التى بعد هذه.


مغرب
درب الغز
جنوب
درب الشافعي
شمال
درب العتيق
مشرق
درب الإمام

وأما البلد فإنه عامر كثير الخلق والخير ذات معاش، وشربهم من الأنهار والأعين وزرعهم الحنطة والشعير، ذات أشجار وأنهار، ولبسهم الحرير والقطن لأن البلاد ظاهرها حار بالمرة وباطنها حار لين، وهم قوم أخيار يدعون الحكمة ومعرفة الجواهر والعلوم العلوية، وهم على مذهب الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب جميعاً، وهم شوكة القوم فى المذهب.

فصل: حدثنى على بن محسن الجبلى قال: إن بنى العباس لم تَـهَـبْ أحداً إلا الزيدية، قلت: وكيف ذاك؟ قال: لأن السنة والجماعة من حزب الأئمة بنى العباس، وتقول الشيعة والإمامية: لا الإمام إلا من ضم العصى وأورق العصى، وهم مع ذلك ينتظرون خروج الإمام المنتظر محمد بن الحسن، فهم الآن يفرّقون من الفريقين، وأما شوكة البلاد فهم الزيدية، لأن عندهم كل إنسان عفيف متدين شريف من آل الحسن بن على بن أبى طالب يكون فيه خمس خصال فهو عندهم إمام واجب الطاعة، فكل من قام على هذه الصفة قامت الزيدية معه وقاتلوا بين يديه، ووقع أحمد بن عبد الله بن حمزة بخزانة ساج فى نواحى صعدة وظهر لهم فى جملة ما ظهر أربعمائة زردية داودية غير السلاح والعُدد ووقعوا بمطلب ذهب، ولكن ما صح لهم منه شىء، لأن عليه طلسم لم يمكنهم الدخول إليه سنة أربع وعشرين وستمائة.

من صعدة إلى ذهبان

من صعدة إلى الحوانيت أربع فراسخ، بناء أسعد الكامل فى وادى سجع، بنى

هذه الحوانيت سكنة لما عزم أن يعمر نقل حرف العراق، وإلى خطم البكرات فرسخان، ويقال: إنما عرف هذا المنزل بهذا الاسم لأن عفريتًا من الجن قال لرميم ابن جابر الشاعر: أنشدني بيتًا وأنشدك مثله حتى ينصُرَ من يغلب صاحبه، على شرط أنك لا تذكر في شعرك الديك، قال: نعم، فما زال هذا يقول بيتًا وهذا ينشد صاحبه مثله حتى عجز رميم بن جابر فقال:

وديك أحمر سليماني ما يلقى بحافته جنى ولا حيث يُسمعُ

فلما سمع الجنى ذلك طار فى الهوى ونزل أخذ صيدح بَكْرة رميم بن جابر فصيّحها قِطَع قِطَع، فلما رأى رميم ذلك حزن على بكرته وصار يبكى وينقش صورتها فى الأحجار، فما فى هذه الأمكنة حجر إلا وفيه صورة الناقة، فعرف الموضع بخيم الركاب، وفيه يقول:

فما فى الصبايا مثل مَيا صبية ولا فى المطايا نضوة مثل صيدحِ

وقال أيضا:

وأصبح فى شق المشورة قاعدا وصيدحُ ترعى بين عيسٍ قناعس

وإلى القديم فرسخان، وهو موضع قوم كما قال:

امسى قومي بلحى وغادرني كريم وعادسنا يام...[1] أرى القديم

وهذا يام بن أصنع وسكنهم بوادى الخانق والحقة، وإلى ملتقى الأودية فرسخ، وإلى غسل جُلاجِل فرسخان، وإلى المحلف فرسخان موضع قوم، وإلى البصرة

(١) بياض بالأصل.

فرسخ، وإلى وادى نقوص فرسخان، وإلى الجبل الأسود فرسخ، وإلى السروات فرسخان، وإلى رفيدة فرسخان، وإلى طريب فرسخان، وإلى ذَهَبان فرسخان، وتسمى هذه الأعمال بيشة العباس بن مالك بن عمرو بن وائل يرجع إلى نزار.

من صعدة إلى نجران

من صعدة إلى زهران ثلاثة فراسخ، وهو لابن ملك لآل عبد الله بن حمزة لأنه اشترى أراضيها من أربابها بيعاً وشراءً، وكان لقوم يقال لهم: الأقشور رأس الركب، وإلى الحد ثلاثة فراسخ، وإلى الركب ثلاث فراسخ، وادٍ عظيم يجرى على صفا، وإلى الخانق ثلاث فراسخ، نخيل وماء جارى أوله يجرى من الركب، وإلى كوكبان فرسخان، ومنه يخرج إلى نجد، ووضع هذا الحصن ما بين نجد وجبال اليمن، فهو حصن مانع سرير ملك نجران، وإلى الحقة ربع فرسخ، مدينة الأصل نجران، وعليها المعول فى البيع والشرى، وينقسم أهلها على ثلاث ملل: ثلث يهود وثلث نصارى وثلث مسلمين، فالمسلمون الذين بها ينقسمون على ثلاثة مذاهب: ثلث شافعية وثلث زيدية وثلث مالكية، وهى المدينة التى كانت لأصحاب الأخدود وهى التى قال الله عز وجل فيهم: ﴿ قُتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود ﴾(1).

وإلى قابل ربع فرسخ، وإلى حبونا أربع فراسخ، وإلى قرقر أربع فراسخ، والله أعلم.

---

(1) الآيات: ٤ ـ ٦ من سورة البروج.

صفة مدينة قرقر

حدثني الراوي أن قرقر كانت مدينة عامرة بها ثلاثمائة وستون محلة فيها ثلاثمائة فارس، خربت لاختلاف الأمم.

فصل: وجد زيد البدوي عمرو القرقري قاطنًا ساكنًا في فلاة نجد مع البدوان فقال زيد لعمرو: ما لي أراك في جنوب نجد بعد أن كنت في أكناف قرقر بألف غزور غدوت الآن أراك رد الشرد، فأنشد عمرو القرقري يقول:

أحب دخولاً بين أدوار قرقر ويمنعني دَيْنٌ عليَّ ثقيلُ
ولو كان دَيني يقضي لقضيته ولكن دين القرقري قتيلُ

وكان يقوم تحت قرقر سوق تسمى العَمدَين وما عُرف هذا السوق بهذا الاسم إلا أن مشائخ العرب كانت تقيم بهذه السوق عامود ذهب وعامود فضة يعرف السوق بهما، ورجع الآن سوقًا للعمل بين أرض قفر تزرع به وتحرث، فراح الجسم وبقي الاسم.

ولاتها قوم يقال لهم: بنو عبد المدان، وهم قوم شداد بن عاد، اللين القياد، ذو الجياد، وفيه أنشد بعض العرب يقول:

ولولا بنو عبد المدان وخيلها لحلك يا نجران بعض القبائل

وقال آخر:

ألست تعلم أن قلبي يحبك أيها البرق اليماني

لئن أقتلكمُ قتلا دنيّا فلا شيخ يدب على البنانِ
وإن أُقتَلْ فمقدور وليت وفي قومي على سرج الحصانِ
وإن أُقتل فقد قُتلت قريش وقد قُتلت بنو عبد المدانِ

والقوم لا يطيعون لملك الغز ولا لسلاطين العرب، وآخر من تولى من بنى عبد المدان أخوان يقال لأحدهما: القاضى، وللثانى القاضى، وفى عهدهم دخلت عليه يد الأمير محمد بن عبد الله بن حمزة معهم حتى صار يصل إليهم نصف دخول البلاد، لأن الأمير محمد بن عبد الله وأخاه أحمد ولدى عبد الله بن حمزة تزوجا بأخوات القاضى والقاضى ابنى صعيب بن عدنان بن عبد المدان سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

صفة بئر الصفر

أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أن تحفر بئر فى بعض أعمالها ذات عمق وسعة وطول وعرض وأن يطوى بالصفر المصبوغ منه شبه الآجر ويسبك فيما بينه الرصاص، فبُنِيَت البئر، على ما تقدم ذكره، وهو باقٍ على حاله.

ويقال ما بناه إلا رجل من وجوه العرب فى زمن الجاهلية فاندثر واستتر مع طول المدى، فأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فأعاد بناءه فبقى على ما تقدم ذكره، والبئر من جملة العجائب.

صفة نجـران تهـامـة

من حرض إلى قرار ثلاثة فراسخ، وإلى نجران فرسخان، وهى قرية مختصرة ويسكن أهلوها فى إغصاص بعكس بعض وهم فى التغصص يتجرعون الغصص ويقرأون القصص، وإلى الحاوة ثلاثة فراسخ، وإلى حدب أربع فراسخ.

فإن قال قائل: كيف يفرق بين الاسمين؟ **قلنا**: هذه قرية مختصرة تحت تهامة اليمن خربة، والثانى إقليم طويل عريض عامر تحت من شمال نجد اليمن وسرير ملكها، فهذا غلام وذاك سلطان، وهذا كرة وذاك ميدان، ويسمى إقليم نجران وادى سوحان.

قال ابن المجاور: دل على أن هذا الإقليم بناه العجم لأن دار بهمن بن اسفنديار فى أعمال المدائن قصبة تسمى دار ريحان، ولا شك أنه هو الذى بنى هذا الوادى ويسمى على الاسم المقدم ذكره فى أعمال المدائن سوحان.

وفيه أنشد رميم بن جابر:

شبهتها قوس شريان مجزعة	مما يَلَذُّ بها الرامى فيحييها
شبهتها مهرة عذرا محجلة	عند الملوك ليوم الروع ساريها
شبهتها جَوْنَةً مال النسيم بها	الطل من فوقها والنهر يسقيها

ووادى العلائم كما قال بعضهم: وبنجران وادى الخسف ووادى العلائم.

قال ابن المجاور: وما اشتق اسم الخسف إلا من الخصب وأراد بذلك وادى الرفاء، ويهب بها ريح الطرف مدة اثنتى عشرة ليلة فيهلك الزرع والكروم، وفيه بعض الأعراب يقول:

وقد سلمت نجران في الطرف لم يزل
ببحران منها قبة وعروش

وبعضهم ينشد لرميم بن جابر:

وليلةٍ من ليالى الطرف مظلمةٍ		سودا جمادية قد بت أسربها

فصل: قال أبو بكر: ما بحران مأخوذة إلا من قولهم بَحَرْتُ الناقة إذا شققت أذنيها، والبحيرة مشقوقة الأذنين، قوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ﴾ وهى الناقة التى وهبت عشرة بطون سُيبت فلم تُركب ولا يُجز لها وبر ﴿ولا وصيلة﴾ والوصيلة الشاة إذا وهبت ستة بطون عَناقين عَناقين وولدت فى السابع عناقًا وجديا، فيقال: وصلت أخاها يحلبون لبنها للرجال دون النساء ﴿ولا حام﴾[1] وهو الفحل من الإبل إذا لقح ولده ولده فلا يُركب ولا يُجز له وبر ولا يُمنع من مرعى، والله أعلم.

القول فى زوال ملك آل حمزة

وحصولها لبنى الهادى...[2].

(١) الآية: ١٠٣ من سورة المائدة.

(٢) بياض بالأصل.

فصل: ويسمى الفحل عند الجرب العر ورهانه أنه إذا أوجعه موضع أو ثار عليه هواء او داء يحتاج الكى يؤخذ بعير غيره يكوى فوق الريح وتكون العر واقفة تحت الريح بحيث يصل روائح حرق الكى إلى العر فحينئذ يبرأ من دائه ويصح، كما قال النابغة:

وحملتني ذنب امرء وتركته كذى العر يُكوَى غيره وهو راتعُ

ولِمَ لا يكون لحليب الإبل زبد؟ حدثتنى فاطمة بنت على بن مسعود قالت: سألت امرأة موبلية من أهل اليمن عن هذه قالت: إن الأوائل كانوا يستخرجون الزبد من ألبان الإبل ثم قالوا: نتركه، قال: لأن امرأة خاصمت ولدها فتعاطى الولد فى الخذف فخذف الصبى حجراً إلى صوب أمه وكان فى يد الأم كبة زبد من حليب النوق فرجمت بها ولدها فوقعت كبة الزبد وهى جامدة كالحجر على مقتل الصبى فمات، فلما جرى هذا الأمر نادت مشائخ العرب فى قبائلها على ترك مخض لبن النوق بالمرة، فقالوا: نتركه إلى الآن.

وقال حكيم: إذا دهن زبد رأسه من دهن الإبل لم يقلعه شيء، ولم يتنظف الشعر إلا إذا حلق الشعر لأنه غليظ بالمرة.

ذكر طريق الرضراض

كان من نجران إلى البصرة طريق الرضراض وكانت المسافة فيما بين هاتين المدينتين سبعة أيام، وقد بُنى على حد كل فرسخ منه ميل بالآجر والجص، من بناء عمرو بن معديكرب الزبيدى، والأصح من بناء النعمان بن المنذر لما خرج من

أرض اليمن طالبًا العراق، والأصح أنه بناء سيف بن ذى يزن لما خرج إلى ناحية العراق واستنجد بكسرى بن قُباذ بن يزدجرد بن هرمز ملك من ملوك الفرس، والأصح إنما بنته عرب جاهلية لما سكنوا أرض نجد لأنهم كانوا فى تلك الديار شبه السوس فى الأرض والناموس الحفر.

وأما المناهل التى كانت فى المنازل قديمة الحفر، وبنى البناءون قصوراً من باب صنعاء إلى العراق واحداً من حد الآخر، فإذا كان خوف فى اليمن أو فرح حسن أشعل على أعلى ذروة كل قصر وكان يبصرونه فى ذروة قصر فى نواس تفل صحيب فكان يبصرونه فى حصن قرن الجند ومنه كان يدخل نجد.

وقدْ بنى فى نجد قصر قرب قصر ولعان، وفى الصعيد من أعمال صعدة، وكان يُشعل فى ولعان وكان يبصره فى قصر فوق الخبت، ومنه كان يدخل نجد.

وقد بُنى قصر فى قرب آخر من أعمال العراق فكان إذا أصبح الصباح يصبح الخبر عند أهل البلاد ما نجز من خير وشر ونفع وضر، كما قال:

يبلغ الصارخ العراق بيوم وفى مدى ليلةٍ تأتى المُغيرُ

ذكر انقطاع طريق الرضراض

حدثنى محمد بن سلامة بن محمد بن حجاج قال: ركبت امرأة لبعض البدوان، ويقال: بنت عمرو بن معديكرب، ركبت أتانًا على نحيى سمن، أى ظرفين، فبينما هى غادية إلى الفلا صادفها عابر طريق وسالك سبيل فراودها عن

نفسها فأبت أن تطيعه، فقال لها: إن كان ولا بد فاسقنى سمنًا، فقالت له: أهلاً وسهلاً، اشرب! ونزلت بالظرفين فحلّت رأس أحدهما فشرب الرجل منه شيئًا وقال لها: ليس هذا سمنًا طيبًا، ففتحت له الثانى فشرب حاجته وقال لها: أمسكى، فأمسكت الظرفين، فحينئذ قام وكشف وراءها وجامعها والمرأة خائفة أن تخلى السمن يتبدد، وما زالا على حالهما إلى أن فرغ منها، فشدت رأس النحيْين، أى الظرفين، وأركبها أتانها ومضى ومضت وراء شغلها، وتم الرحل على ذلك، فعلم أبوها، ويقال: أخوها، عمرو بن معديكرب، الخبر فجاء وسدد الآبار وهدم الأميال ونقض القصور ليقطع سلوك الطريق، فلما طم الآبار سفى الرمل فظهر ما بقى منه وانقطعت الطريق، وعرفت بذات النحيْين، يعنى المرأة والظرفين، والله أعلم وأحكم.

ذكــــر الفيـــض

وهو رمل شبه دقيق السميذ دون أعمال التنعيم مما يلى ظهر اليمن، لم يقدر أحد يسلكه لرفعه، مسيرة هذا الرمل شهر كامل ويقال: أيام، وهو الذى يسمى رمل عالج، وهو الرمل الذى هو على شفا طريق الرضراض قطعه بعد أن منعه، ويقال: إنما دخل سيف بن ذى يزن إلى العراق وورد إلى اليمن بعساكر الفرس إلا على حده، وكانت المسافة فيما بين الإقليمين سبعة أيام، ويقال: عشرة أيام، على ما تقدم ذكره.

ويقال براوية أخرى: إن عمرو بن معديكرب كان وراء الفلاة مع الظعن لما سدد الآبار سفى السافى طم ما بقى من الباقى وجاء فى خلق عظيم ملك صعدة

بعد أن أخربها، وقد تقدم ذكر خرابها، فلما خربت المدينة بنت العامة موضع الخراب بعينه، ويقال: بل قريب منه، والأصح أنه بُنى فى أوسط الخراب وقالوا: نترك الأطراف! ويقال: إنما غزَى القومَ إلا بدوى من ذات الأكيك وذات الحرمل، وفيه يقول عنترة:

طال الثوى على رسوم المنزل بين الأكيك وبين ذات الحرمل

فلما ضاق على البدوى الأرض أسفى الأرض فى ديارهم خرج إلى الحجاز وقُتل على يد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، كرم الله وجهه.

ويقال: إنما ينتقل الإنسان من مكانه لأربع خصال: لرزق يستوفيه، أو لموت يقتضيه، أو لسعادة تأتيه، أو لشقاوة تستوليه.

حدثنى هشام بن مسعود النجرانى فى دار الإمارة قال: إنه كان هذا الطريق ينفذ إلى الكوفة، أو قال: إلى البصرة، وكان أهل اليمن يسافرون إليه بالحمير وعليهم الأديم إلى إحدى هاتين المدينتين فى العام مرتين، قلت: وعلى أى الأمكنة كان مسلكهم؟ قال: على اليمامة والحساء والبصرة، قلت: ومتى كان عهدكم بعمرانه؟ قال: سنة عشرين وخمسمائة وقال:

لما رأيت سُلُوّى غير متجه وأن غرب شِفارى عاد مفلولا
دخلتُ بالرغم منى تحت طاعتكم ليقضى الله أمرًا كان مفعولا

وقال آخر :

سألت الناس عن خلٍّ وفىٍّ فقالوا: ما إلى هذا سبيلُ
تمسّك إن ظفرتَ بوُدّ حرّ فإن الحرّ فى الدنيا قليلُ

صفة إقليم نجد

نجد أرض عالية ذات آكام لطاف، حرة الأرض صافية، الجو معتدل موافق لمن سكنها ودخلها، وبنى فيها الأوائل أربعين قصراً مجتمعة، والأصح متقاربة، تسمى في العراق قصور نجد، وتسمى عند أهل البلاد السكيت، ويقال: معاصم، بنى بالحجر والجص ذات آكام ومكنة للربيع بن زهير وعمرو بن معديكرب وعنتر بن عمرو بن شداد.

قال الراوى: كنت أدور مع البدوان في فلاة نجد فنجدُ بين شجر الأراك آباراً طويت بالحجر والجص، وقد أُدخل في جملة البناء أخشاب الساج، وكنا نجد الكرم حاملاً بالعنب ألواناً مختلفة ونخلاً حاملاً بالخلال وشجر التين والخوخ والإجاص ومن جميع الفواكة.

ولا شك أن هذا الإقليم كان عامراً وفيه بساتين عمرت على تلك الآبار، وجميع ذلك موجود في أرض نجد على ما ذكرنا، ما دنا منها وما قرب، والله عز وجل أحكم.

صفة ماء الهباءة

والأصل فيه على ما ذكره الراوى أن الهباءة هو غدير طويل عريض عميق ليس فيه قرار لأحد من شدة جريان السيل ينزل من جبال عظيمة عالية شامخة، وفيه يقول القائل:

يا جبال الشأم يا شمخ الذرى ... أقواطي بلاك الله بالمحل

ويجري منه إلى وادي إلى الأرض، فمن حدة جريانه مع طول المدى حفر الأرض إلى البيوت وكثرت عليه السيول وأملئ ماءً فرجع بحيرة ما ينقص منه الماء، ولو غرف منه أهل البادية وسقى واستقى منه الأموال والنعم لما نقص منه الماء ولا بان منه مقدار إصبع، وفيه قتل قيس بن زهير بن جذيمة بن أبي سفيان أولاد عمه لأنه وصل إليهم فوجدهم يسبحون فركّب السيف عليهم وقال: إن ماء الهباءة أورثني الذل ورحتُ ظالماً أو مظلوماً، وقال :

شفيتُ النفس من حَمَل بن بدرٍ ... وسيفي من حذيفةَ قد شفاني
فإن أكُ قد شفيتُ بهم غليلي ... فلم أقطع بهم إلا بناني

وبها قتل عنتر بن زبيبة أربعين فارساً من وجوه العرب.

وهذا الماء مجتمع القبائل والفتن، وبهذه الأماكن مسكن عنتر بن زبيبة وقيس ابن زهير وعمرو بن معديكرب وغيرهم من كبار العرب ومشائخها ورؤسائها.

قال الراوي: ونجد في فلاة نجد، حيث لا عمارة ولا سكن، قبوراً بنيت بالآجر والجص ألوف مؤلفة لم يعلم أهل زماننا لمن تلك القبور، وعن محمد بن أبي حامد قال: حدثني أبو بكر الشاعر أنه قرأ على قبر:

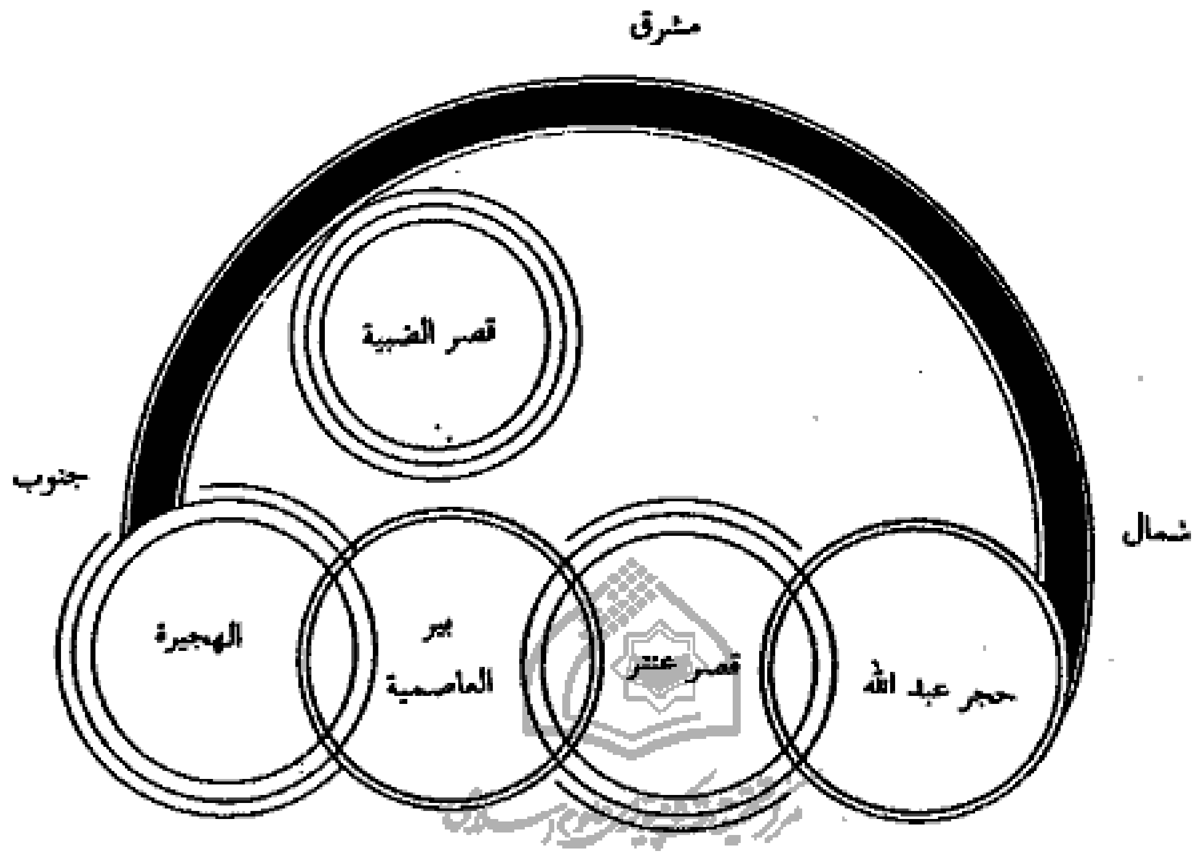
الموت أخرجني من دار مملكتي ... فالترب مضطجعي من بعد تترفي
لله عبدٌ رأى قبري فأحزنه ... وهاب من دهره ريب التصاريف
هذا مصير ذوي الدنيا وإن جمعوا ... فيها وغرّهم ريب التساويف
أستغفر الله من عمدي ومن خطئي ... وأسأل الله عفواً يوم توقيفي

ومن جملة القصور حجر عبد الله، قصر بُنى على أكمة عالية بالحجر والجص وبالآجر والجص وبعده بالآجر والجص، وبعده قصر عنتر بُنى بالحجر والجص والآجر والجص بناء وثيقاً محكماً، وبعده بئر العاصمية.

صفة بئر العاصمية

بُنيت على أربعة وعشرين عموداً، ستة أعمدة مقابل ستة، وهى مربعة وطوى ما بعده الحجر الرخام طول كل حجر منه عشرون ذراعًا بالجص مدرّج يُنزل إليه بدرج، ومن يوم بُنيت إلى هذه الغاية ما نزفت ولا وُجد لها قرار، وهو بناء عجيب لب أعمال سلات، وبعده مدينة الهجرة خرب البلد وبقى فى أوسطه القصر عامراً ساكناً بأهله، وقد حُفر فى أوسطه بئر يروى منه العرب إبلها وظعنها.

ومشرق العاصمية قصر الصبية، والنخل مستدار حول القصور ليسكن بل ويدخر متاعهم من السمن والأقط كل ما يصل إليهم سيله، وهو على هذا الوضع، والله أعلم.



ذكــر اوديــة نجــد

الحساء واليمامة وتحت منه الأكيك وذات الحرمل، وهذه الأماكن أودية مشرفة، والعواهل والعويهل سمن وسهل وجاش وعشرون الرمل ما بين نجران والهجيرة ووضع ما بين الهجيرة ومكة، فإذا كان فصل الغيث سالت الأودية والسيل، فإن كان أيام الجَحْر حفر الإنسان بيده نبع عليه الماء شرب وأروى ظمئه وكلٌ يطلب أرضه وفلاته بروايا المحلة، وفيه يقول:

لولا شـفـاها ذا طراز زمـانهـا وحمل الروايا كان من جاء يفرس

وقال آخـر:

لولا المشـقـة ساد الناس كلهم الجـود يُفـقـر والإقـدام قـتّـالُ

وهذه العشرة الأودية إذا مُطرت جرت فى فلاة نجد ويصل أواخرهم إلى البحر المالح.

ذكـر الكـرم

قال حكيم: الكَـرَم هو عشرون دينار، قيراط منه للعرب وأربعة قراريط منه فى سائر الأمم والعالم، والبُخل هو دينار وعشرون قيراطا منه في الروم، ويقال: في الهنود، والأصح في المغاربة، وأربعة قراريط منه في سائر العالم، ويقال: أول من أطعم الكسرة إبراهيم الخليل، عليه السلام، فهى سنته، ويقال: ثلاثة هم أصحاب الأعراف: أبو طالب لتربيته النبى ﷺ وأنوشروان لعدله، وحاتم لكرمه.. ويقال: إن بعض العرب شرع فى طعم الكسرة وأراد أن يعادل حاتمًا فى زمانه فجاء إليه ضعيف يطلب منه فأعطاه ما سأل فرجع السائل إليه ثانية وثالثة ورابعة وخامسة، فقال المدعي: يا أخي، كف فما أنت إلا قليل الوفاء كثير الجفاء، هذه لك خامس مرة أو سادس مرة، فقال السائل: إن كان حاتم بنى قصراً وفتح به أربعمائة طاقة، والله إنى كنت أدخل فى كل يوم من كل طاقة أربعمائة مرة بلا عاقة وكنت أكون فى الأول شبه الساقة، كما قال:

أجادَ جميلٌ مرة بعد مرة　　　وما الجُودُ إلا عادةٌ لجميلِ

فلما سمع المدعي كلام السائل قال بترك ما كان قد أسس من بنائه المجصص، وكان حاتم طيئ إذا قدّم الزاد قدام الضيوف وفضل منه شيء لم يرده إلى منزله، بل يخليه على حاله، كما قال:

رحلنا وخلفنا على الأرض زادنا　　　وللطير من زاد الكرام نصيبُ

وأما عرب الفلاة فلا يتغدى أحدهم إلا قرب الظهر ولا يتعشى إلا قرب نصف الليل وما يؤخرون الغداء والعشاء إلا لأجل الضيف الذى يقدم عليهم، فإذا وصلت قافلة إلى حلة عرب يخرج أهل الحلة إلى القافلة يمسك كل واحد منهم ثلاثة أربعة أنفس من أهل القافلة، وكذلك من يكون فى البيت من النساء والعجائز والأطفال، وكل من يكون قليل النهضة ينادى بأعلى صوته: إليّ يا وجوه العرب بارك الله فيكم، ويشير بيده إلى الإنسان، فإذا حضر عندهم رجل عزيز القدر يُنحر عليه رأس إبل، وإن كان عابر سبيل يذبح عليه شاة، وإن كانوا جماعة والضيافة لرجل واحد من بين القوم يقدم صاحب الدار قدامه الزور والألية، يعلم من حضر أن الدعوة لذلك الرجل الواحد والباقون طفيلية، والمستورون يأخذ صاحب الدار رغيف يكسره ثلاث أربع كسر يرميه قدام إنسان، تكون الدعوة لذلك الشخص، ويسلق اللحم بالماء والملح ويثرد الخبز ويقلب عليه السمن الكثير فيُشرب اللحم بالمرقة ويفرّق جميع اللحم على الثريد، وهذا طبيخ العرب خاصة يسمونها الهريسة.

فصل: نزل جماعة شعراء على رجل من الأعراب فى برية قفر فقام الأعرابى يجزر على القوم بعيراً كان عنده فأضافهم تلك الليلة، فلما انبسط القوم فى الحديث

قال الشعراء للأعرابي: من أى البلاد أنت؟ وكم أنت في رجل؟ وكم معك من المال؟ فقال لهم الأعرابي: أنا رجل غريب نازل هذه الأرض، وما لى من العشيرة إلا امرأة عجوز، وما لى من المال سوى الجمل الذى نحرته عليكم، كما قال:

الجود طبعي ولكن ليس لي مال ... وكيف يصنع مَنْ بالقوت يحتالُ
فهناك خطى إلى أيام مَيْسرتي ... دينًا عليّ ولي في الغيب آمالُ

حكايـــة

عن أبي عمرو الدمشقي قال: خرجنا مع أبي عبد الله بن الجلال إلى مكة لم نجد ما نأكل فرفعنا إلى حى في البرية وإذا في الحي أعرابية عندها شاة فقلنا لها: بكم هذه الشاة؟ قالت: بخمسين درهمًا، قلنا لها: أحسني قالت: خمسة دراهم، قلنا لها: تنهرين تنهرين، قالت: لا والله، ولكن سألتموني الإحسان، ولو أمكنني لما أخذت شيئًا، قال أبو عبد الله بن الجلال: أيش معكم؟ قالوا: ستمائة درهم، قال: أعطوها واتركوا الشاة لها! فما سافرنا سفرة أطيب منها، والله أعلم.

ذكر ذمام العرب

إذا أمسك عربي لصًا أو ربيطا أو من يكون له عليه دم فإن أكل الربيط في بيت صاحبه تمرًا أو لحمًا قتله بعد يومين وليلتين، وقيل: بعد ثلاثة أيام، ويقال: بعد سبعة أيام، وإن أكل خبزًا قتله بعد يومين وليلتين، ويقال: بعد سبعة أيام، وإن شرب

ماء في بيته فبعد يوم واحد، ويقال: بعد ساعة واحدة، وإن شرب حليباً حرم عليه دمه بعد ثلاثة أيام بلياليها، ويقال: إن السلام يكون في ذمامه إلى أن يغيب كلٌ عن صاحبه، فإن سلّم عليه صاحبه بطل حقه وأمن من جميع ما يكره، قيل: ولم ذا؟ قال: لأن اللحم يبقى بمعدة الإنسان يومين وليلتين، ويبقى الخبز يومين، وليلة، ويبقى الماء يوماً واحداً، والسلام ما يغيب عن النظر، فما تقتضي المروّة أن تقتل إنساناً وخبزك في أمعائه.

فصل : هجا دعبل بن على الخزاعى المطلب بن عبيد الله الخزاعى، فلقيه المطلب في طريق فقال له: سر معي إلى منزلي، فذهب به، فلما دخل قال: والله لأقتلنك شر قتلة، فقال له دعبل: لا تقتلني وأنا جائع، أشبعني وافعل ما شئت ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾[1] قال له: ما أحسن ما طلبت النجاة! إن أطعمتُك وجبت الحرمة والأمان، وإن لم أطعمك بخلت أى بخل، فقال دعبل: والله لا ذكرتك بعدها بسوء أبداً، فأطلقه وأحسن جائزته.

وإذا عض الذى عليه الدم ذيل امرأة أو طفل يحرم ذنب المذنب على صاحبه، فإن هرب الذى عليه الدم إلى بيت إنسان استجار به، فإن عفى عنه صاحب البيت الذى جرى بينهم....[2] وحكى أن قوماً استجاروا بحُجر بن مهلهل فأجارهم من الهواء وبنى لهم سوراً من الحجر والجص ونصب على السور سرادقات من الأدم ولم يخلّ الهواء يهب عليهم.

(١) الآية: ١٠٢ من سورة الصافات.

(٢) بياض بالأصل.

فصل : نزل سقّاء بئراً بطريق مكة ينزح منه الماء في الدلاء لقلته فرحل الحاج على غفلة وبقي السقاء مكانه ثلاثة أيام بلياليها، فبعد انقضاء هذه الأيام قدم رجل من وجوه العرب فأدلى دلوه فنظر الأعرابي السقاء في قرار البئر فاستقى وسقى حصانه وشرب واستخرج السقاء من البئر وأردفه وراءه وسار به غير بعيد إلى أن وصل خبت قفر ليس به مما خلق الله عز وجل من المخلوقات سوى فرد حي، أي بيت شعر له، وفي الحي امرأة واحدة، وهي زوجته، فقامت المرأة وغسلت يد السقاء ورجله بماء حار وأدفأته، ونام السقاء واستراح، فلما استيقظ وجد طبيخاً حارّا فتعشى وشبع ونام صاحب البيت وزوجته إلى الصباح، فخرج صاحب البيت أسرج وألجم وركب حصانه وغدا للصيد، وبقي السقاء عند المرأة تهتم بحاله وتدور في أموره إلى أن تعافى وصح مما به، فلما دار الدم فيه فتح عينيه، وقدم صاحب الحي عند اصفرار الشمس وأحضر بين يديه الذي رزقه الله سبحانه من الصيد طبخًا أو أكلاً جميعاً، وبقي السقاء على حاله مدة ثلاثة أيام على الرسم والعادة، وفي الرابع شبع وتعافى واستراح، فمد عينيه إلى المرأة فوجدها صورة عجيبة فطالت يده مع قصر رجله في مثال ذلك المكان وراودها عن نفسها مراراً فنهته فلم ينته، فقام معها بالكلية وقامت معه بالمُنية، فلما أبصرت العفيفة عين الحقيقة قامت إليه فمسكته وأدارت كتافه وشدته في جوار كلب كان عندها.

ففيهن من تسوى ثمانين بكرةً	وفيهن من تسوى عقال بعيرِ
وفيهن من لا بيّض الله وجهها	إذا قعدت بين النساء بزيرِ

فلما رجع زوجها نظر الحال غير الحال فقام إليه وحله وقدم إليه ما حضر، وبقي يراودها عن نفسها ثلاثة أيام متواليات وتفعل به الدست.

قال ابن المجاور: ولا شك أن هذه المرأة كان طالعها بالسنبلة، كما ذكره أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب التفهيم فى علم التنجيم: أما الحمل والثور والأسد والسنبلة والجدى والحوت فذوات شبق وحرص على النكاح، وفى الميزان والقوس شيء من ذلك، وأما فى أمور النساء فالثور والأسد والعقرب والدلو فدال على عفتهن وحصانتهن، والحمل والسرطان والميزان دال على فسادهن، والجوزاء والسنبلة والحوت على توسط ذلك فيهن والسنبلة أعف.

فلما عر [كذا] الحد عن الحد قال البدوى للسقاء: إلى أين تريد أوصلك؟ قال: إلى الكوفة، فشد على حصانه ونفسه وركب وأردف السقاء وراءه وسار به يومين وليلة إلى أن أشرف به على نجد الكوفة، فلما نزّل البدوى السقاء عن حصانه ودّع كلٌ صاحبه، فحينئذ قال البدوى: بالله عليك إلا ما كتمت بحالك معى، أعد الله جزاك خيراً، كما قال:

لا تضيع فعل الجميل تضيعه إن اصطنعت لذى خطا وذنوب

والشوك لو تسقيه ماء الورد ما ....[1] ويحمل الخرنوب

وقال آخر:

ليس الكريم الذى إن زل صاحبه بث الذى كان من أسراره علما

إن الكريم الذى تبقي مودته ويحفظ السر إن صافى وإن جرما

وقال آخر:

لا تجلسن مع السفيه فإنه بفساده لصلاح أمرك يذهبُ

(١) بياض بالأصل.

ولقد ظفرتُ ببيت شعر قاله بعض من الأعراب وهو مهذبُ
ما ينفع الجرباء قربُ صحيحةٍ منها ولكن الصحيحةَ تجربُ

ولماذا يقال: جراد نجدى لا يأكل الحشائش ويشم أطيب الأهوية ويشرب أطيب المياه ويتربى فى أطيب الأمكنة ويرجع دواء لكل داء؟ ويقال: إنه يظهر فى نجد من أعمال تسمى الدهناء، والموضع هو مشرق البحر، وقال آخر: بل هو يخرج من البحر بإذن الله عز وجل.

قال ابن المجاور: وهو قريب من المن والسلوى ينزل على شجر الزيتون بجبال الروم وغيرها، والسلوى هو طير يجيء إلى دمياط على وجه الأرض، وقد تقدم ذكره، ولم يُعلم من أين يأتى، وكذلك الجراد يأتى من علم الله عز وجل، فإذا غرس الجراد فى الأرض وأفقس يسمى المرجل، فإذا بث ودب على وجه الأرض يسمى الدباء، فإذا طار يسمى الجراد.

وقال رجل من المفسرين: إنه كُتب على جناحه اسم الله الأعظم فلذلك يقدر على الطيران ويتسلط على أكل الزرع وغيره لأنه جند الله عز وجل سلطه على بلاده وعباده.

فصل: نزل الجراد فى قرب قبيلة زيد ونزل الجراد قريب قبيلة عمرو، فقام أهل قبيلة زيد وقالوا لأهل قبيلة عمرو: ها نحن نصيد جراداً احتمى بكم، فلما سمعت قبيلة عمرو ذلك قالت: لا سمع ولا طاعة، ولا نمكنكم من صيد جوارنا، فقام القتال بين الفريقين، وما زالوا على قتال إلى أن قتل جميع هاتين القبيلتين، وأنشد بعض أهل قبيلة عمرو يقول:

ومنا من أجـــار جـــراد نجـــد وحـــرّمـــه على المـتـصـيّـدينا

فصل : مرض زيد مرضاً شديداً إلى أن تعيّت الأطباء من علاجه لقلة ملاقاة أدويته، فلما أشرف على الهلاك قال الطبيب لقرابته: أطعموه ما اشتهى وأراد فإنه من الهالكين! وصار المريض يأكل ما اشتهى، فاشتهى فى بعض الأيام الجراد فأكل وأمعن فى الأكل منه، فلما أكثر منه تعافى من مرضه، وشاهده الطبيب فقال: بالله عليك أخبرنى بما تناولت من المعاجين أو ما شربت من الأشربة وما غذاؤك من المآكل؟ فقال: الجراد، فقال الطبيب: صدقت، لأن الجراد يكون قد قعد على حشائش يأكل منها، ولم تصل منفعتها إلى فهم مخلوق إلى الآن، ووافق خاصية تلك الحشائش لدائك فبرئت، وكان الجراد واسطة لعافيتك، والله إنى نظرت فى جميع كتب الطب على أن أعرف لدائك دواءً فما صح لى من ذلك فقلت بترك الحمية لك، والله أعلم.

ذكر زواج أهل نجد

حدثنى سليمان بن منصور قال: إن جميع أعمال الجبال وجميع أهل البوادى والبدو وتهامة ونجد يزوجون بناتهم ولم يورثوا البنت شيئاً، بل إذا كانت البنت بكراً تجهز وتزوج من مال أبيها، وإن كانت البنت ذات عيال فقد استراحت عواذلى من عتابى، وكل امرأة يقل أهلها وعشيرتها يقل خطابها، فإذا عجزت عن مقاساة نعمها وأموالها ومواليها تركب هودجاً عالياً وتساق نعمها إلى سوق فى وعدة ويقوم لها مناد ينادى عليها: ألا من يطلب عروساً ودوداً؟ فإن كانت راجعاً ينادى عليها: ألا ومن

يطلب نحيحًا ودوبًا، والنحيح هي المرأة الثيب والدوب مالها ونعمها من...[1] وأمانات، فكل من رغب فيها وفي مالها تزوج بها، فإذا أبوها أو أخوها أو ابن عمها أو بعض قرابتها يقول للرجل : تزوج بها يا وجه العرب، وإذا قل رغبتك فيها فأنت وكيلها في زواجها، زوّجها من شئت!!

وأنشد بعضهم:

عليك بصعبات القياد ولا تقع
برجلك في مدءوسة قد أذلتِ
إن أكرمتها قالت: قَدْ اكرمتُ قبل ذا
وان هنتها قالت : بل النعل زلتِ

وقال آخر:

يا مبشري يايا[2] ويا زوج راجع
أبشرتك الخسران من يوم راجع

وإذا دخلت المرأة على بعلها تجيء كل امرأتين من جيرانها يهنئانها بإتمام سرورها وتأتي معها بجراب ملآن دقيق سميد أو سويق أو زبيب، وحينئذ يحصل للمرأة نحو مائة ظرف ملآن تنفقها مدة أيام وأشهر، وإذا كان لإحدى النسوة اللاتي حضرن العرس عرس ردت لهم المرأة الجراب ملآن مثل ما كان، وهذه عوائدهم.

وتغزل نساء هذه الديار القطن كما يغزل الوبر بالقانون غليظ مرة، وينسج منه

(١) بياض بالأصل.

(٢) الكلمة غير منقوطة في الأصل.

شبه السياسات شبة الأكسية الصوف يسمونها ثياب الهجيرة لبس العبيد والإماء والضعيف، ويقال: إنما يوجد في هذه البلد ستون حائكا ودحاح، وليس يعرف القوم أيمانًا إلا أن زيد يخط خطا دائرًا على وجه الأرض، ويقول لعمرو المنكر عليه: ادخله! فإذا دخله يقول له: ارفع رأسك إلى الله، فإذا رفع رأسه نحو السماء قال زيد: كفيت بالله ربًا، اقصد يا إنسان طريقك بارك الله فيك، وهذه أيمان القوم.

وتنقسم أموال هذه البلاد على فرقتين: الضأن وبعض الإبل والخيل، فأما الإبل والضأن فيستقنونهم قوم يقال لهم الشاورية، وبعض الإبل والخيل يستقنونهم الدواشر، ولم يعرفوا غير هذا المال شيئًا آخر، يعني مثل المعز والبقر والثيرة والحمير والبغال، والآن ينزل البدوان حول القصور بالبيوت الشعر والخيل والإبل والغنم وهم أهل جود وعطا وكرم، مأكولهم لحم الإبل ومشروبهم الحليب وركوبهم الخيل وبيعهم وشراؤهم الخيل والإبل ولبسهم الخام، وهم أهل قوة وفصاحة، ويدورون الفلاة وراء الأموال والنعم، لا يؤدون قطعة ولا يعرفون خراجًا.

قال ابن المجاور: وكل بدوي لا يأوي تحت سقف ولا يؤدي قطعة فهو من أولاد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليه السلام، ليس فيه خلاف ولا شك، والله أعلم.

وأما نجد وحدودها فما كان من حد اليمامة إلى قرب المدينة راجعًا على بادية البصرة حتى يمتد على البحرين إلى البحر فهو حد نجد.

ومن صعدة إلى صنعاء راجعا على طريق الجديد

قال ابن المجاور: حدثني الحسن بن علي بن محمد التولي الصعدي قال: لما فتح الله عز وجل بالإسلام سلكوا هذه الطريق، من صعدة إلى الخيام ثلاث فراسخ وتسمى الدروب، وإلى العين فرسخ، وإلى العمشية أربع فراسخ، وفي هذه الحدود مدينة تسمى خيوان ويقال وادي خيران، وهي مدينة وضعت في لحف جبل، ومن علمها أنه كان بها ستمائة شارع، وكان يخرج من كل شارع ستمائة فارس، وكان قد بني لهذه المدينة سد شبه المأزمين بمأرب، وقد تقدم ذكره، فلما خرب السد خربت المدينة، والآن هي ملك أحمد ومحمد ابني عبد الله بن حمزة واشتروا أراضيها بذهب كثير، وهي ذات زرع وضرع.

ويقال: إن من طية أهلها كانت تسمى خيران في أيام الجاهلية.

وإلى حُوث خمس فراسخ، وإلى جحضم أربع فراسخ، وإلى صنعاء فرسخان.

ذكـــر الــرؤيا

قال ابن المجاور: رأيت في المنام كأني في مدينة عامرة، وكان عمارتها بالحجر المنقوش، طول كل حجر منها مقدار خمسة أذرع ولكل حجر لون، وهي ذات جامع ومساجد وخانقات وربط ومدارس وأسواق ودكاكين وحوانيت، نزهة بين جبلين عاليين، كثيرة المياه والأنهار والأشجار والبساتين، وكان قد طبق إحدى

جبلي الوادي الآخر القائم على حرفه، وقد كحل السوق بالجص من لحفة إلى ذروته، فلو سار على وجه أي سد الجبل نملة لناظره من على بعد المسافة، وكأني قلت لأحدهم: ما تسمى هذه البلد؟ قال: حجب، قلت: وما المعنى في هذا الاسم؟ قال: إنها احتجبت عن الناظرين، قلت: فمن أي الأعمال تُحسب؟ قال: من أعمال صنعاء اليمن، وذلك ليلة الجمعة سادس رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة.

من تعز إلى زبيد راجعا

من تعز إلى عدينة ربع فرسخ، قرية في لحف الحصن، وفيها قال الشاعر:

قد كنت إن لألأ برق من عدينة ناديتُ: ما بال أحباب لنا بعدوا؟

وإلى الدمينة ربع فرسخ وبها يعمل الخزف، وإلى وادي حذرا ربع فرسخ، وإلى بئر ماهوت ربع فرسخ، ويسمى الأجناش، وبنى بها نور الدين عمر بن على بن رسول مسجداً على ثلاث قباب سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وإلى بئر الصدع فرسخ، وإلى وادي النخل فرسخ، وإلى وادي الحناء فرسخ، وجميع غرسه وزرعه الحناء، وهو كثير القردة، وإلى السالبين فرسخ، وإلى عقدة مجعر فرسخ، وإلى الكدحة فرسخ، وإلى حُديلة فرسخ، وتسمى سراديب النيل، وإلى الدريعاء نصف فرسخ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

صفة طير الدلنقوق

طير أبلق يشبه الأفر غير أن الذى فى أرض العراق بمنقار طويل يأوى هذه الجبال، وصفته إذا غرد رقص.

حدثنى الجمال قال: ما يُكثر تغريده وترقيصه إلا فى فصل الغيوث والمطارات والشتاء، وهذا أعجب شيء رآه المصنف.

وفى اليمن أيضاً طير يسمى جولب أكبر من القسم وأجنحته حمر وله منقاران يقول أحدهم فى تغريده: سيدى أجب ستى! ويقول الآخر فى تغريده: دقوا قفا السودان.

ويوجد فى هذه الجبال طير يهدر شبه هدير الجمل الهائج، ويأتى إلى زبيد عند طلوع كل شمس طيور تشبه الطيطوية وذلك فى فصل الشتاء تسمى الحوّامات حمل فى جمل، تدور حول البلد أربع دورات وترجع لم يعلم أحد من أين يأتون ولا اين يمسون ولا أين يكورون، وهم من جملة العجائب.

ويطلع فى هذه الجبال ريحان برى يسمى فى أرض تهامة حبق، ويسمونه فى زبيد النحالة الدرافساير، وكان هذا الموضع رأس حد أعمال الحبشة لما كانوا ولاة زبيد.

وإلى الساسة فرسخ، وإلى المخيشيب فرسخ، آخر أعمال الجبال، وإلى الفوترين[1] فرسخ، وإلى حصب الدين نصف فرسخ، وكانا قريتين عظيمتين

(١) الكلمة غير منقوطة فى الأصل.

عامرتين، ومن جملة عظمهما أنه كان يركب منهما أربعمائة فارس، فسلط الله عليهم دابة يسمونها أهل اليمن: الحرباء، لدغتهم فمات الجميع، ويسميه أهل خراسان آفتاب پرست، ويسمى في زاولستان سكند، كما قال ابن المجاور فيه:

چه كـــردى ايا روزكـــار نزند كه پيوسته كردى برنك شلند
كهى زرد روى وكهى سبز كشت كـهى دست يار وكـهى باى بند

ويسميها أهل نهاوند ركثرله، ويسميه أهل الحجاز أم حُبين لأنه يكون لأحدهم لسان طوله أكثر من مائة ذراع، ويسميه أهل أبين الفخاخ، وتسميه العرب العرباء: الحرباء، كما قال كعب بن زهير:

ويومًا يظل به الحرباء مصطخمًا كـأن ضـاحيـه بالنار مـملولُ

وإلى السلامة نصف فرسخ، فإذا كان في هذه البلاد خوف غزوهم أهل شمير لأن القرية في لحفه.

وإلى حيس نصف فرسخ، بناها الأمير جياش بن نجاح، وهو جد ملوك زبيد الذين تولوا ملك زبيد والتهائم، فلما تولى الملك بني حيس وأنفذ إلى أهله وقرابته: انتقلوا من أعمال الحبشة واسكنوا حيس، ويقال: إنه ليس فيها بيت من العرب بل كان من بها من نسل السودان، وبها يضرب أهل اليمن المثل، يقول زيد لعمرو: والله ما تضير إلا تيس فيقول له عمرو: ولِمَ؟ فيقول: كما أُعطى حب وأُخذ حيس.

وكان الموجب على ما ذكره يحيى بن علي بن عبد الرحمن الزراد أن عصاه في حب حصن حب، فحينئذ أعطى سيف الدين سنقر له حيس وأخذ منه حبا فبقي مثلا بين عوام زبيد، وكذلك أعطى بعض ملوك الموصل قلعة وأخذ سنجار.

وإلى الدوامل فرسخ وإلى السرداب فرسخ، وإلى القُرْتُب نصف فرسخ، وإلى زبيد نصف فرسخ.

من زبيد إلى حجة

من زبيد إلى القحمة ثلاث فراسخ، وإلى الكدراء فرسخان، وإلى طرف العنمية ثلاث فراسخ، وإلى العمد ثلاثة فراسخ على لسان وادى لعسان، وإلى أسحر ثلاثة فراسخ، وإلى حراز المستحرز ثلاثة فراسخ.

بناء حصن مسار

ولما كان في سنة تسع وعشرين وأربعمائة بنى الصليحي في رأس مسار وهو أعلى ذروة في جبال حراز، وكان معه سبعون قد بايعهم بمكة في الموسم سنة ست وعشرين وأربعمائة على الموت والقيام بالدعوة، وما منهم إلا من هو مع قومه وعشائره في منعة وعدد كثير، ولم يكن برأس الجبل بناء بل كان قلة قاسية منيعة، فلما ملكها لم ينتصف النهار الذى تملكها في ليلته إلا وقد أحاط به عشرون ألف ضارب سيف فحاصروه وشتموه وقالوا له: إما نزلت وإما قاتلناك أنت ومن معك بالجوع، فقال لهم: ما فعلت ذلك إلا خوفًا عليكم أن يُملك هذا الجبل علينا وعليكم، فإن تركتمونى أحرسه لكم وإلا نزلت إليكم، فانصرفوا عنه، ولم تمض له ستة أشهر حتى بناه وحصنه وأتقنه.

وبقي الصليحي في مسار وأمره يستعلي من سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وكان يخاف نجاحًا، صاحب تهامة، ويلاطفه ويستكين لأمره، ولم يزل الصليحي يعمل على نجاح حتى قتله بالسم مع جارية جميلة أهداها إليه، وكانت وفاة نجاح بالكدراء في عام اثنين وخمسين وأربعمائة.

وفي عام ثلاث وخمسين كتب الصليحي إلى الإمام المستنصر بالله يشاوره في إظهار الدعوة فعاد الجواب إليه بالإذن، ففي ذلك طوى البلاد طيًا وفتح الحصون والتهائم، ولم تخرج سنة خمس وخمسين ولم يبق عليه من اليمن سهلا ولا عرًا ولا برًا ولا بحرًا إلا فتحه، وذلك أمر لم يعهد مثله في الجاهلية والإسلام.

قال: وبيان من زبيد حصن مسار يمين القبلة ويسار المشرق، على أعلى ذروة الجبل، شبه أكمة عالية مشرفة على التهائم.

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة ملكه الشريف عماد الدين يحيى بن حمزة، وهو الآن في قبضته وتصرفه.

وإلى الجبلين ثلاث فراسخ، وإلى سوق القباب ثلاث فراسخ، في أوسط وادي سارع.

حدثني سليمان بن منصور قال: إن أهلها كتبوا على باب مسجدهم: من أمسى في مسجدنا هذا فلا يراعى منا عشاء.

فصل: حدث يوسف بن يحيى عن أبيه عن غسان عن أبي عبيدة بن جهيم ابن خلف قال: أتينا اليمامة ونزلنا على مروان بن أبي حفصة فأطعمنا تمرًا وأرسل

غلامه بفلس وسكرجة يشترى له زيتًا، فلما جاءه بالزيت قال: خنتني من فلس واحد، قال: كيف أخونك؟ قال: أخذت الفلس لنفسك واستوهبتَ زيتًا، فأنت أبخل الناس، وقال فيه:

وليس لمروان على العرش غيرة   ولكن مروانًا يغار على الفلس

وإلى طرف نظار ثلاثة فراسخ، وإلى ربض أربع فراسخ، وإلى لاعة أربع فراسخ، وإلى المخلافة فرسخان، وإلى حجة أربع فراسخ.

حدثني يحيى بن على بن عبد الرحمن الزراد قال: إن في الجبال جبال لا يزال البرق يضرب أطرافها إلى أن رجع ضرس قائم بُني على حصن مانع مثل الدملوة وحب والتعكر وبكور، وما يضرب البرق على حصن عامر إلا هدمه وأخرب حصنه ودحضه إلى أن خلاه مع الأرض مستويًا، فإذا جاز على جبل من هذه الجبال قوم من أعراب الأعمال يقول زيد لعمرو: هذا حصن نصر بن جعفر وهذا منزل خالد ابن الوليد، خرب من كذا وكذا سنة، ولم يكسر جبال اليمن ويدحضها إلا دوام البرق، وهذا أعجب شيء يكون.

من زبيد إلى غلافقة

من زبيد إلى القرشية فرسخ، ومنها ظهر أبو موسى الأشعرى، رضى الله عنه، وهو من جلة الصحابة، وأحد الحكمين الذين حكّمهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنهما.

فصل: أهل الزربية والعنبرة والهرمة والقرشية، لم تظهر بهذه القرى بنت إلا إذا عُقد نكاحها وقُطع مهرها وسُلم دفعها، وبعد ذلك تظهر البنت بطبل وزمر على رءوس الأشهاد بالمهامين والضيافات والطرح والتسليم، فسأل عن فعلهم، قالوا: نخاف نُظهر طفلة فإذا كبرت رأت نبتها وخدها وقدمها ونهدها مع أعكانها مليحًا يعجبها حسنها فتحتاج إلى أن تخرج عن الطريق إلى غير الطريق، بل نخليها على حالها، فإذا رأت قلفتها طويلة وهي مع وسخها رهكة كريهة الرائحة وحشة المنظر تخمد نارها ويقل طلابها لأجل ما معها من طول الغفلة، فإذا مهرها طهرت فأُدخلت على بعلها هين لين.

ويقال: إن جميع بلاد الشامية عند زبيد على هذا السنن والفرض بطول وبعرض.

وإلى خبت نفحان فرسخان، من حدود المحالب، وليس في تلك الأراضي أكثر توهجًا منه، وإلى غلافقة فرسخان.

بناء غلافقة

كان ما بين غلافقة والمكينة بلد تسمى الزبر، وما اشتق اسم الزبر إلا من الزبور، أي زبور داود، عليه السلام، ويقال: من زبرة الحديد، طمها السافي فرجعت تلول رمل.

قال ابن المجاور: ووجدت في المكان قبرًا على ساحل البحر وقد جُعل الرمل حجرًا وقد غاص عظام الميت في الحجر الأصم، والله عز وجل أعلم.

فصل: إذا دار على التراب ألف عام رجع التراب رملاً، فإذا دار على الرمل ألف عام رجع الرمل حجرا وإذا دار على الحجر الف عام رجع الحجر تراباً، فعلى هذا الوجه لا شك أن للقبر ثلاثة آلاف عام، لأنه تقلّب ثلاث قلبات: قلب بالتراب وقلب بالرمل وقلب بالحجر، فلما خربت الزبر بنت امرأة تسمى بنت إسرائيل ولا شك أنها بنت يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام، غلافقة فخربت لمرور الزمان عليها ودَور الأفلاك عليها فبقيت رسوم وأطلال إلى أن جدد العمارة أخوان من الفُرس، والأصح من سيراف، يقال لهم: أولاد ابن القشيرى، ويقال: إن القوم من الذين خرجوا من جدة، لأنه كان قد جرى بينهم وبين الأمير القشيرى شكر بن أبى الفتوح سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وقد تقدم ذكره بأعمال جدة على التمام والكمال، فلما توطن القوم بها بنوا منارة حسنة، فلما طال الدهر تشعث ونقل أساطينه الساج إلى مسجد الأشاعر بزبيد بنى به، ويقال: إن هذا الجامع بناء القائد حسين بن سلامة، وبنوا الدور الملاح والمساجد الساح من حجر الكاشور، وهو حجر يستخرج من قعر البحر.

فصل: حدثنى يوسف بن أحمد بن يعيش قال: لما صام أهل غلافقة شهر رمضان قال زيد الكبير، من أولاد القشيرى: شاهد الله على أحد من الرعية باع أو يبيع على أخى عمرو حطباً، وأنفذ إلى أشياع أخيه عمرو وإلى أتباعه وقال لهم: والله ما يأتى أحد منكم بحطب إلى بيت عمرو إلا أفعل به كيت وكيت، وحرم أن يدخل بالحطب إلى بيت عمرو، فلما كان ليلة العيد أمر عمرو أهله أن يطبخوا ويشووا، قالوا: بماذا نطبخ وأخوك زيد قد حرم علينا دخول الحطب؟ فأخرج خيوشاً

بللها بالسمن وأشعلها تحت القدور، فلما كان يوم العيد وصلت الناس صلاة العيد قام عمرو وسبق أخاه زيداً وقال: باسم الله يا أصحابى إلى دارى بارك الله فيكم، فدخلت الناس داره إلى أطعمة وأشربة وأشوية خلاف العادة، فقام زيد وقال لعمرو: يا أخى من أين لك الحطب؟ قال عمرو: لما منعت الحطب من قلة خيرك أوقدت الخيوش المنقوعة بالسمن الكثير، فعند ذلك تعب أخوه زيد من علو همته وأكل جميع من فى غلافقة من داره ولم تقبل إلا على طعام عمرو، فتعجب زيد من فعله وعلو همته وقال: يا أبا محمد، قدمك فى الموضع الماحل، أورق العود فى كفك وهو فاضل، والبخل إذا ما سمعك انتزح راحل، وأنت كالبحر، وكفك للعطا ساحل.

وأنشدنى زكرى بن سكيلا بن عبد الله البحترى يمدح جياش بن نجاح:

المشترى حلل الثناء بما حَوَتْ كفّاه والحامى لها أن تُشتَرَى
والمُـوقِـد النارين: ناراً للوغى لا تنطفى أبداً، وناراً للقِـــرى

فصل: سئل إبليس: مَنْ أحب الناس إليك؟ قال: عابد بخيل، قيل: فمن أبغض الناس إليك؟ قال: فاسق سخى، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لأنى أرجو أن لا يقبل الله عبادة البخيل، وأعلم أنه لا يتم له شىء من خير مع البخل، ولا آمَن من أن يطلع الله على العبد الفاسق فيرى بعض سخائه فينجيه ويرحمه به.

فصل: وكان لأبى دلف القاسم بن عيسى العجلى جار وكان لله عليه نعمة فسلبها فآل أمره إلى بيع داره فساوموه فيها، فقال: بألف وخمسمائة دينار! فقيل: يا هذا إنما تُساوى دارك ألف دينار، فقال: وجوارى من أبى دلف بخمسائة دينار!

فبلغ أبا دلف ذلك فأحضره وأمر له بألف دينار فقال: تعذرنا فى ذلك ولا تتحول عن جوارنا، فهو الذى يقول فيه على بن جبلة الضرير فى هذا المعنى:

إنمـــا الدنيـــا أبو دُلَفٍ بين باديه ومحتضره

فـــإذا ولى أبو دُلَفٍ ولّت الدنيا على أثره

وسكنا المكان جميعاً إلى أن انقرضوا، رحمهم الله تعالى، قال:

أف للدنيـــا الدنيـــة خبثت فعلا ونيـــة

والعيـــش كله همٌ وعقباه منيـــة

ذكر بئر الرباحية

حدثنى ريحان مولى على بن مسعود بن على قال: أول من ابتدأ فى حفر البئر رُبّاح، أى قرد، وحفر بيده الأرض إلى أن نبع ماء عذب حول عقل الساب[1] يصح غمقها نحو أربعة أذرع لا غير، فلما رأت الفرس صورته بالحجر والجص، وهو عن البلد نحو شوط خفيف بين نخل باسقات شامخات فبقى مُستقَى أهل غلافقة، ومَن يصل من المراكب الصادرة والواردة على مائها فلم يقل منه شىء، فعرفت البئر بالرباحية، يعنى القرد الذى ابتدأ فى حفره، ويقال: بل كان الرباح اسم الرجل ولم يكن قرداً.

وهذه البلدة فرضة الكارم إذا وصلوا من ديار مصر، ويجلب منها الحشيش

(١) هذه الكلمة غير منقوطة فى الأصل.

الأخضر للخضر والزنابيل والسمك العربي وغيره وضيراك ورعيد والمراوح والفار والقرش والبياض والعربي والمخنف والفرا والسفية والطويلة، ويكون لها فرج على هيئة فروج النساء، ولم تُشْتَرَ من الصياد حتى يحلف أنه لم يطأها، ويباع لحمها بالميزان لأجل الدواء، والسفية ذات صدف، والصبايا والمرح، وجميع هذه الأسماك ترفع إلى زبيد ويسمونه الملتح، وضمان سوق السمك بزبيد كل يوم ثلاثة عشر ديناراً ملكية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

جزيرة فرسان

ما بين دهلك وحلى ابن يعقوب، وبها مدينتان عامرتان، إحداهما سور، والثانية جدة، بناء الفرس والأصح بناء مالك بن زهير، أهلها صلاح أتقياء، ويجرى بين الفريقين نهر كبير عريض صاف عذب خفيف صحيح، أوله عين، ويقال: ماء تراب، وقد نبت على شاطئ النهر شجر وخضر وحشائش ألوان مختلفة، ويزرع فيها من جميع الحبوب والخضروات، وعندهم من سائر الدواب الأهلية مثل البقر والمعز والضأن والإبل والدواب، ويوجد عندهم من سائر الأسماك ودواب البحر.

وقد خص الله سبحانه وتعالى أهل هذه الجزيرة: إذا طلعت الشمس مقدار قامة يُدَوِّى الجو، وحينئذ يخرج كل من في القرية إلى ظاهر القرية يصطفون على شاطئ البحر، وينزل على القوم بعد ساعة طير شبه الخُرَّق، ويقال: شبه السمان، مائة ألف طير، فإذا حصل في شاطئ البحر لم يقدر أحدهم على الطيران فيأكل كل كفايته وعلى قدر حاله تذبيحًا وتطبيخًا، ولم يوجد فيه سوى اللحم والشحم شيء آخر،

ويكون عيش القوم طول الدهر منه، ولم يمَلّ أحد من أكله مع مداومته لأنه لحم خفيف طيب مرىء، قلت: وما يسمى؟ قال: السلوى، وهو الذى قال الله عز وجل: ﴿ وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾[1] فقلت للراوى: كم يكون دور الجزيرة؟ قال: مسيرة يوم كامل لرجل طرّاد، حدثنى بدر مولى بشر الصوفى بذلك.

ذكر جزيزة الغنم

وذلك فى بر السودان، ما بين عيذاب إلى بحره جزيرة تسمى جزيرة الغنم، مائة الف رأس غنم بها وأكثر من ذلك وجميعها وحشية، وكان الموجب لذلك ما ذكره ريحان مولى على بن مسعود بن على المجاور قال: إنه قدم مركب من بعض مدن الودان شحنته غنم وكباش أرسوا بهذه الجزيرة فزخر الريح عليهم، فلما طال الشوط فى المقام عليهم أخرجوا الغنم فى الجزيرة لترعى، مع طول المقام فطاب للقوم الريح على غفلة فركبوا الكباش المراكب، ونسوا تسع ثمان رءوس منها فى الجزيرة فلم يمكن القوم أن يدوروا عليهم لضيق أخلاق الربان، فشال القوم شراعهم وساروا بالسلامة، وبقيت الغُنيمات فى الجزيرة فتناكحوا وتناسلوا مع طول الأيام فكثروا واستقطعوا الجزيرة فعُرفت الجزيرة بهم وصاروا الآن إذا أرسى بهم مركب لم يقدروا أن يصطادوا من تلك الأغنام شىء إلا بعد جهد عظيم مع القوس والنشاب، وقد لا يحصل لهم شىء لأنهم قد صاروا وحشيين يسقون الغزال وهم ملء تلك الجزيرة إلى الآن، والله أعلم بالصواب.

---

(١) الآية: ١٦٠ من سورة الأعراف.

ذكـــر جـزيــرة الـنامــوس

وكذلك جزيرة الناموس، حدثني ريحان، مولى علي بن مسعود بن علي، قال: إنما بين جزيرة دهلك وعقيق جزيرة ملؤها ناموس، لم يسلكها ولم يسكنها أحد من خلق الله من كثرة الناموس الذي بها، والله أعلم.

مـن زبيـــد إلـــى الأهـــواب

من زبيد إلى المسلب فرسخ، ويقال: إنما سميت المسلبُ المسلبَ لأن نساءها يسلبون العقول من حسنهم وجمالهم وظرافتهم[1]، كما قال:

سقى الله ربات الحصيب وربعها فما الحسن إلا ما حوته ربوعُها

قال ابن المجاور: والله الرحمن الرحيم ما رأيت في جميع اليمن، سهلها وجبلها، وجهًا حسنًا يعتمد عليه النظر، ولا فيهم ظرافة ولا لطافة ولا ملاحة ولا حلاوة إلا اسم بلا جسم، ما ترى إلا عجائز سوء خبيثات الأبدان قليلات الأدب ذوات آراب وسخين اللسان قذرين الأكل، كما قال الظهيري:

بياده دست ميالاى كان همه خونيست
كه قطره قطره جكيدست از دل انكور
بوقت صبح شود همچو روز معلومت
كه باكه باخته اى عشق ذر شب ديجور

(١) هكذا في الأصول الضمير لجمع الذكور، والصواب أن يكون لجمع الإناث.

فلما أوقف صلاح الدين يوسف بن أيوب فى أعمال مصر ما أوقف، وقد تقدم ذكره فى أعمال جدة، أوقف توران شاه يوسف بن أيوب، والأصح طغتكين بن أيوب المعز، وادى الجُريب، والحرب والمسلب، وبقى يُرفع دخلُها إلى مكة إلى أن خبل وقفها الملك المسعود بن محمد بن أبى بكر سنة خمس عشرة وستمائة وبقى يُرفع دخل هذه القرى إلى الديوان.

وأيضًا كان أوقف طغتكين بن أيوب على المدينة أم الدجاج مع جمل من الأراضى كلها القاضى على بن الحسين بن وهيب، لما تغلب الأمير قاسم بن المهنا بن جمّاز، صاحب المدينة على مكة سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وبقى يُرفع دخلها إلى الديوان، ورد الملك المسعود يوسف لأم الدجاج على الأمير شيحة سنة خمس وعشرين وستمائة، وصار يصل دخلها إلى المدينة كما كانت.

وإلى الأهواب فرسخان بين نخل شامخات.

بناء الأهواب

بنى الأهواب أبو القاسم الرامشت بن شيرويه بن الحسين بن جعفر الفارسى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، مدينة حسنة، لما تقدم من الهند يريد الحج، ذات أسواق وجامع ودكاكين ونقل الأخشاب الساج إليها من الهند، فلما انقضت دولة الحبشة وتولى على بن المهدى خرب جامع الأهواب ونقل أخشابه إلى المشهد الذى بناه فى زبيد سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وهى فرضة المراكب الواصلة من عدن.

وما اشتق بطن الأهواب إلا من الأهوال، لأنه على آخر بطن السحارى، موضع هول لكونه كشفاً.

وقال بعض الزيالع الذين أتوا الأمانات لجبريل بن زيد بن فارس: حط عنى عشور عشر سنين حتى أعمر لك مرسى الأهواب! فقال له: كيف تفعل فيه؟ قال: أشحن مراكب حجراً وتراباً أرميه معارض المرسى بالطول ليرد قوة الموج والماء والريح، فلما هان على جبريل ذلك، وقال: إن أربع مدن فى بر السودان مقابل أربع مدن فى بر العرب: عيذاب مقابل جدة، والأصح أن عيذاب مقابل الجار، وهو مرسى ينبع ودهلك مقابل السرين، وزيلع مقابل العارة وعوان مقابل الأهواب.

من عدن إلى شبام

من عدن إلى الرعارع أربع فراسخ، وعلى رأس البئر غرابان لا يُزالان من مكانهما أبد الدهور، من أعمال لحج، وفيه يقول على بن زياد المازنى:

خلت الرعارع من بنى مسعودِ	فعهودهم فيها كغير عهودِ
حلت بهـا آل الزريع وانمـا	حلت أسودٌ من مكان أُسودِ

وإلى أبين أربع فراسخ، قرّى جماعة بناء أهل الحجاز، ويقال: بناء بنى عامر من أرض الحجاز، سكنوا الديار وبنوا القرى وحرثوا وزرعوا وتأهلوا فيها وبقيت فى أيدى القوم إلى آخر دولة الحبشة.

ومن جملة الأعمال خنفر والطرية وجبنون والمحل والسلامة ومسجد الرباط،

وبهذه النواحي قبر صالح النبي ﷺ ورجل ولي صالح، وجميع نساء أهل هذه الأعمال سحرة.

صفة العفو

إذا أرادت المرأة ان تتعلم السحر التام الذى لا قبله ولا بعده تأخذ ابن آدم تصليه إلى أن يذوب ويصير ودكا ويبرد فإذا برد شربته جميعه، تحبل منه وتضع بعد سبعة أشهر بشراً وحشيًا يشبه القط، سوى في الطول والعرض يسمى العفو، ويقال: إنه يكون عليه آلة في قدر آلة العفو الكبير، فلا تزال الساحرة تدور به وتربيه إلى أن يكبر ويشتد ويقوى، فإذا بلغ الإدراك جامع العفو أمه، فإذا جامعها فلو ركبت المرأة جرة نكست بها الجرة عنها، ولم يشاهد العفو إلا أمه، وهي زوجته، ولم ينظره أحد غيرها.

قال ابن المجاور: وما سمى العفو إلا أنه يحمّلها أيراً، لا تطيقه.

ويقال: لم يتعلم سحراً لم تعلم له، ويقال: بل العفو مثل هذا الشيء، كما قال:

[العفو ان هب معرب وحملا سمال على يدى
وأصبح البرد بالما وصاح انى سلاح][1]

وأصل نساء هذه الأعمال من هذا الفن: تمشى إحداهن إلى المعبر وترجع في ليلة واحدة.

(١) هكذا ورد الشعر بين المعقوفتين في الأصل.

حدثني محمد بن زنكل بن الحسن بن عميد كرمان الكرماني الساكن في مسجد الرباط: وهم الذين يصيرون الإنسان حماراً وثوراً كيفما أرادوا واشتهوا.

وإلى دار زينة تسع فراسخ، جبل مشرف على البحر يسكنه الجحافل، فخذ من فخوذ العرب، وما عُرف الجبل بهذا الاسم إلا أنه إذ وصل إليه المراكب من سائر الأقاليم تزين بها لأنها أقرب المسافة إلى عدن.

سرير ملك هذه الأعمال مدينة تسمى دثينة.

وإلى بيحان سبع فراسخ، وادٍ طويل عريض فيه قرى ونخل، وقد تقدم ذكرهم ونسبهم في معاملة بلقيس في الجزء الأول، وإلى وادي جريب أربع فراسخ، وإلى عازب ستة فراسخ، خربت على ماء واحد.

قال ابن المجاور: وقد خرب الفأر ثلاثة أعمال، من جملتهم قرية محاسن، بناء أبي بكر بن منصور بن العطار الحراني في أعمال صرصر في دولة الإمام أبي محمد الحسن المستضيء بنور الله، أمير المؤمنين، وتسلط الفأر على دبالي، وهو أربعون قرية، والأصح أربعمائة قرية من أعمال بغداد، حفر الفأر أراضيها، وزادت الدجلة ودخل الماء في الأسراب، فلما زاد الماء أخذ القرى والأراضي معه بمرة واحدة، وسد مأرب، قد تقدم ذكره.

وإلى عيبر اثنا عشر فرسخاً، مسكن عيبر بن سام بن نوح، عليه السلام، ويقال: إن السرج كانت تشتعل من سبأ إلى عيبر، قيل: وكانت عامرة آمنة ساكنة، فالآن صارت براريّ وخُبوت ومهالك، وإلى شِبام تسع فراسخ.

بنـــــاء شـــبام

لما تزوج سليمان بن داود، عليهما السلام، بلقيس اشترت اختها نُعْم نوقًا وإبلا وأسكنت المال والنعم فى مكان الأرض، فكانت الإبل إذا رمت الخلة تندت الأراضى من أبوالها، وكانت تأمر الرعاة أن يفرشوا على النداوة التراب ليرد الضرر عن النعم، وما زالوا على حالهم إلى أن صار تلا عاليًا شامخًا فى الهوى فأدارت عليه سورًا وسكنته وركبت على السور ثلاثة أبواب:

باب زبيد، كانت النعم تدخل منه وتخرج منه، والآن عمرها علىّ بن المهدى حصنًا مكينًا سكنها، ويقال: لما بنى على بن المهدى هذا الحصن سماه زبيد، على مدينة الحصيب من اليمن، وباب الإبل الإبل تخرج منه إلى المرعى، وباب مسلة الأعوام الحلق، ويسمى باب ردفين.

فلما أتمت بناءه سمته ذا مناخ وعذبة وشبام، ويقال: إن اسم المرأة شبام فعرف البناء بها والله أعلم.

ذكـــر شـــبام

وكم هى مدينة، إحداها مدينة شبام ضمرمر خراب، وُضعت وبُنيت فى أصل حصن ضمرمر، ولم يبق من جميع الربع سوى الجامع عامرًا، وشبام كوكبان عامر فى الجبال، وشبام حضرموت وهى هذه.

صفة الدور

فلما سكنت نُعْم المدينة بنتْ في أوسطها قصراً يسمى الدوار ذات طول وسعةٍ وارتفاع، قالت الفلاسفة الأول: لا بد أن يتغلب البدو على الثلاثة في آخر العهد بدوار، ولا ينام السيف، ويكون قد يحلو من الفريقين أخذ قصر الدوار عامراً على حاله.

ويقال: إنما بنت نعم لشبام إلا على الظلم لأنها اغتصبت الأراضي من الخلق، فلما تمت بناءها تغلبت عليها عثمن، ويقال: عثمان، أخذها منها، وما زال ملوكها يتغلبون على إلى آخر من تغلب عمرو بن مهدى، أخذها بالسيف وجدد عمارة الحصن وأحكمها غاية الإحكام وجعلها سرير ملكه بعد أن بنى لها أسواراً وخنادق وأبواباً، فلما جاء أمر الله لم ينفع عمله شيئاً، كما أنشد عبد النبى بن على بن مهدى يقول حين تولى أرض الحصيب:

أنخنا بخيل عند باب سهامها ... ولم تألُ أن جالت بباب الشبارقِ

أدرنا على درب الحصيب بخندقٍ ... ولن يدفع أمر الله حفر الخنادقِ

وقيل: وملكت العرب جميع حضرموت سنة إحدى وعشرين وستمائة، وكانت ولايته أربع سنين، وخلّف في جملة ما خلف مائة بهار فضة نقداً غير الآلة والعُدد والخيل والبضائع، ودوّخ ابنه ناصر الدين محمد بن مالك بعض حضرموت سنة أربع وعشرين وستمائة، وهو إلى الآن مالكها، والله أعلم.

صـــفة شـــبام

سرير ملك حضرموت، وهذا الإقليم هو مسكن حضرموت بن قحطان بن عيبر ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، عليه السلام، وبئر برهوت، وهو بئر تستجمع فيه أرواح أهل النار، نعوذ بالله منها ﴿ومن يهد الله فما له مضل﴾[1] و ﴿من يهد الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشداً﴾[2] ولا تزال النار تخرج منه طول الدهر.

وكتب والدى محمد بن مسعود بن على بن أحمد بن المجاور البغدادى النيسابورى لجعفر بن عبد الملك بن عبد الله بن يونس الخزرجى الجرجانى يهدده ويهيّبه فقال: أنا رجل برهوت وأنا سلم جهنم، وليس فى عالم الكون والفساد أخشن ناسًا من أهلها ولا أكثر من شرهم وأقل من خيرهم، كثيرين الذم لبعضهم بعضاً، قليلين الذمة على من يستجير بهم، كثيرين الدم من المقتولين: زيد يشتم عمراً، وعمرو يكلأ زيداً، ونصر يستبيح مال عمرو، وجعفر يلاكم خالداً، ووليد يعربد على جاره، وذا ينبش من هذا، وذاك ينهش من هذا، أدبار مدابير، أنحاس مناحيس مفاليس، كما قال أبو نواس، رحمه الله:

قالوا ذكرت ديار الحى من أسدِ ... لا درّ درّك قل لى مَن بنو أسدِ

ومَن تميم ومَن قيس وأسرتها ... ليس الأعاريبُ عند الله من أحدِ

(١) الآية: ٣٧ من سورة الزمر، وقد وردت فى الأصل: «ومن يهدى الله فلا مضل له».

(٢) الآية: ١٧ من سورة الكهف، وقد وردت مضطربة الألفاظ فى الأصل.

وقال أيضا:

دع الأطلال تسفيها الجَنوبُ	وتُبلى جَدّ عُهدتها الخطوبُ
وخل لراكب الوجناء أرضًا	تجرّبها النجيبةُ والنجيبُ
بلاد نبتها عُشَرٌ وطَلْحٌ	وأكثر صيدها ضبع وذيبُ
فلا تأخذ على الأعراب لهواً	ولا عيشًا فعيشهم جديبُ
دع الألبان يشربها رجال	رقيق العيش بينهم غريبُ
وأطيب منه صافية شمولا	يطوف بكأسها ساق أديبُ

ولهذا سمي إقليم حضرموت الوادى المفتون، وسماه الله عز وجل الأحقاف، كما قال الله عز وجل فى قصة النبى هود عليه السلام: ﴿إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾[١] والأحقاف هذه البلاد والأراضى بعينها، مأكولهم العَيْد، وهو سمك صغار، مع الكسب واللبن يشابه الخردل فى اللون، ولبس رجالهم الأزرق مكشفين الرءوس حفاة، ولبس نسائهم الفتوحي، ويصبغ الثوب بالزاج، ويرجع اللون لا أخضر ولا أزرق، إلا لون عجيب، وتضفر النساء رءوسهن فى أوسط رءوسهن ترجع تشبه الهدهد يسمونه الطرطر (وسحاب وهكاب فدارت الطاعيين الضفائر سارنين عساسل الفدور ذات المكدور)[٢].

وأسامى رجالهم بالكنى، فمنهم أبا[٣] لالكه وأبا هالكة وأبا مداس وأبا فارس وأبا رأس وأبا عرى وأبا حصي وأبا خرى وأبا عوف وأبا بول وأبا فقوق وأبا دقوق وأبا حل وأبا حبل وأبا فيل وأبا سل وأبا ريق وأبا بريق وأبا حيف وأبا دليف وأبا كنيف.

(١) الآية: ٢١ من سورة الأحقاف.
(٢) هكذا ورد ما بين القوسين فى الأصل.
(٣) الصواب «أبو» وهكذا فى باقى الكنى المذكورة.

ومهما جرى على ألسنتهم يكنونه به ولم يأنفوا من تلك الأسامى، وكذلك الدياكلة وأهل الموصل وبعض العرب وأهل نهاوند وبعض اليمن وأهل عسفان.

فصل: قدم في أيام سيف الإسلام طغتكين بن أيوب مراكب الشحر وحضرموت إلى عدن، وصارت مشائخ الفرضة تسأل أحدهم عن اسمه فيقول: أبا[1] حجر أبا خرى أبا كوة أبا فسوة أبا شعرة، فأبى المشائخ أن يكتبوا أسماءهم في الدفاتر وتخلّص كل قماش هو في الفرضة إلا متاع الحضارم، بقي في الفرضة، يداس تحت أرجل الخلق، فلما طال الشوط وأوجع السوط نادى الصوت إلى سيف الإسلام فأحضر المشائخ وسألهم عن تأخير التخلص والتلمص والتجمعص من الحضارم، قال المشائخ: إنا لسنا نوقع أسماء القوم في دفاتر السلطان، قال: ولِمَ؟ قال: لأن أسماءهم دونة، قال سيف الإسلام: إذا كرهتم أن تكتبوا أسماءهم فكيف آخذ منهم العشور؟ فأطلق شأنهم وخلى سبيلهم.

فصل: قيل لرجل من الحاكة: قد رزقت ولداً فاختر له كنية، فقال: كنوه عبد رب السموات السبع ورب العرش العظيم، فقال له الرجل: ابن من؟ قال: ابن عبد الكريم، الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فقال: مرحباً يا نصف القرآن العظيم.

وأعجب من ذلك أن رجلا من العجم مسكنه آذربيجان سمى ابنه: عبدُ مَن الأرض قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه.

حدثنى منصور بن المقرب بن على الدمشقى قال: إن أصل أهلها عبيد

(١) انظر الحاشية السابقة.

وموں، فلذلك فيهم حماقة وكبر خارج، وليس في جميع الربع المسكون أشح منهم نفسًا ولا أقل همة، وقد تفرقوا في سواحل البحر جميعًا وتشتتوا في أقاصي الأرض وأدناها يمينًا ويسارًا، كما قال:

كسى را در غريبى دل شكيباست
كه در خانه نباشد كار او راست

صفة قرن ابن إبراهيم

هو عين تجرى في أعمال دَوعان إذا جاز الوادى رجل من آل حمير جرى العين، ويقال: بل يمطر في اليوم مطره، يروى منه الحميرى لا غير، دون غيره.

حدثني على بن محمد بن أحمد السباعى قال: إنه جِنّيٌ موكّل على هذا الوادى، فإذا جاز عليه رجل من آل حمير أطلق الماء والوادى حتى يروى منه الرجل الحميرى أو جماعة، فإذا مد خولانى يده إلى الماء غار الماء في الرمل، وكذلك لأهل خولان عين ثانية تسمى عمل، لم يشرب منها إلا الرجل الخولانى، ولم يشرب منه حميرى، على ما تقدم نعته وصفته، وهذا أعجب شيء يكون.

قالت حِمْيَرُ: لنا التقدم، قالت خولان: لكم التقدم في أجر الحراثة، ولنا التقدم في لقاء الأعادى.

فصل: حدثني عبد الله بن محمد بن يحيى الحائك قال: ينقسم غزل نساء اليمن على وجهين: منه الفارسى ومنه الحميرى، قلت: وكيف ذلك؟ قال:

الحميرى الذى يخرج الإصبع الوسطى على الإبهام فى الغزل، والفارسى الذى يدخل الإبهام على الإصبع الوسطى من فوق الغزل.

من شبام إلى ظفار

من شبام إلى تريم سبع فراسخ، وفي أوسط ضرس جبل ثابت صاعد في الجو شبه منارة، وقد بنى عليه حصن يسمى المشرق، فأنشأ يقول:

أقبل من أعشقه غدوةً | من جانب المغرب على أشهبِ
فقلت: سبحانك يا ذا العلا | أشرقتِ الشمسُ من المغربِ

فصل: قعد الأمير فهد بن عبد الله بن راشد على منظرة هذا الحصن مشرف فإذا هو يرى رجلين غادين على غير طريق، فأنفذ قومًا وراءهما فأحضروهما بين يديه فإذا هم قوم عرب، فقال لهما: من أين جئتما؟ قالا: من بصرة العراق. قال: وكم لكما عنها؟ قالا: ثلاثة أو سبعة أيام، فقال: قولا لى كيف قصتكم، قالوا: إنا قوم بدو نسكن العراق والبصرة، إذ رأى شيخ خلفنا رجلَين راكبَين هجينَين غاديَن فى الفلاة، فقال لنا الشيخ: اقفوا لنا خبر هذَين الراكبَين، فقمت أنا وصاحبى هذا تبعنا أثرهم إلى أن غلس الليل، فلما أظلم ضاع منا الأثر، فتممنا على حالنا فى الصعود آكام ونزول أودية ورمل وحصى، فلما طال الشوط أردنا الرجوع إلى أهلنا فلم نعلم الطريق، فما زلنا نسير إلى أن أشرفنا على هذه المدينة، وما هذا الإقليم؟ قال: هذه تريم، من أعمال حضر موت، ارحبوا بارك الله فيكم، فالبلد مستدار حول الحصن.

وبنى بها ملك في تريم جامعاً، فلما تم بناءه قال للمهندس: تقدر على أن تبنى خيراً من هذا البناء؟ قال: نعم. ففي الحال ضرب عنقه، خوف أن يبنى في موضع ثان خيراً من الأول.

ومن محاسن سيرة القائد حسين بن سلامة إنشاء الجوامع الكبار والمنارات الطوال من حضرموت إلى مكة، حرسها الله تعالى، طول المسافة... فمن ذلك ما رأيته عامراً ومستهلكا، ومنها ما رواه الناس رواية جامعة.

فأولها جامع شبام وتريم مدينتان من حضرموت فاتصلت عمارة الجوامع منها الى عدن.

والى قبر النبى هود، عليه السلام، ثمان فراسخ، طوله سبعون ذراعاً.

وفى هذه النواحى قبر ذى نيال، عليه السلام، ابن هود، طوله أربعون ذراعاً.

حدثنى على بن محمد بن أحمد السباعي قال: إن قبر ذى نيال بن هود، عليهما السلام، في قرية هارون بناء هود، عليه السلام، من أعمال دوعان.

قال ابن المجاور: ويمكن أنه كان لهود النبى، عليه السلام، ولدان ذكران، أحدهما رونيا والثاني دانيال.

وقبر ابن ذى القرنين طوله خمسة وثلاثون ذراعًا، وقبر العُزير، عليه السلام، طوله ثمانية وعشرون ذراعاً.

قال ابن المجاور: وما أظن القوم كانوا بهذا الطول ولكن طوّلوا قبورهم.

والى مضى خمس فراسخ، والى خلخليج عشرة فراسخ، والى ظهور عشر

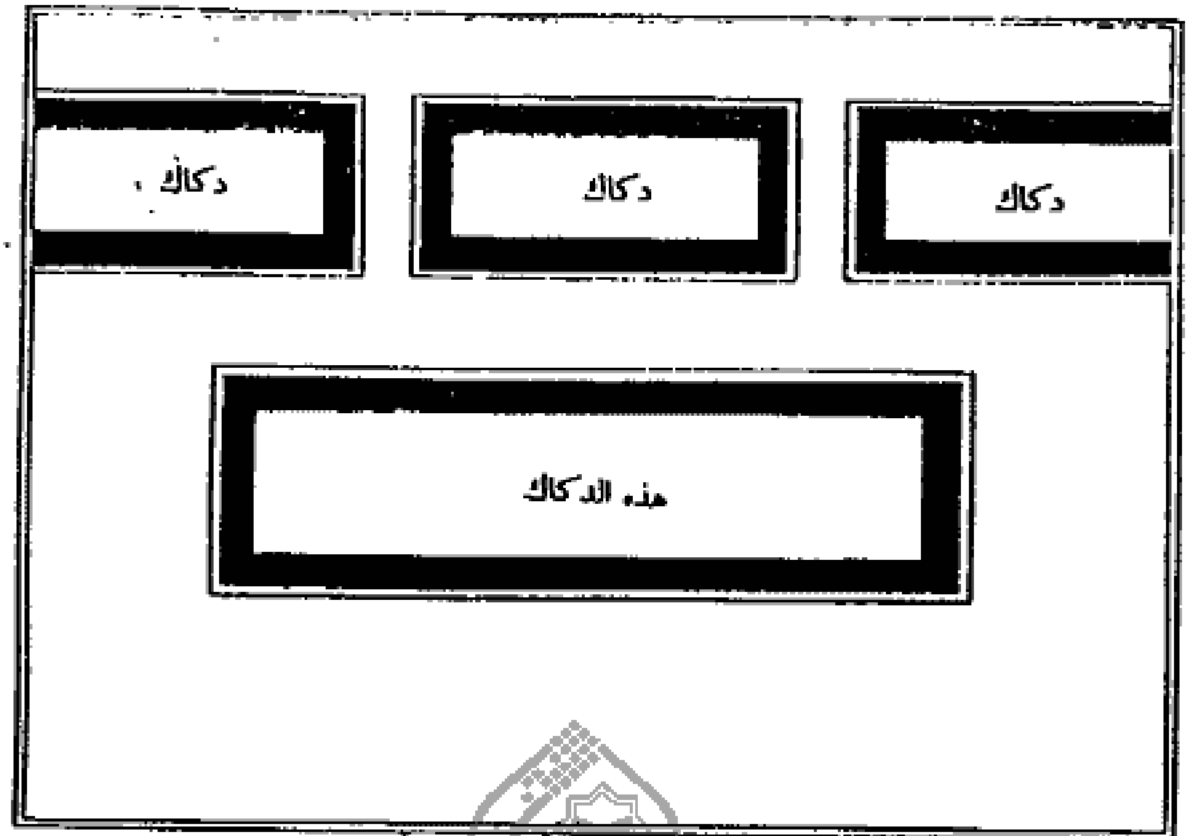
فراسخ، وإلى مهروب سبع فراسخ، وإلى كدنوب خمس فراسخ، ذات نخيل، وإلى مأرب عشرون فرسخاً، وهي ذات نخيل وهي نصف الطريق.

حدثني رجل من أهلها في دار الإمارة بمكة سنة إحدى وعشرين وستمائة قال: إن هذه الأراضي والجبال والشعاب مواضع كانت مساكن قوم شداد بن عاد في فصل الربيع يتنزهون بهذه الأمكنة، وقد بنوا على رءوس الجبال وفي بطون الأودية دكاك ومصاطب من الحجر والجص، وكانوا يقيمون بها أيام الربيع يتفرجون.

وقال آخر: إنما بُنيت هذه الدكاك والمصاطب في هذه المواضع إلا لما سلط الله عليهم الذر وهو النمل، فكان القوم يجدون لذلك ألمًا شديداً، وحينئذ هجروا البلاد وخرجوا بأهاليهم وسكنوا الجبال والشعاب والأودية وبنوا الدكاك متفرقة في بطون الأودية ورءوس الجبال، فلما كثر عليهم الذر أشعلوا النيران حول الدكاك لئلا يصعد إليهم الذر، كما قال الله تعالى: ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم...** ﴾[1] تمام الآية، وإلى الآن الدكاك على حالها مع طول الزمان ومواضع النيران على حالها.

وهذه صورة الدكاك على هذا الموضع والترتيب في الصفحة الثانية.

(١) الآية: ١٣٣ من سورة الأعراف.



رسوم الدار باقية على خراب ... يجول بأكنافها كل لاهج

من سنن صب ذى إعسار ... ومن... حباه ذا مخارج

رحلوا الأحباب وخلفونى ... بليل شبه شات عند ذابح

أمسى الزمان بدار قوم ... إذا رحل الأحباب عنها مصابح

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائى فى المعنى:

نُسائلها أى المواطن حلت ... وأى ديار أوطنتها وأنّتِ

وماذا عليها لو أشارت فودعتْ ... إلينا بأطراف البنان وأومَتِ

وما كان إلا إن توليتُها النوى ... فولى عزاء القلب لما تولتِ

وأما عيون العاشقين فأسخنت ... وأما عيون الشامتين فقرّتِ

ولمـا دعـاني البينُ وليتُ إذ دعـا ولمـا دعـاها قـد أطاعتْ ولبّتِ
فلم أرَ مـثلي كـان أرعى لذمـةٍ ولا مثلها لم تَرْعَ عهدى وذمتى

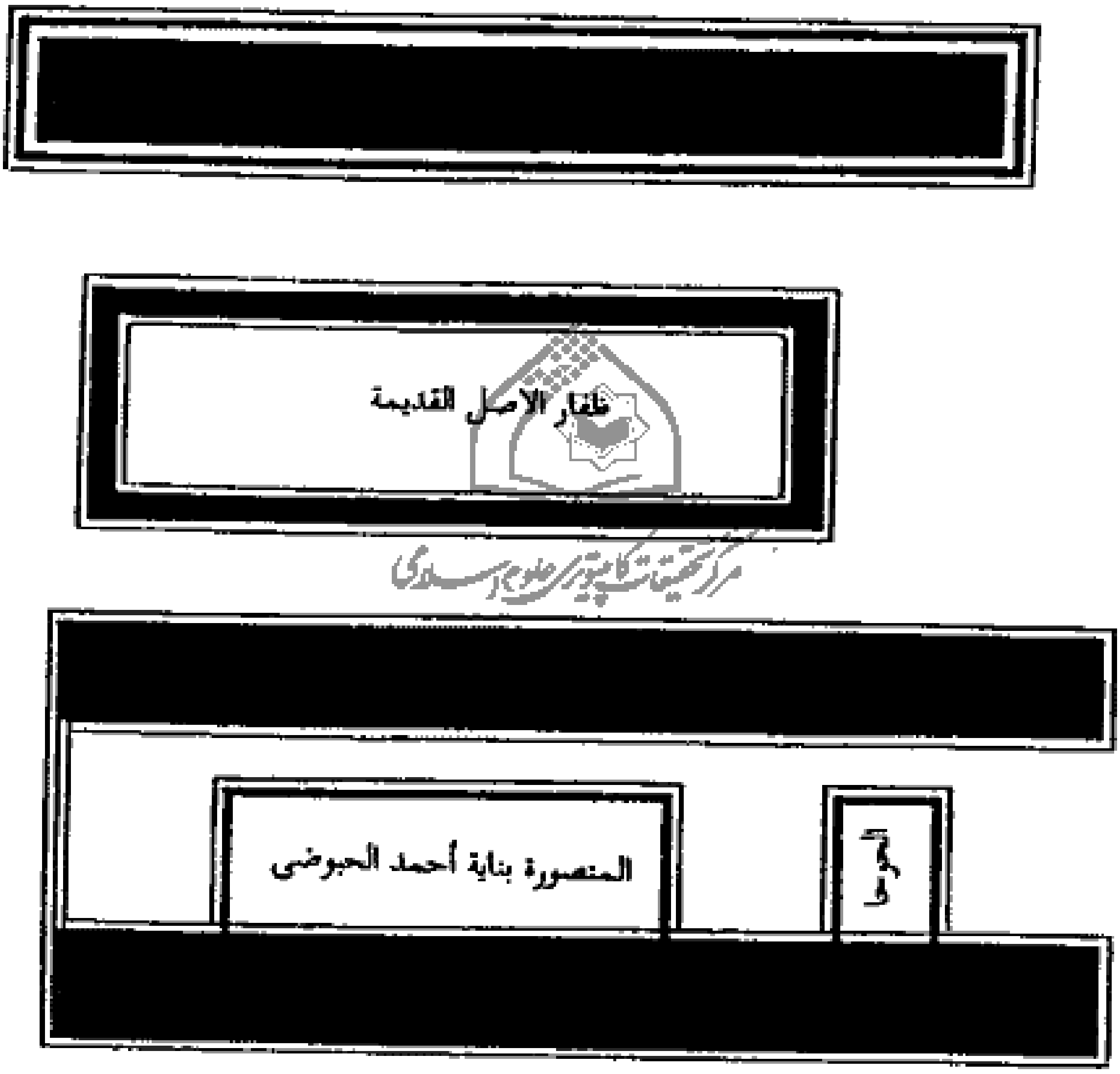
وحد الدكاك من أعمال حضرموت إلى آخر معاملة عُمان مع التهائم ونجدها، إلى جيروت أربع فراسخ، وإلى التهودى أربع فراسخ، وإلى الشعب سبع فراسخ، معدن شجر البان، وإلى حلوف خمس فراسخ، وإلى الغيل ثمان فراسخ مقابلة ثلاثة أعين تخرج من شعب جبل ويسمى جبل الأسفل وهى عقبه، وإلى ظفار أربع فراسخ، وكل هذه المواضع ثرار وشعاب ذات مياه ليس عليها عمارة إلا بعض الشيء، والله أعلم وأحكم.

ذكـــر خـراب ظفـــار

خرب أحمد بن عبد الله بن مزروع الحبوضى ظفار سنة ثماني عشرة وستمائة خوفًا من الملك المسعود أبي المظفر يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب وبنى المنصورة وسماها القاهرة وسُكنت سنة عشرين وستمائة، والاسم المعروفة به ظفار وهى على ساحل البحر، وقد أدير عليها سور من الحجر والجص، ويقال: من اللبن والجص، ورتب عليه أربعة أبواب: باب البحر ينفذ إلى البحر ويسمى باب الساحل، وبابان مما يلي البر وهما على الاسم لأبواب ظفار المهدومة أحدهما مشرق يسمى باب حرقة ينفذ إلى عين فرض، والثانى مما يلى المغرب ويسمى باب الحرجاء ينفذ إلى الحرجاء، والحرجاء مدينة لطيفة وضعت على ساحل البحر بالقرب من البلد، وما بنى المنصورة إلا لإحكام البلاد خوفًا على العباد، فلما بنى

المنصورة ولم يؤبه إليه الملك المسعود ولا عاتبه فيما صنع، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وهذه صورتها على هذا الوضع:



ذكر مدن هدمت خوف الأعادى ولم يصلها العدو

خرب ناصر الدين أبو الفتح قباچة السلطان فى أعمال السند قلعة كلور وسب، رأس حد بلاده، خوفًا من السلطان الأعظم علاء الدين أبى الفتح محمد بن تكش سنة اثنتى عشرة وستمائة، وخرب، أيضًا، الملك ناصر الدين أبو الفتح قباچة فى أعمال السند اهراوت وساتر (وكفى وطلبيه وعلنا اوروهام راوير سرور وتزواره وكريون ودهروت وشاهكا وراح بيوم ومكتوب)(١) خوفًا من السلطان جلال الدين منك برتى بن محمد بن تكش سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

وخرب صلاح الدين يوسف بن أيوب فى أعمال الساحل عسقلان وغزة والداورن والرسين وقلعة الأفضل والعباسية خوفًا من الإفرنج سنة سبعين وخمسمائة.

وخرب السلطان علاء الدنيا والدين أبو الفتح محمد بن تكش قلعة مرورّوذ ورسوم، وفى أعمال السند بدووب وحاما (وهانهور وبكى ومنك راور قصرا ايوب وكوب وياحكة وموسى ويكورح)(٢) خوفًا من أملاكها الأمهنة سنة أربع وستين وخمس مائة، وأبقى المدن وهدم الحصون لأن فى هذه البلاد كل قرية بها حصن مانع بناء الهنود من سالف الدهر.

وهدم الملك المعظم عيسى بن أبى بكر بن أيوب فى أعمال الشام الكرك والشوبك والقدس وأيلة واللاذقية وهو مائتين وستين وسقى من بون خوفًا من الإفرنج سنة أربع وعشرين وستمائة.

(١ ، ٢) وردت الكلمات بين القوسين غير منقوطة فى الأصل.

وخرب الملك المعزى الذى تغلب على ملك السلطان سنجر من خراسان مرو وسرخس وتيسابور ومن العراق الرى وهمذان ومن كرمان حريب وبم وكارى، وفى زاولستان حور، خوفًا من السلطان علاء الدين حسين لبك الغورى سنة أربعين وخمسمائة.

وخرب الخان الحسين بن على الخلجى الديبول خوفًا من ناصر الدين قباجة سنة تسع عشرة وستمائة.

وخرب (الهمنن مسر بن دوده)[1] قلعة الإسلام خوفًا من الخلج سنة عشرين وستمائة، وخرب (حبل خان المر حسى)[2] جميع العجم خوفًا من المسلمين سنة عشر وستمائة، وخرب أحمد بن محمد بن عبد الله الحبوضى ظفار خوفًا من الملك المسعود يوسف بن محمد سنة ثمانى عشرة وستمائة.

صفة الطريق القديمة

كان من بغداد إلى ظفار ومرباط الطريق آمن يسلكه البدو فى العام مرتين يجلبون الخيل ويأخذون عوضهم العطر والبر ويرجعون إلى العراق، فلما تغلب أحمد ابن محمد على هؤلاء فتحوا فى الملك ووقع الخلف فى البلاد وانقطعت الطرق واندثرت، فلما ملك أحمد بن محمد بن عبد الله بن مزروع الحبوضى الملك واستقام فيها أمنت العباد وعمرت البلاد [انقطعت الطرق] خرج البدو على رءوسهم

(١ ، ٢) وردت الكلمات بين القوسين مضطربة وغير منقوطة فى الأصل.

في الطريق القديمة وصاروا على الطريق المستقيم بالخيل إلى ظفار فباعوا واشتروا، فلما أرادوا الرجوع قال لهم أحمد بن محمد: وكيف علمتم الطريق؟ قال أحدهم: إني سافرت مع أبي وأنا طفل على هذا الطريق مرة واحدة فسرت الآن فيها بقياس التعقل بمعرفة تامة وكتب الله السلامة حتى بلغنا المقصد، قال لهم: فمن أين تخرجون؟ قالوا: من مشهد الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهما، فإذا وصلنا إلى المنزل الفلاني افترق عنده الطريق طريقان يأخذ أحدهما إلى الحساء والقطيف والثاني يجيء إلى مرباط وظفار، فقال لهم: شاهد الله على بدوي سلك هذه الطريق ثانية لا يلومن إلا نفسه، قالوا: ولم؟ قال: نخاف أن يندرس الطريق لكثرة سُلاكه فتجيء خيل أمير المؤمنين، غائرة في تلك البلاد علينا وأنا مع ذلك خرّبت البلاد وبنيت المنصورة لأقطع الشر عني، فدخلت البدوان من بلد ظفار ولم يرجعوا إليها ومنها انقطع الطريق سنة ست عشرة وستمائة.

صفة الرياح الثلاث

ريح عاصف قاصف ذات شدة وصلابة، فإذا هب الهوى سد الغبار جميع الطاقات في الدور وأرواق الجدران، ويقال: إذا هبت هذه الأهوية فمن شدة هبوبها تدحرج الحجارة من أعلى ذروة الجبل إلى أن توصله البحر وبين الجبل والبحر يوم طراد، والأصل فيه أن الله سبحانه وتعالى أهلك قوم عاد بهذه الريح وهي الريح العقيم، والاسم فيه ثلاث مشتق من بلاء.

وحدثني ربان في عدن قال: إنه من جملة الرياح الأزيب يعني الجنوب وحدود هبوبه من رأس فرتك إلى مرباط، كما قال الشاعر الغزنوي:

تا بدان چايت فرود آرد كه باشد اندرو

ناوك اندازانش قهرو خنجر آهنجان بلا

زهرهٔ مردان چو بر زنكار پاشي ناردان

كرده كردان جو بر شنكرف مالي لوبيا

صفة المنصورة

هواؤها طيب وجوها موافق وماؤها من خليج عذب فرات، يطلع بها الفواكه من كل فن: من فواكه الهند الفوفل والنارجيل، ومن فواكه الساحلية قصب السكر والموز، ومن فواكه العراق الرمان والعنب ومن النخل جمل، ومن ديار مصر الليمون والأترنج والنارنج، ومن السند النبق، ومن الحجاز الدوم وهو المقل، وجميع سكانها حضارم انتقلوا من بلادهم وسكنوا بها ومأكولهم السمك والذرة والكنب، ومطعوم دوابهم السمك اليابس وهو العيّد، ولم يزبلوا أراضيهم إلا بالسمك، ويقال: إنهم يعقدون الهريسة إلا بلحم السمك لا غير، ونساؤهم سحرة يمشون من ظفار إلى الجاوة الميل في ليلة واحدة لأنهم في قرب جزيرة سقطرى، والمسافة فيما بينهم يومان وليلة في البحر، وأهل الجزيرة يؤدون القطعة لابن الحبوضي.

ذكر جزيرة سقطرى

يقال: إن فى قديم الزمان كان جميع هذه الأمكنة بحر لا غير، وكانت سقطرى ما بين البحر والبر، فلما فتح الله الفم من مقابل الجبل غرق البحر إلى باب المندب ما بين عدن وزبيد ووقف الماء عنده، فلما فتح باب المندب وقف أواخر بحر القلزم، وجبل سقطرى صار الآن جزيرة فى لجج البحر يصح دور الجزيرة أربعون فرسخاً.

حدثنى الحامى قال: يصح دورها ثمانين فرسخًا ونيف، وليس فى جميع هذه البحار أكبر منها جزيرة ولا أطيب منها وهى ذات نخل وبساتين وزروع ذرة وحنطة، وبها إبل وبقر وضأن ألوف مؤلفة، وفيها مياه سائحة على وجه الأرض، وهو عذب فرات، وهو خليج كبير ينبع أوله من الجبال، طويل عريض، ويغلب ما فضل منه البحر ذات أسماك، ويطلع منه شجر الصبر السقطرى ودم الأخوين، ويوجد فى سواحلها العنبر الكثير.

وسكانها قوم نصارى سحرة، ومن جملة سحرهم أن سيف الإسلام جهز إلى الجزيرة، والأصح سيف الدين سنقر، مولى إسماعيل بن طغتكين، خمس شوانٍ ليأخذوا الجزيرة، فلما قرب القوم من الجزيرة انطمست الجزيرة عن أعين القوم وصاروا صاعدين منحدرين طالعين ونازلين ليلاً ونهاراً أياماً وليالى فلم يجدوا للجزيرة حسًا ولا وقعوا للجزيرة على خبر فُردوا راجعين، ويقال: إن الروم الملاعين يكتب فى كتبها عن الجزيرة يعنى سقطرى: الجزيرة المحروسة بأرض العرب.

ذكر السبعة الطيور

قد ذكر مؤلف كتاب الرهمانج أنه إذا شاهد مسافر فى هذا البحر سبعة طيور فى لجج البحار يعلم أنه مقابل جزيرة سقطرى، وكل من جاز ويجوز هذا البحر وقطع جزيرة سقطرى يرى السبع الطيور ليلاً ونهاراً صباحاً ومساءً ومن أى صوب أقبل المراكب تستقبله الطيور، ولم يجدهم أحد مستدبرين، وهذا دائم، ولو يتوهم أحد لا ثمانية ولا تسعة ولا ستة طيور بل سبعة كاملة، وهذا من جملة العجائب، وكم قد فكرت العلماء فيهم فلم يوجد عند أحد منهم ما الحكمة فيهم ولا كيف قصتهم ونعتهم.

قال ابن المجاور: سافرت من الديبول إلى عدن فى مركب الناخوذا خواجة نجيب الدين محمود بن أبى القاسم البغوى شركة الشيخ عبد الغنى بن أبى الفرج البغدادى آخر سنة ثمانى عشرة وستمائة ورأيت الطيور السبعة فى لجة البحر، فلما أصبحنا رأينا الجزيرة، وفى الجزيرة أربع مدن كبار منه السوق وفاتك وموري وما حولها من القرى قرية ما شاء الله، وهى جزيرة والجبل مستدير حوله وقد صعد ذروة الجبل إلى الأفق، وقد سكن الجبل قوم جبالية عصاة على أهل الوطاء، وهى ذات مزارع وعمائر ومدن وقرى لم يعرفوا بعضهم بعضاً، وقد علق كلٌ فى عنقه صليب كلٌ على قدره.

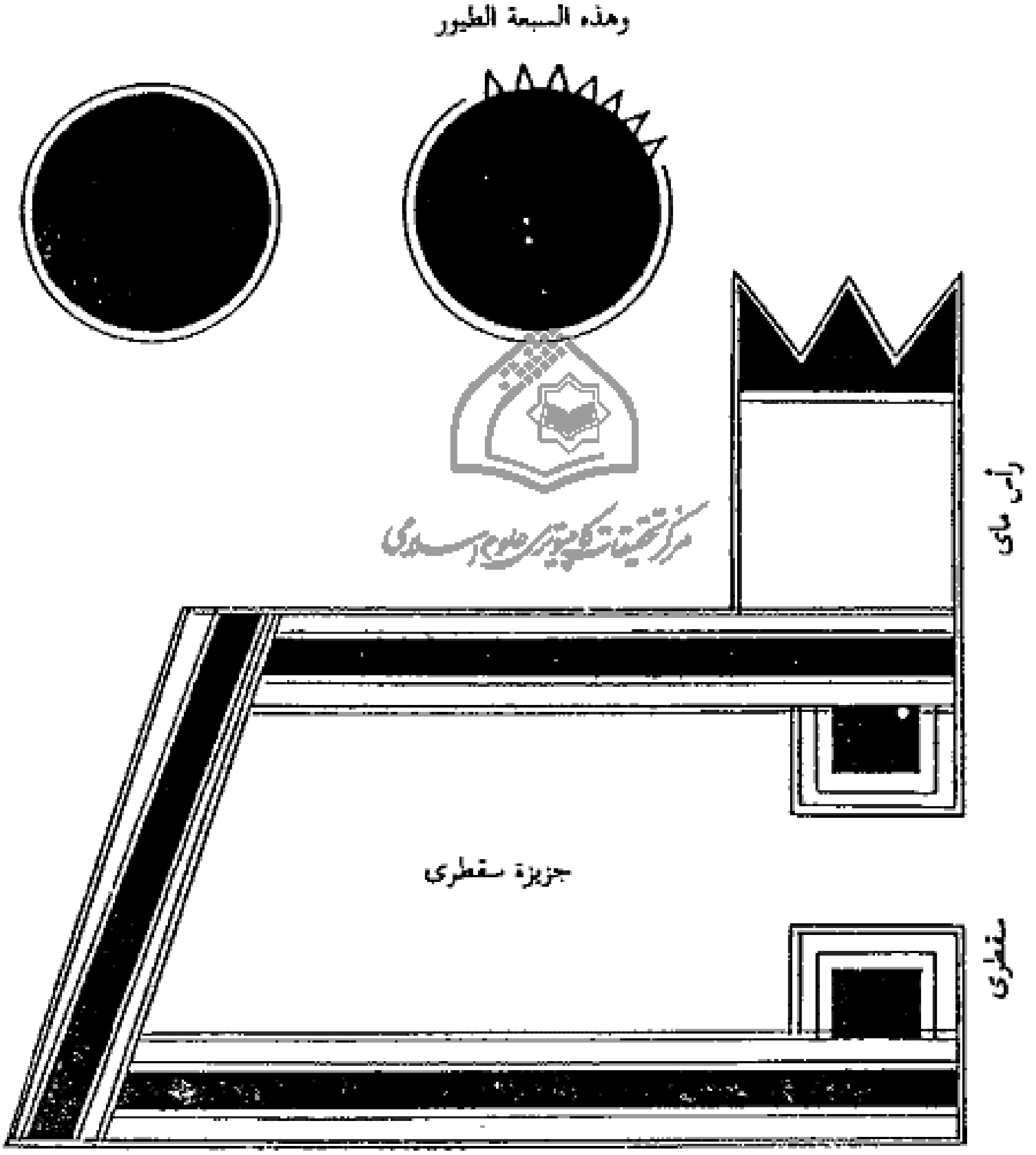
وفى أطراف الجزيرة سواحل كثيرة مثل بندر موسى، ورأس ما فى سقطرى، وغاية معاش أهل هذه السواحل مع السراق لأن السراق ينزلون عندهم ويقيمون عندهم مدة ستة شهور يبيعون عليهم الكسب ويأكلون ويشربون ويجامعون نساءهم،

وهم قوم جلح قوّادون وعجائزهم أقود من رجالهم وفى رجالهم من هو أقود من أسود فى رأس جمل هائج، كما قال الشاعر:

عجوز لو رميت في قعر بحرٍ — أتت للبر قائدةً لحوتِ

تقود من السياسة ألف بغلٍ — إذا جُرّوا بخيط العنكبوتِ

وهذه صفة جزيرة سقطرى والبحر والمركب على هذا الوضع والترتيب:



وهذا جانب المطلع من جزيرة سقطرى، وهذه صورة تراها إذا كنت في أوسطها وحاذيتها، وأما إذا تدنيها من البحر فربما تتغير هذه الصورة وتراها على صفة أخرى.

من المنصورة إلى ريسوت

ثلاثة فراسخ وتعبر جبل رأس الحمار آخر غب القمر، وأما ريسوت فكانت مدينة عظيمة وكان من بغداد إليها طريق مطبق مجصص بالجص والنورة، وكانت القوافل صاعدة بالبربهار أو الخف منحدرة بالبضائع التي تدخل الهند مثل الصفر والزنجفر والماورد والفضة وما يشابه ذلك وخربت من طول المدى.

وإلى دخان ثلاثة فراسخ، وإلى حارب ثلاثة فراسخ، وإلى مراوة ثلاثة فراسخ، وإلى حلقات أربعة فراسخ، وتعبر جبل فرتك أول مبتدأ غب القمر وهو مندخ المراكب المقبلة من الهند، وإلى الحصوين ستة فرسخ، وإلى خيريج ستة فراسخ، وبهذه الأراضي سبع قرى مقلوبة وتسمى عند الفرس هوسكان، أي منكورين.

حدثني أحمد بن علي بن عبد الله الحمامي الواسطي قال: ما بين الشجر وأحور سبع قريات سود، أي سبع قرى مسودة الأرض، قلب الله عز وجل بها، وهي من قرى قوم عاد.

وإلى الريداء سبع فراسخ، وإلى الشحر خمس فراسخ، وإلى مرسى طيب بأعمال حضرموت، وإلى الشحير أربع فراسخ، وإلى المُكلا فرسخ وإلى بلى ستة فراسخ، وإلى نسع خمس فراسخ، وإلى حصن الغراب أربع فراسخ حصن السموءل بن عاديا

اليهودي، وإلى مجداح أربع فراسخ وإلى الحوراء ثمان فراسخ، وإلى أحور ثمان فراسخ، وإلى أبين ستة فراسخ وإلى لحج أربعة فراسخ، وإلى عدن ثلاثة فراسخ.

من المنصورة إلى قلهات

من المنصورة إلى مرباط أربع فراسخ، بناء الفرس، ويقال: إنما بُني واشتُق الاسم مرباط لأنها كانت مرابط الخيل التي للفرس من أهل سيراف.

وآخر من تولى بها من نسل الفرس أولاد منجو، وخربت على يد أحمد بن محمد بن عبد الله بن مزروع الحبوضي.

وإلى أرحوب فرسخان، وإلى كنكرى أربع فراسخ، وإلى النوس ثلاث فراسخ، وتعبر بجبال عوالٍ، وإلى حاسك فرسخان، وإلى كنكرى أربع فراسخ محاذاة خوريان وموريان، وهما جزيرتان في لجج البحر.

وإلى مدركة أربع فراسخ، وإلى المصيرة أربع فراسخ، وتعبر غبة الحشيش، وأهل هذه الجزيرة قوم يقال لهم: المَهْرة، والله أعلم.

ذكر نسبة المهرية

حدثني علي بن محمد بن أحمد الساعي في المفاليس: حدثني فهر بن عبد الله بن راشد، وهو سلطان حضرموت قال: إن أصل المهرية من قرية الدبادب

لم تجر فيه صلاة، لأن أمير المؤمنين، أبا بكر الصديق[1] رضى الله عنه بعث بجيش إلى هذه الأعمال فعصت أهل هذه القرية عليهم، فلما انتصروا على أهل القرية ركبوا السيف على أهلها فما زالوا يقتلون فيهم إلى أن جمد الدم فيهم قدر قامة، فلم يسلم من القوم إلا قدر ثلاثمائة بنت بكر مخلخلات مدملجات ملبسات، فتعقلن بجبل مقابل، فلما رأى أهل الجبل ذلك أمهروهن وتزوجوهن فجاء من نسلهم المهرة.

وحدثنى أحمد بن على بن عبد الله الواسطى قال: إن أصل المهرة من بقية قوم عاد، فلما أهلك الله تلك الأمم نجا هؤلاء القوم فسكنوا جبال ظفار وجزيرة سقطرى وجزيرة المصيرة، وهم قوم طوال حسان لهم لغة منهم وفيهم ولم يفهمها إلا هم، ويسمونهم السحرة، وما اشتق اسم السحرة إلا من السحر لأن فيهم الجهل والعقل ومن الجنون، يأكلون نعم الله بلا حمد ولا شكر ويعبدون غيره، وهم فى هذه الديار يشبهون الدواب سائرين ملء تلك السهول شبه السيول والجبال شبه الخيال، وفيهم يقول الشاعر:

كم تُوعَظون ولا تغنى مواعظكم ... فالبَهْمُ يزجرها الراعى فتنزجرُ

أراكم صُوَرَ الناس الذين هم ... ناسٌ ولكنكم فى فعلكم بقرُ

لو كنتم بشراً كانت تُنهنهكم ... نوائب الدهر إلا أنكم حُمُرُ

(١) معلوم أن لقب: «أمير المؤمنين» أُطلق لأول مرة على الخليفة الثانى، عمر بن الخطاب، أما أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، فكان لقبه: خليفة رسول الله ﷺ، وقد استحدث لقب: أمير المؤمنين لصعوبة قول خليفة خليفة رسول الله ﷺ، واستمر لقب «أمير المؤمنين» بعد ذلك إلى انتهاء الخلافة الإسلامية.

وإلى درب جعلان ثلاثة فراسخ، وإلى صور أربع فراسخ، وإلى العاتب[1] فرسخان، وإلى قلهات فرسخان.

بنـــاء قلهـــات

أول من سكن الساحل بقلهات الصيادون، قوم ضعف يترزقون الله، فلما طال مقام القوم طاب لهم والتأم إليهم بمقامهم خلق يستأنسون بهم، فكثروا وازدادوا إلى أن سكن فى جملة الصيادين شيخ من مشائخ العرب واسمه مالك بن فهم، وكان من حرصه على عمل البلد يقف على الساحل، فأى مركب يراه يقلع فى البحر ينادى لأصحابه: قُل هاتِ! أى: قُل لهم فى دخول البلد، يعنى لأهل المركب، فسمى البلد قلهات.

وحدثنى أحمد بن على بن عبد الله الواسطى قال: إنما كانت تسمى فى سالف الدهر هات قل، قلت: ولِمَ سمى بهذا الاسم؟ قال: لما هرب القوم من وقعة النهرين نزلوا بهذا الساحل كانوا يقولون لخدامهم: هات! يعنون به الزاد، وهو زاد صحبهم من العراق، فلما قل عليهم ذلك قال أحدهم لخادمه: هات! فرد عليه الغلام: قل، فسمى البلد هات قل، فلما دار الدهر دار الاسم مع دوران الزمان قلهات.

---

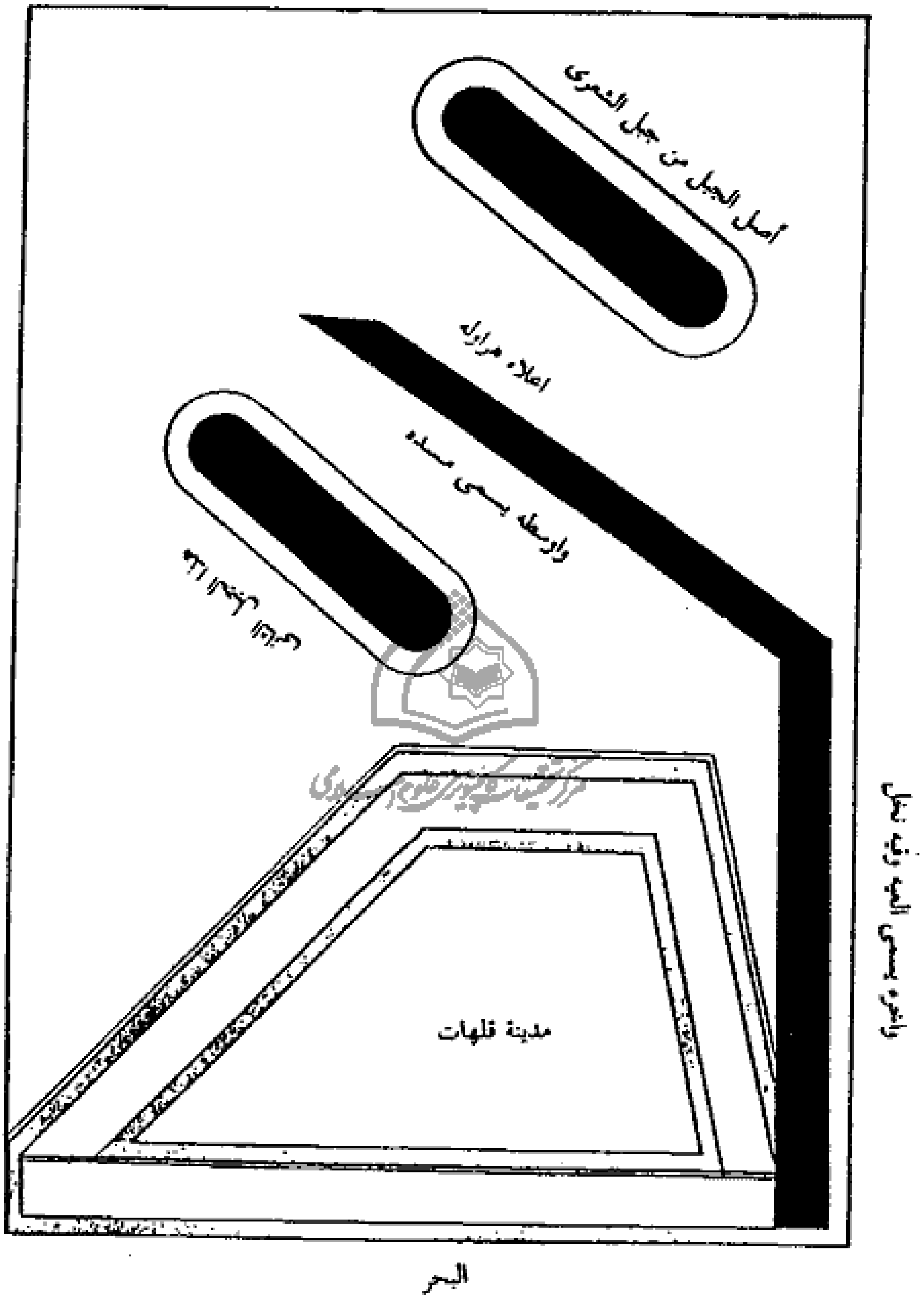
(١) غير منقوطة فى الأصل.

وعمر المكان بمقام الشيخ مالك بعد أن أدار عليه سوراً من الحجر والجص سنة خمس عشرة وستمائة وعدل فيها، ودخلتها المراكب من كل فج وخور وسائر الجهات تأتي من كل جهة، وصارت مدينة ذات عظم ومهابة.

فصل: وجد زيد عمراً يمشي إلى داره فقال له: ما لك تمشي مقلوباً؟ قال: لانقلاب الزمان نوافقه على فعله، كما قال الشاعر:

كـان في الغـادين لي سكنٌ　　فنأى فـاغـتـاله الزمنُ
خلّف الغـادون لي حـزنًا　　ولبئس الصـاحبُ الحـزنُ

وهو على هذا الوضع والترتيب


اصل الجبل من جبل الشرقي
اعلاه مزاوله
واوسطه يسمى مسده
مدينة قلهات
البحر

ذكر جبل السعترى

جبل عن البلد مقدار فرسخ وطريقه ذات طول وعرض وسعة فى ارتفاع وانحطاط، وكل ما يطلع فيه السعتر من أوله إلى آخره، وعلى ذروة هذا الجبل نجر سفينة نوح، عليه السلام.

حدثنى عبد الغنى بن أبى الفرج البغدادى قال: هو نجر حديد يصح مقدار بيت كبير، وكان العقب فيه أنه لما أرسى السفينة على هذا الجبل، لأن ماء الطوفان كان قد علا على جميع ما خلقه الله تعالى مقدار سبعة عشر ذراعا أُرمى الأنجر، تعلق الأنجر فى حجر من الجبل وأبى أن يصعد معهم وغمر الريح قطعت السفينة الأنجرية وبقى الأنجر والأنجرية موضعه يزار، وهو موضع فاضل، والله أعلم وأحكم.

ذكر الإباضية

أصل القوم من ولد الرجل الذى أقر لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه، بالإلهية، وقد قال ﷺ لعلى، رضى الله عنه: يا على، يهلك فيك طائفتان محب غالٍ، ومبغض قالٍ.

وأول من نسب الإلهية لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه، أبو الثديان[1] فقال له على بن أبى طالب: كف عن المقالة واشتغل عن البطالة، فإنى آكل وأشرب

(١) الاسم المعروف له فى كتب التراث هو: «ذو الثدية».

وأنام وأنكح ومن يتسم فيه هذه الخصال حاشا أن يُعبد، لأن الإله، عز اسمه، وجل ثناؤه، متعالٍ منزه صفاته عن الذات واللذات فكيف عما ذكرناه من الأكل والشرب والنوم، فلما انكف أبو التديان عما كان عليه من الاعتقاد شرع في هذا المذهب بين القوم وخرج طائفة منهم سكنوا أعمال البطائح وهم على هذا الاعتقاد إلى الآن ويراها صفة أخرى.

من المنصورة إلى عدن

راجعًا من المنصورة إلى ريسوت ثلاث فراسخ، ويُعبر عنه بجبل رأس الحمار...[1] اخترعت وحينئذ خرج أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فصافف القوم بالنهرين وكسرهم وركب عليهم السيف وما زال يقتل فيهم إلى أن أفنى الجميع ورد البغلة إلى القنطرة فوقعت البغلة على نصف القنطرة، قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: انظروا من تحت القنطرة، فإذا هم بأبى الثديين، فقال له أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه: جاء الحق وزهق الباطل، أسلم تسلم، فقال: كيف أسلم والبغلة تعلم علم الغيب أنى تحت القنطرة؟ فحينئذ جرد على بن أبى طالب رضى الله عنه السيف وضرب عنقه وهرب من سلم من القوم، وما زال السيف يعمل فيهم ووراءهم من الغيب إلى أن عبرهم البحر فسكنوا بهذه الأعمال، فبُدلت تلك المحبة بالبغضاء فهم فيهم محب غالٍ والمبغض القالى هو الهالك بين المحبة والبغضة، كما قال:

(١) بياض بالأصل.

الحب فيه مرارة وحلاوة والحب فيه شقاوة ونعيمُ

وقال آخر:

آه من لوعة التفرق آه ما أمرَّ الهوى وما أحلاهُ

كتب الدمعُ فوق خدى سطراً رحم الله من دنا فقراهُ

ويسمون على بن أبى طالب رضى الله عنه أبا تراب، ويقولون: إنه كان فى الصغر مؤمناً فلما كبر كفر، وينشدون فى سماعاتهم:

صلى الله وسلم على شهيد ابن ملجم[1]

هذا الذى ضرب الشرك بالسيف حتى تثلم

وينشدون بيتاً من قول ابن سكرة:

سبوا عليا كما سبوا عتيقكمُ كفرٌ بكفرٍ وإيمانٌ بإيمانِ

علم مكنون وسر مكتوم

إذا نزلوا المراكب أو كوّروها لم تصعد المراكب ولا تنحدر معهم إلى أن يقول الجميع بصوت واحد: ياعلى! ويقولون: إنهم يبقون فى جر المركب زماناً طويلا حتى يتعبوا ويضجروا فيقول بعضهم لبعض: اذكروا ذلك الرجل! يعنون به على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فتقول المشائخ: كوروا مركبكم إن كنتم تكورون!

(١) هو قاتل الإمام على، كرم الله وجهه.

ولا يزال القوم فى عناء وتعب وصداع وكرب وصياح وشغب إلى أن يقول الجميع بصوت واحد: يالعلى! فيجرى معهم المركب أهون من شربة ماء بارد إلى فم رجل عطشان فيصبى المركب ويسبح فى البحر ويعوم، قال القائل:

عليّ طلاباتٌ وأنت وسيلتى إلى الله يا مولاى موسى بن جعفرِ

إذا جاءك الملهوف يطلب حاجةً تيسر من مأموله كل معسرِ

وقال آخر:

لما تكاثر حسادى وأعدائى بغير جُرْمٍ جعلت الله مولائى

وقد تمسكت بالميم التى فى محمد وعين على وبالحاءين والفاء.

وقال محمود:

فوحق حرمة خمسةٍ ما مثلهم بين البشرْ

............................(1) بذاك جبريل افتخرْ

ذكر الإباضية

فكل رجل يبغض على بن أبى طالب رضى الله عنه يحيض من دبره رأس كل شهر، ويقال من ذكره، كما تحيض المرأة.

وفى أعمال صنعاء منهم قوم يسمونهم السمارة وعلامته أن أحدهم يعلق كيسا من الجلد ملأه رملا فى ذكره كلما ابتل الرمل بدده واستعمل غيره ويسمى ذلك الكيس مطهرة، فهم الإباضية، والله أعلم.

(1) بياض بالأصل.

ذكر السلقليات

وكل امرأة تبغض على بن أبى طالب رضى الله عنه تحيض من دبرها فهم السلقليات.

قال ابن المجاور: وكل من هو نسل أبى الشديان من رجل او امرأة أو من حضر وقعة النهرين فرجالهم الإباضية والنساء السلقليات لأنهم معروفون بهذه العلة، والله أعلم وأحكم.

ذكر بلاد الخوارج والاباضية

حدثنى الصفار قال: إن جميع أهل أذربيجان كانوا...[1] فأسلم الجميع ورجعوا إلى مذهب الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى، رضى الله عنه، ورجعت كلوة من الشافعية إلى الخارجية وهم باقون على هذا المذهب إلى الآن.

وفى المغرب نفوسة مثل راره والتمساح ورأس المخبز وتاهرت وسويقة ابن مذكول وجبال نصير وطارق، فهذه البلاد قديماً على هذا المذهب، وأما الذين هم جدد فمن تولى محمد بن الحسن بن تومرت البربرى، وعبد المؤمن بن على الكوفى ملك المغرب، ساقوا الخلق إلى أطراف هذا المذهب، وبعضٌ بأرض مصر، وبأعمال الشأم دمشق وحران، ومن ديار بكر بغداد، ومن أرض الجزيرة (باحربه

(١) بياض بالأصل.

واحباره)[1] مع جميع سواد الموصل، وجبال الأكراد والدبابلة وجميع أصحاب الشيخ عدى، ومن بغداد باب البصرة والحربية ودار القز والسرية وباب الأزج والحلبة والبصلية والحريم رجال شتى، وبعض أهل واسط القصب وقرية بأعمال البحرين شذ على الراوى اسمها.

ومن العراقين البصرة وهمذان، ومن اران سلماست، ومن سفاهان درحوى باره ودكوك ودرليان، ومن خراسان هراة واسراسير مع جميع اعمال تيم روركريك مع جميع أعمال حوادر، وإلى حد ما كان طول فى عرض ومن...[2] مان وادى ردمد بالطول من سيسان إلى وادى سول وبه أكثر من...[2] قرية على خيط واحد.

ومن أعمال اليمن زبيد وأعمالها مجهر، ومن الجبال الشرف، وهو من أعمال زبيد مقابل قلحاح، وليس هم الشرف أى الأشراف أهل الحسب والنسب، وهى أعمال تسمى الشرف كما صادف الاسم الكنية، وهم يؤدون القطعة لآل الشرف من آل الحسن بن على بن أبى طالب.

وسكن جميع اليمن منه كما يقال...[2] رفى وهم حنابلة المـذهب لأن الحنابلة يقولون فيما بينهم: لا يكون الحنبلى حنبليًا حتى يبغض عليًا سويًا، ومن الأديان اليهود خلاف جميع الملل، ويقال: إن أول من سب ابا تراب بالشأم معاوية ابن أبى سفيان وصارت عندهم سنة مؤكدة استمروا عليها إلى آخر دولتهم إلى الف شهر، فسبه جميع العالم ما خلا خوارزم، وقد تقدم ذكرهم.

---

(١) ما بين القوسين غير منقوط بالأصل.

(٢) بياض بالأصل.

فصل: قيل: كان الوليد بن عبد الملك يُذكر بالجهل فذكر يومًا على بن أبي طالب رضى الله عنه على المنبر ولحن، فقال بعضهم: ما أدرى أى أمريه أعجب لحنه فيما لا يلحن أحد فيه، أو نسبته على رضوان الله عليه إلى اللصوصية.

حدثنى أحمد بن على بن عبد الله الوسطى قال: كتب وهساب الأبنوس على فص خاتمه... ى وحيد من الأئمة جميعًا معاوية ويزيد وحـ... يوم الخميس الثانى والعشرين من رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة وحق معاوية بن أبى سفيان كاتب وحى الله ورديف رسول الله ﷺ، وهم أول من سبوه على منابر الإسلام[1].

وقال إمام الحرمين فى كتاب اللمع: معاوية مخطئ، وعلىٌ مستمسك بالحق.

وجميع أعمال عمان وقلهات والفرات وطَيوى ومسقط وحى عاصم وصُحار وخَور فُكّان وكُمْزار وجُلْفار والذين هم فى الجبال منح وثروى شمائل.

ذكر استفتاح أعمال عمان

قرأت فى كتاب مسالك الممالك الثانى ويذكر فيه أن الغالب كان على أعمال عُمان الإباضية إلى أن وقع بينهم وبين طائفة من بنى سامة بن لؤى بن غالب، خرج منها محمد بن القاسم الشأمى إلى الإمام أبى العباس أحمد المعتضد بالله بن أبى أحمد محمد بن الموفق، وقيل: طلحة بن المتوكل، وقيل: ابن الموفق محمد ابن جعفر المتوكل، استنجد به فبعث معه بأبى النور ففتح عُمان للمعتضد بالله

(١) هكذا وردت هذه الفقرة فى الأصل.

وأقام له الخطبة بها، فارتحلت الإباضية إلى ناحية سردنجة[1] فسكنوها إلى زماننا هذا، ولو فتحنا في هذا الباب لطال الكلام وكثر، والتقصير في مثل هذا أصلح وأجود، والله أعلم.

ذكر استفتاح الخوارزمية قلهات

لما تولى خواجه رضي الدين قِوام المُلك أبو بكر الزوزني ملك كرمان ومكران وفارس قتل السلطان علاء الدين محمد بن تكش ملك قلهات بالسيف، ويقال: إن مالك بن فهم مات في أيام دولة رضي الدين قوام الملك، ففي تلك...[2] والعُرضة انفذ رضي الدين قوام الملك مراكب تسلم قلهات مع جميع أعمال عُمان، وكان له فيها شحانٍ وعُمّال ونوّاب يجبون دخلها وأعشار السفراء مع الضرائب والقوانين، وكان هو يرسل بالإبريسم من كرمان يبيعونه ويجمعون دخل البلاد ويشترون به خيل عربية ينفذونها إليه في كل واقعة خمسمائة حصان إلى ما دونه وأعلاه، فكان يركب ما كان دون منها ويرسل نجاد الخيل إلى خوارزم يقدمها للسلطان.

فلما مات رضي الدين قوام الملك في كرمان خلف في قلهات أربعة وستين ألف مَنّ، ويقال: ثمانون ألف مَنّ حرير مع خمس مائة حصان، فملك قلهات من أيدي الخوارزمية مع الخيل والإبريسم سنة خمس عشرة وستمائة، فملك قلهات بعد وفاته الشيخ مالك بن فهم بن مالك من...[2] ادار على قلهات سوراً من الحجر والجص سنة سبع عشرة وستمائة.

---

(١) غير منقوطة بالأصل.

(٢) بياض بالأصل.

صفـــة بتـــان العنـــبر

وجد أهل قلهات يومًا مقابل المدينة جزيرة كبيرة فقال الشيخ مالك بن فهم: قصوا لنا أثر الجزيرة وما هو؟ فغدا الصيادون ورجعوا إليه فقالوا له: بتّان يطفو على وجه البحر، فقال لهم: جروه إلى البلد! فركب الصيادون الصنابيق وشدوا الأحربة في البتان وجروه وأرموه الساحل، فصارت الخلق تتفرج عليه وعلى عظم خلقته إلى أن جاف وخاس، فظهر في جوفه قطعة عنبر وزنها ثلاثة أبهرة، فلما علمت الناس بذلك قطعوه ونهبوه ووصل العنبر إلى جميع من في البلد من قوى وضعيف، ووصل إلى الشيخ مالك بن فهم بهار بالكبير عن مائتى مَنّ سنة عشر وستمائة.

فصل: البتان صادف القطعة العنبر طافية على وجه البحر فابتلعها، فلما استقرت القطعة في أمعائه ضعفت معدته عن هضمها فمات فطفا على وجه البحر فضربه الموج وأسنده إلى الساحل بقلهات، استغنى به من استغنى.

حدثني محمد بن بندار الجوزى قال: إنى اشتريت من هذا العنبر تفاريق، صح لى جمل بأدنى شيء فأخذته وسافرت به إلى خوارزم بعته على تُرّكان خاتون...[1] علاء الدين محمد بن تكش على سعر العشرة مثاقيل بثلاثين دينارًا.

(١) بياض بالأصل.

صفـــة قلهــات

قلهات بلد وُضع على ساحل البحر والجبل محيط به، ويقال: إنها على وضع عدن، ماؤها طيب يجلب من منده[1] وبها نهر سقراط معينه من الجبل يجرى بين نخيل وبساتين خفيف مرىء عذب فرات.

قال أهل اللغة: أما عُمان فإنما سمى بعُمان بن نعسان بن إبراهيم الخليل، عليه السلام، وهو الذى بناها.

قال ابن المجاور: وما سُمى هذا الإقليم إقليم عُمان إلا أنها تعم بالخير.

مأكولهم التمر والسمك، ولبسهم الأزرق مكشفين الرءوس، يشترون كل سبعة رجال منهم جارية، وكلما دخل واحد من السبعة خلع نعليه وخلاهما على الباب، فإذا جاء أحد السبعة رأى النعل عاد على أثره راجعاً لعلمه أن أحد أصحابه عند الجارية.

وليس فى جميع الربع المسكون أبغض منهم للغريب، يقول زيد لعمرو: إى بازق الغريب بالجندل، يعنى الحجر، وانزل عليه بالرويار[2] وزيّده بالعصا.

وليس أحد أذل منهم، إذا عاينوا السراق فى البحر يقول بعضهم لبعض: إى بالمال ما نعطيه أسلم تسلم؟ فيسلمون المركب للسراق ويخرجون عرايا الأستاه، وليس فى جميع القبابين أصغر من قبان قلهات.

(١ ، ٢) غير منقوطة بالأصل.

مـــن قلهــات إلـــى مســقط

من قلهات إلى طيوى ثلاثة فراسخ، وإلى مسقط ستة فراسخ، هذا الاسم الأصل فيه مسكت، ويقال: لما وصل إليه الصحابة سكت كل من كان بها فسميت مسكت، والله أعلم.

صفـــة العنـــة

وفي مسكت عنة وعلى فم العنة ناطور لا يزال قاعداً، فإذا دخل العنة سرب سمك علم الناطور كم عددهم، فسئل عنه فقال: إذا شاهدت مقدم الأسماك أعلم كم يكون عدد أشياعه وأتباعه، وذلك من كثرة التجارب والمخبرة.

وكانت هذه المدينة مرسى مدينة صحار، وفي هذه المدينة كانت ترسى المراكب القادمة من أطراف...[1] وكانوا يصعدون بالخف والبربهار إلى صحار يبتاعون ويتشارون، ومنها كانت تصعد البضائع إلى كرمان، ومن كرمان إلى سجستان، وكانت البضائع تتفرق في خراسان وما وراء النهر وزاولستان والغور وكرميل، وإلى حي عاصم ستة فراسخ، وإلى أسرار ستة فراسخ، وإلى صحار أربع فراسخ.

(١) بياض بالأصل.

صفة صحار

حدثني أبو المجد بن أبي محمد الكمال بن الكمال العلوي الحسيني قال: إن صحار كانت اثنى عشر ألف قرية مع اثنى عشر ألف قصر مع اثنى عشر ألف نهر مع اثنى عشر ألف جامع، وكان يسكن كل ناخوذة قصراً ويشرب أهله من نهر، فإذا كان يوم الجمعة يحتاز إلى الجامع في تسعة وتسعين من خدمه وأشياعه وقرابته وأعوانه، فحدثني بعضهم قال: كان بعد بنائها مائة واثنين وتسعين قبان لوزن البضائع للطالب والمطلوب.

صفة دار الختمة

بنى ناخوذة داراً وأمر أن يكتب القرآن بالذهب فيها والأصح في خشب الساج توازير الدار مقطع مركب في اثنى عشر كتبا، فصح فيه تمام الختمة في سطر واحد من الدار وسعته، فسمى الدار دار الختمة، وكان بناء القوم بالآجر والجص والخشب الساج فخرب الجميع وصارت الجن تسكن حول القصور.

حدثني الشيخ أبو بكر البصري المحل قال: إن هذه الأعمال كانت لملوك كرمان من آل سلجوق فاندثروا وتغلبت الغز عليهم وخُليت البلاد وتسلطت العرب على هذه الأعمال وأخربوها.

فصل: سافر زيد من وطنه ورجع فإذا هو يرى بحارة الحمال رجع قاضي

البلدة، وقال القاضى، يعنى الحمال لزيد: ابسط ما كان من الإبل الأوائل من الرفعة وما نحن الآن فيه من الهبوط؟ قال زيد: كيف ذلك أدام الله مجلس مولانا القاضى وثبت قواعده؟ قال القاضى: فى الدور الأول ارتفعت الأوائل إلى أن كنا حمالين للقوم الحطب والأواخر رجعت قاضى حكمهم.

قال ابن المجاور: إذا كانت الأوائل حتى سكنوا تلك القصور وما نحن فيه الآن حتى قنعوا مسكنى التصاريف من الخرابات، كما قال:

يا باكـيًـا بعـد الأحـبْـ ـبَـة فى المنازل والدمنْ
من بعـد يوم فـراقـهم أعلمت مـا طعم الوسنْ
فـأجـابنى: لا والذى قلبى إليـه مـرتهنْ
كـيف السكون إلى الرقـا د وقـد نأى عنى السكنْ
ومـتى تقـر دمـوع من يغتـاله صـرف الزمنْ

وللقاضى أبى بكر الرافعى:

أسـتغـفـر الله للذى ودعـا ونحن للغـربة نبكى مـعـا
سبل من أجـفـانه أدمـعًـا لمـا رآنى مُـسـبـلا أدمـعـا
وقـال لى عند فـراقى له: مـا أعظم البينَ ومـا أوجـعـا

وللسيف الحكمى:

أحمائمَ الأثلات من وادى الحمـا أنتنّ هيجـتنّ صبًـا مـغـرمـا
مـا للعـداة ومـا لكن وللبُكا جـزعًـا ولكن لا ارى دمـعـاهمـا
إن الحـمـام إذا تنغّم شـاقنى ويزيدنى شـوقـا إلى ذاك اللمـا

وقال آخـــــر:

تشتاقكم كل أرض تنزلون بها كأنكم لبقاع الأرض أمطارُ

فلما خربت ريسوت عمرت صحار وخربت صحار بنيت البين وهرمز وخربت البين وهرمز بنيت عدن.

وإلى العقر أربع فراسخ، وإلى كلبة أربع فراسخ، وإلى خَور فُكّان أربع فراسخ، وإلى دبا أربع فراسخ، وإلى ليمة أربع فراسخ وإلى كُمزار ثلاث فراسخ، وإلى ظفار ثمان فراسخ، وإلى قيس ثمان فراسخ عن يوم وليلة في البحر.

بناء قيس .. سكنها المجوس

وكان الموجب كما ذكره سعد بن مالك بن داود بن سليمان الأنصاري أنه هربت المجوس لما تغيرت الدولة لتغلب العرب على ملك العجم سكنوا الجزيرة وبنوا مع طول مقامهم الدور العوالي الشواهق بالآجر والجص بناءً محكماً، فلما دار الفلك داروا مع دوره وجوره فخلت الجزيرة منهم ورجعت حبسا للملوك، ملوك فارس، وسميت في عهدهم زندان انه، وصارت الملوك يجرون على العوائد إلى أن خربت سيراف، فحصل رجلان سيرافيان بجزيرة سكناها فأعجبهم المكان فاستولوا على الجزيرة وفيها جماعة صيادون يصطادون السمك، فتغلب السيرافيان على الصيادين فأخرجاهم منها صاغرين وملكوا الجزيرة وبنوا فيها الدور الوثيقة، ويقال: إنهم بنوا على أساس بناء المجوس وغرسوا بها النخل وسكنوا فيها.

حدثني يحيى بن علي بن عبد الرحمن الزراد قال: إنما تكون لجزيرة قيس من يوم بنيت مائة وعشرين سنة، وكان هذا الحديث سنة أربع وعشرين وستمائة، وقرروا على كل مركب يجوز عليهم ديناراً واحداً، وقرروا في العام الثاني والثالث ثلاثة دراهم، وهم في الصعود إلى أن تقرر الأمر على العشرة وثبت عليه إلى الآن.

فلما قوى الرجلان واستظهرا بالأمر والملك ادعى السلطنة أحدهما وثبت فيها إلى الآن ولكن اسم بلا جسم، وكان يُخطب له يوم الجمعة على المنبر سلطان الشرق والغرب ملك الأرض، فقام رجل وقال: سلطان طاس وبيكاس[1] ملك لدوكران، وهما موضعان طرفي الجزيرة، ويصح دور الجزيرة فرسخ، ويقال: ثلاثة أيام، وله في البحرين مراكب تسمى بالنوبية تضرب له في (ال حس نوت)[2].

وتؤدى العرب الذين هم ملاك في البحرين كل عام عشرين ألفًا لضرب تلك النوبة في بلادهم...[3] وسكر في بعض الليالي فقال لرجل غريب حضر معهم: قد وهبتك سفاهات، فقبل الرجل الغريب، فلما أصبح قال الملك للوزير: اكتب لفلان منشور بتسليم نوابنا له سفاهات! فقال: سمعًا وطاعة! فبعد انقضاء أيام صادف الملك الرجل الغريب فقال له: ألم تتجهز إلى سفاهات؟ فقال له الغريب: أدام الله عز الملك، أريد نفقة أنفق بها حتى أتوصل إلى سفاهات، فقال: أعطوه خمسمائة ألف دينار، فأخذ الرجل المبلغ ورجع إلى بلده.

---

(١) غير منقوطة بالأصل.

(٢) هكذا ورد ما بين القوسين في الأصل، والكلمة الأخيرة غير منقوطة.

(٣) بياض بالأصل.

ولماذا سميت جزيرة قيس

تراهن قيس بن زهير بن جذيمة بن أبي سفيان، وهو صاحب الداحس والغبراء، مع ربيع بن ساس صاحب الخطار والحنفاء، وكان الخطار والداحس حصانين، والغبراء والحنفاء فرسين، فغلب الداحس الخطار، وجرى بين القوم ما جرى، فخرج قيس بن زهير صاحب الداحس إلى ناحية عمان ليطفي نار الشر، فلما توطن في عمان فتح دكاناً وكان عطاراً وقعد يبيع ويشتري، وإذا بأميرين من أمراء عمان تراهنا فيما بينهم وجرى بهم الكلام في سباق الداحس والخطار، فحضر الأميران إلى الشيخ العطار وسألوه عن قصة السباق ومن غَلب وغُلِب، فقال لهم الشيخ: ما لكم بسؤالي من حاجة، قالوا: بلى، قال: الداحس غلب، فلما سمع المغلوب اغتاظ من هذا وشتم الشيخ وتفل في وجهه، فحينئذ أغلق الشيخ دكانه وجاء إلى بيته وأسرج وألجم الداحس وركب وقال لبنته ياقوته: اسبقيني إلى البئر الفلانية فاقعدي عندها، وقدم الشيخ إلى مجمع القوم وقال: أنا قيس بن زهير، وحصاني هذا هو الداحس، ومن لم يعرفني فليعرفني، وحمل على الذي تفل في وجهه فضرب عنقه، وساق الداحس إلى البئر وأردف ابنته ياقوته وراءه فتبعته الخيل إلى الساحل، فركض الحصان فلم ينزل البحر فعصب عينيه وآماقه فنزل البحرِ وسبح إلى أن توسط البحر فتعب الحصان وغرق الثلاثة جميعاً، وقال أهل جزيرة قيس: سبح الحصان براكبيه إلى أن صعد بهم الجزيرة فسكنوا وأهل جزيرة قيس منهم، فلذلك يسمون جزيرتهم بجزيرة قيس، وهو قيس بن زهير بن جذيمة بن أبي سفيان، لأنه أبو القوم.

ويقال: إن الجزيرة كانت... فلما صعد قيس مع ياقوتة والداحس ولّوه أهل الجزيرة على أرواحهم وأموالهم وتزوج منهم وأولد الجاشو، وزوج ياقوتة بأكبر مَن في الجزيرة فأولدها الفُرس، وإلى الآن في رءوس الفرس حماقة العرب.

حدثني رجل من أهل فارس... به الجاشو من الديلم وكانوا يسكنون الفلاة بفارس وأعمالها، وهي ذات خيل ونعم وإبل، فلما طال السوط في القوم تعلقوا في الجبال وبنوا الحصون وسكنوها، فعرف القوم بسواكاره، أي مرخين الشعور شبه الأكراد، فلما عمرت الحصون ركبوها الحصون وازدادت العمارة، فسكَن رجل منهم جزيرة قيس فطلع من نسله الجاشو، وهذا هو الصحيح.

نسبة الجاشو

ثار بملك من الملوك علة البرسام ووصفت له الأطباء أن يفترش كل ليلة جارية نوبية بكراً يزول ما به من العرض والمرض.

قال ابن المجاور: ولم يكن في جميع المخلوقات أَحَرّ من فرج الجارية النوبية، فمن حرارة فرج الجارية النوبية يتحلل البرسام وينزل في جملة المني إلى الجارية النوبية، فإذا قامت المرأة نفضت المني من فرجها وبرئ المعلول من العلة، ولم يضر الجارية شيء، ويقال: إنه يضرها.

فلما سمع الملك ذلك أنفذ وزيراً له إلى بر السودان فأمر أن يشترى له مائة جارية نوبية أبكاراً، فلما تجهز الوزير ترخم الآلة وتركه في حُق وناوله الملك وسافر إلى أن وصل بلد السودان واشترى الجوارى الأبكار، وقدم بهم إلى الملك، فلما

قدم الملك إلى إحداهن وجدها ثيبًا، وكذلك الثانية والثالثة والعاشرة إلى المائة وجدهن رُجّعًا على نسق واحد، فلما دخل الوزير إلى خدمة الملك قال الملك للحاضرين: جاشك، أى إنه شك فيهم، أى استفضهم، وقال: بل ما شك، أى جاء من شك فيه اليقين، فلما تحقق الوزير مقالة الملك استدعى بالحُق وفتح رأسه فإذا فيه الآلة، فقال له الملك: ما حملك على هذا الفعل؟ قال: خفت هذا الذى بدا وقضية الذى جرى، وحينئذ نادى الملك جميع الجوارى وسألهن عن حالهن فقلن: إنا نزلنا فى الجزيرة الفلانية وسبحنا فى عين ماء عذب فما علمنا بأنفسنا إلا وكل منا معها جنى يستفضها، فقال الملك: تردهم إلى جزيرتهم، فسكنوا جزيرة قيس، فبنوا الدور وتناسلوا وكثر الناس، فسموا جاشك، على ما جرى من لفظ الملك، فدارت عليهم اللغة فسُموا جاشو.

فصل: حدثنى أبو القاسم بن إبراهيم بن محمد المرابط قال: تمت حالة مثل هذه الحالة فى أرض المغرب وأنفذ الملك بوزير له يسمى... با أى إلى أعمال السودان يشترى له جوار، فلما دنا الملك من الجوارى وجد عندهن وساعًا، قال: زناتا، يعنى الوزير ناوانا، فعرفت القبيلة بزناتا، وهم قوم من البربر رجل وخمسون ألف ضارب سيف.

قال ابن المجاور: وما أظن القوم افترقوا فرقتين إحداهما سكنت أرض المغرب فعرفوا بزناتا، والفرقة الثانية سكنت جزيرة قيس فعرفوا بالجاشو.

صفة اللؤلؤ

أصله صدف يتربى في قعر البحر المالح فإذا نزل الغيث في فصل نيسان صعد الصدف ينفتح بعضه من بعض بعد أن يطفو على وجه البحر لأجل التقاط الغيث فكم ما وقع في أحدهم قطرة انضم الصدف على قطرات الغيث الذى حصل بباطن الصدف إلى قرار البحر يربيه، كما قال:

أيلولُ دهري منكم لا يفارقني وحق غيري أذارٌ ثم نيسانُ

فصل: قال أنوشروان العادل لوزيره بزرجمهر: كم يساوى تاجي هذا؟ قال: دخل مطرةٍ في نيسان، قال: وما المعنى فيه؟ قال: إن وقع في البر فهو برٌّ وإن وقع في البحر فهو در.

أنشدني محمد بن منصور بن محمد الواسطى:

هو حـرٌ وإن ألمّ به الضـ ـضر ففيه العفاف والأنَفُ
والذل لا يرتجيْ لمكرمةٍ لأن فيه المزاج مختلفُ
كالقطر سُمٌ إن حل في فم الثـ ـثَّصل ودر إن ضمه الصدفُ

حدثني محمد بن أبي سعد القاضي الرازي قال: سمعت من لفظ أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين، المعروف بابن خطية بالرى قال: ليس ينفتح الصدف ويستقبل الغيث إلا في البحر المحيط وراء عالم الكون والفساد، فإذا نزل الدر في الصدف سبح الصدف في قعر البحر وهو ينتقل من موضع إلى موضع إلى أن يستقر في مغاصه المعروف بالبحرين وكيش والمعبر وسيلان وفي مواضع شتى.

وما يُصاد الصدف إلا يوم يطلع النخل ويبطل يوم يُقطع العِذق عند انصرام النخل لأن هذا الفصل هادئ الموج من قلة الموج، وكان المغاص فى... مباحا للناس كلٌ يغوص لنفسه ويأخذ ما قُسم له من الرزق.

وكان اللؤلؤ من كثرته تحلية النساء والأطفال والمشائخ، وهو موسم كموسم الغلال فى سائر العالم تحلية كل أحد إلا فى هذا الوقت فإنه بطل جميع ذلك وصار الصيادون يصطادون وعليهم كتبة وعمال وقُبّاض يتسلمون منهم الأول فالأول من الآخر إلى الأول، ولو وجد حبة فى يد رجل لأخذ ما تحته وما فوقه.

فصل: سفّر جمال الدين بختيار القابض إلى الهند رجلا برأس مال مبلغه ألف مثقال، فلما توسط الرجل الطريق أخذ به السراق وسلم معه من جملة المبلغ عشرة مثاقيل ذهب، فدخل قيس فبينا هو ذات يوم قاعداً فى بيته إذ دخل عليه أسودان زنوج وقالا له: تشترى منا حبة لؤلؤة؟ فقال: نعم، فحينئذ أخرج أحدهم من فيه حبة أكبر من بيضة العصفور، فلما شاهد الرجل الحبة حار ودار ولفها فى فيه وبلعها، فقالوا له: هات الحبة، فقال لهم: والله إنى تركتها فى فمى لأنظر صفاءها فنزلت إلى الأمعاء، فقالوا له: فما تعطينا ثمنها؟ فأخرج لهم العشرة وحلف بالله العظيم لا يملك سوى ذلك، بل خذوا منها ما شئتم وخلوا إلى ما شئتم، فعدوا ثمانية أعداد وأعطوه عددين، وسافر الرجل بالسلامة إلى أن وصل سفاهات فأعطى الحبة لجمال الدين بختيار القاضى وقال له: تجعلنى فى حل من مبلغ كان لك علىّ، قال له: أنت فى حل وأبرأت ذمتك من مبلغ ألف مثقال، وزن كل مثقال ستة دوانيق، كل دانق أربع طياسيج، كل طيسوج أربع شعيرات، وأعطاه فى يديه مائة مثقال، أى

يعيش فيها ويأكل فيها الخبز، فوصل خبر الحبة إلى بغداد فأنفذ الإمام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، إليه لينفذ الحبة، فلما وصلت الحبة إلى عينه الشريفة أنفذ له ثمنها ستة آلاف مثقال، ويقال: إنها قُوِّمت بأربعة وعشرين ألف دينار.

فصل: كان ملك من ملوك كشك ومات وملك ابنه من بعده المُلك فأبصر من البضائع جملا فأطلق يده في البيع فباع وصار التجار يدخلون حوفًا بعد حوف يشترى كل منهم ما أراد وصلح له، فدخل الشيخ أبو طالب بن على بن سويد، ويقال: عبد اللطيف ولد أبي طالب بن على بن سويد التكريتي إلى مخازن النيل بقي منها اثنا عشر قطعة ووزن ثمنها ورفعها وسافر بها وكتب الله له السلامة إلى أن وصل تكريت، فجاء يهودى صباغ يشترى منه قطعة فأخذ قطعة ليرى العين فإذا هي قطعة ملؤها لؤلؤ.

فلما أبصر الشيخ أبو طالب ذلك قال لليهودى: ادفع قطعة نيل وأنت فى حل منه واكتم ما رأيت، وخرج اليهودى بما معه وقام الشيخ ابن سويد علّم ولده ثقب اللؤلؤ فصار الولد يثقب كل حبة تشبه بيض الدجاج، وصار الشيخ ينفذ بعقود اللؤلؤ من تكريت إلى أعمال القسطنطينية العظمى وإلى آخر أعمال المغرب وإلى آخر الهند والترك وهو يبيع منه إلى الآن.

قال ابن المجاور: وكان السبب فى تلك القطعة أن الملك كان يُقى اللؤلؤ فما كان من حبة غالية كبيرة مليحة تركها فى كيس إلى أن كثر الشيء عليه، فلما زاد خيّط له كيسًا وعبى اللؤلؤ المتغالية وخيّشه بخيش وركّب عليه أربع عُرَى وجلّده

بجلد بقر فرجع يشبه قطعة نيل وعلّم فيها علامة يعرفها وعباها بين النيل، فلما حصلت في نصيب ابن سويد فيقال: إنه لم يُعرف لماله قياس ولا حد من بركات تلك القطعة، كما قيل:

يفوت الغني من لا ينام عن السرى   وآخر يأتي رزقُه وهْو نائمُ

صفة جزيرة قيس

جزيرة يصح دورها ثلاثة فراسخ مصارية، طول في عرض، وهي ذات نخل وزراعات القرظ نخل الملك وما والاها ساحل يحفر الإنسان الرمل بيده فينبع عليه الماء حلواً عذباً فراتاً، ويقال: إن فيها كاريز جارٍ في بستان الملك، وحفرت الملوك بها أحواضًا وصهاريج في أول العهد وبقيت تعمر إلى الآن يملؤها ماء العيون والسيول.

مأكولهم السمك ويعملون منه الهرائس ويؤكل مع التمر، وليس لأهلها مأكول سواه، ولم يتناولوا الطعام إلا باليد اليمنى، لا غير، وإذا كسر الإنسان بيديه فهو العيب العظيم.

وبناء القوم بالحجر والجص ودورهم ذات علو ورفعة، يجعل أحدهم في البناء سبع طبقات، وكل دار منها شبه حصن مانع، ولا يزال بها أشجار نقلت من البصرة، ويزرع به البقول وسائر الخضروات.

وفي أهلها عرق تكبّر وعرق خفة وعرق جنون، كما يقال: الجنون فنون،

ينسبون إلى قيس بن الملوح، ويقال إلى امرئ القيس، والأصح إلى قيس بن زهير، وقد تقدم ذكره.

لبسهم من أعمال المهدية بالمغرب، ويرجعون يرخون هدبات العمائم طوال، وهم رجال البحر، وليس لصاحبها خيل ولا عسكر إلا الدوانيج والبومات والهاسق، شبه العقارب، وتجرى على وجه البحر، وقد قنعوا ببلدة وسكن، ولبس نسائهم السواد.

وإذا تزوج رجل امرأة وأعطاها مائة دينار أعطته المرأة مائة أخرى وكتبت عليه قبالة دين حال قار بمبلغ مائتي دينار، وكلما زاد الرجل في المهر زادت المرأة في النقد، وإذا نقص من المهر نقص من النقد.

وهم قوم يعزون الغرباء، ولهم بهم عناية عظيمة.

وتحكم نساء هذه الأعمال على رجالها، وما يفعل الرجل إلا ما تقول زوجته من صلاح أمر أو فساد حال، وهذا خلاف ما قاله رسول الله ﷺ: «شاورهن وخالفوهن، فإن في مخالفتهن البركة».

فكانت خلفاء قيس يسلمون القطعة للسلطان الأعظم ركن الدنيا والدين أبي الفتح ملك شاه بن محمود بن ألب أرسلان، فلما توفي وتولى بعده السلطان الأعظم معز الدنيا والدين أبو الحارث سنجر بن أيوب شاه فلم يلتفت إلى الفقراء لاتساع الملك عليه والمال لديه قطع ذلك، إلى أن جدد الإمام أبو العباس أحمد، الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، وكان السبب فيما ذكره أن تاجراً مات من أهل بغداد في جزيرة قيس وخلّف ثلاثين ألف دينار ذهباً عيناً فأخذ الملك ذلك المال،

وجاء الوارث بكتاب حكمى بعد أن أثبته عند الحاكم، فلما وصل الأمر إلى الملك استكبر عن أداء المال وتغلب على الوارث، ورد الوارث بكتاب الحكم إلى بغداد وعرض حاله وما تم له على الإمام، فأمر الإمام الأمير بادكين[1] صاحب البصرة أن يقطع عنهم المادة فقطع وضاق ذلك على أهل الجزيرة، فلما رأى الملك نقصان حاله قرر على نفسه الثلاثين الألف دينار التى للمتوفى إلى ورثته ببغداد مع نصف دخل جزيرة قيس للخليفة سنة خمس عشرة وستمائة.

ففى الجزيرة عامل للخليفة وعامل لصاحب كيش وكذلك فى نفس الجزيرة عامل للخليفة وعامل للملك، كما قال:

يا قاتلى جَرَمًا بغير مودةٍ ... احذر عليك، كما تَدينُ تُدانُ

وهذه الجزيرة حصينة طيبة نزهة وغالب سفر أهلها فى البحر وشراؤهم البربهار، وليس يخرج عندهم من الضرائب الذهب إلا أبو نقطة، ولا يشترى أحد من هؤلاء قدور البرام وقصب القنا إلا الملك وحده، ولم يبع أحد قدور البرام وقصب القنا إلا الملك وحده، وإن لم يبع هذه صاحبها على الملك أخذها عنفاً.

يقال: إن عنده مخازن برام وغضائر ملؤها قصب القنا، ولم يقع للمسافر وقت السفر فسح إلا بخط سبع عشرة علامة للنواب والثامنة عشر علامة الملك.

حدثنى جوشن بام بن أبى بكر بن سليمان الجاشو قال: إذا وقع الملك على خط الفسح أعاد للرجل الخط، يعنى الفسح، من خلال خشب من عمل يده، وهو

(١) غير منقوطة فى الأصل.

خلال يخلل به الإنسان أسنانه عند أكل اللحم الحرام، فإن صح حمله غلام ولم يصح الخلال لمن يكتب الرقعة، قلت: فما المعنى في الخلال؟ قال: لا أعلم إلا أنها رسوم جرت من قديم الزمان، قلت: ومن ينحت هذه الأخلة؟ قال: الملك بيده.

ما الجزيرة في الأصل

دفا ووادى الأحجار وعطفان ولوى وحوار وحصوين ومحترقة والعقر وكلتا وصاحت وليمن وكرار وحصب وجرعا والمجزرة ويخطب له في كنبايت والسومنات وبدريسر[1] وهذه البلاد بلاد واحدة، وإذا وصل مركب القيسى يحترم غاية الاحترام لا غير لأن الذين بها اختاروا الملك من قيس لأنه قريب منهم، وإذا خطب للخليفة خطب من بعده لصاحب كيش لا غير، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما فعل صاحب قيس

وقيل: صاحب كيش، وما فعل معه صاحب مكران.

أنفذ الملك تاج الدين أبو المكارم بن الحسن وابن الحسين كهرو بمال جزيل فاشتريا له من مسقط حصاناً قيمته ألف مثقال، ورُكّب الحصان في مركب تعدّى به من بر العرب إلى بر العجم، فلم يخبر الحصان ملك قيس فأنفذ دوانيج وبومات قطعوا عليه الطريق وأخذوا الحصان.

(١) غير منقوطة في الأصل.

فلما سمع تاج الدين أبو المكارم قصة الحصان أخذ مراكب السراق وميّلها على منادخ القيسي وقال لهم: كل مركب ترونه لصاحب قيس فخذوه أخذ عزيز مقتدر، فأخذوا من ذلك الموسم اثني عشر مركباً موسوقاً من سائر الأمتعة والطرف والتحف والأموال، فأنفذ صاحب كبش إلى تاج الدين بن مكران رسولا يقول له: قل الحمد لله على نعمه، والله المستعان على أهل هذا الزمان، كيف رجع الملوك سراقاً يقطعون طرق البحر على سُلاكه؟ فقال تاج الدين بن مكران للرسول: والله ما علمني قطع الطريق إلا ملككم.

فقال الرسول على لسان ملكه: مثلي يقاوى مثلك، قال: ليس لك طاقة، قال: أنا أعرفك نفسي، قال: بغير الاختيار قال: لأفدينك قدرك قال: هذا شهوتي، قال: إني مبلغ شهوتك، قال: إن شاء الله.

والله لا كلمته أبداً ولو انه	كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفي
ولأصبرنْ على مرارة هجره	كيلا تراني العذول فيشتفي
من صح قبلك في الهوى ميثاقُه	حتى تصح ومن وفي حتى تفي

وقال آخر:

من لا يزرك فلا تزر	ه ولا .. كرامهْ
وامدد له حبل الجفا	واحفر له في الأرض قامهْ
فإذا برى ولقيته	فالعذر يهنئك السلامهْ
وإذا انقضت أيامه	فقد استرحت من الملامهْ

وقال آخـــر:

سألبس للصبر ثوبًا جديدًا وافتل للهجر حبلا طويلا
لعلى بالرغم لا بالرضـــا أخلص قلبى قليـــلا قليـــلا

صفـــة القـــالـــى

هى عين قير تنبع فى وسط البحر، فإذا كثر القير ضربه الموج قطعة بعد قطعة، وزن كل قطعة ألف من زائد وناقص.

وحدثنى جوشن بام بن أبى بكر بن سليمان قال: إذا غاص الإنسان على يمين القير بقربة ينزل فم القربة على فم العين تملأ القربة ماءً عذبًا شبه الزلال، قلت: وكيف؟ قال: لأن ما يخرج من العين إلا مع الماء الحار والماء الذى يخرج من القير يكون حلوًا شبه العافية.

قال حكيم: إن القير فى معدنه وما يحله ويسلسله على الموج إلا حرارة الماء تحله وتدفق الماء من تحته ويخرج إلى وجه الأرض والبحر، وكذلك قياس العنبر، وهو عين سيالة فى بحار الخراب حيث لا عمارة فيه ولا سكن، وتخرج بخرج عين القير بالنعت والصفة، والله تعالى أعلم.

صفـــة البحـريـــن

هى جزيرة فى صدر بحر فارس، كما أن القلزم فى صدر بحر الحبشة، ويقال: إنها جزيرة فى بحر مالح فوق بحر عذب فلأجل ذلك سمى البحرين.

حدثنى جماعة من أهل البلاد قالوا: إذا غاص إنسان بين الماءين وشرب فشرب ماءً عذبًا فراتًا وأعلاه ماء مالح ملحًا أجاجًا.

وقال: ما سمي البحرين بحرين إلا لأجل البحر، وأهلها العرب شبه البحر في كرمهم، أى بلاد تسمى البحرين: بحر ماء وبحر خلق.

وتسمى الجزيرة أوال وبها ثلاثمائة وستون قرية إمامية المذهب ما خلا قرية واحدة، ومأكولهم التمر والسمك من ماذى رائحة وطعم رفن.

وقال آخرون: إن جزيرة أوال فى أوسط مغاص البحرين، ولا أصفى ولا أكثر ماوية من لؤلؤه، وهى جزيرة في صدر الغبة وبر العرب وفارس مستدار حولها، كما قال:

درست صـــورتِ تو ودريا دو چشم من

اى در دور مــــــانده زدريا چكـونـى

تم كتاب

تأريخ المستنصر

بعون الله وحسن توفيقه

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضـــــــوع الصفحـــــة

الموضـــــــــوع الصفحـــــة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٧٧٤٨ / ١٩٩٦
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-19-1108-2